دراسات قومية
(العدد الثالث)

مصر

٢ - الثورة العرابية

تأليف

عبدالرحمن الرافعي

دراســات قومية

(العدد الثــالث)

مصـــــر

٢ الثـــــورة العـــرابية

تأليف

عبدالرحمن الرافعي

مقدمة

فى اوائل عام ١٩٥٢، اصدر عبد الرحمن الرافعى كتابه (احمد عرابى) » وكانت الرقابة مفروضة على النشر فى ذلك الوقت . ومع انها اجازت الكتاب ، صدر امر ملكى من الملك السابق فاروق بمصادرة كتاب « احمد عرابى » ومنعه من التداول » فقد كان اسم (احمد عرابى) يقلق ملوك اسرة محمد على ، وعندما صدر هذا الكتاب الذى الفه عبد الرحمن الرافعى كانت انتخابات نادى الضباط قد اشتد الصراع فيها بين مرشح الملك ومرشح الضباط الاحرار » وكانت ثورة ٢٣ يوليو على الابواب » .

وكانت للرافعى قصة طويلة مع الثورة العرابية وزعيمها احمد عرابى ، فقد اصدر فى موسوعته عن تاريخ مصر القومى مجلدا عن (الثورة العرابية والاحتلال البريطانى) هو اصل هذا الكتاب الذى تقدمه للقارىء ضمن هذه المجموعة من (دراسات قومية) . وقد قام عبد الرحمن الرافعى نفسه بتلخيص مجلده الكبير فى هذا الكتاب الموجز .

ان الكتابة عن الثورة العرابية تناولها الكاتبون باشكال مختلفة منذ سقوطها ودخول الانجليز مصر فى عام ١٨٨٢ . فقد اصدر (سليم خليل النقاش)صاحب جريدة (المحروسة) التى كانت تصدر فى الاسكندرية كتابه الكبير (مصر للمصريين عام ١٨٨٤) ، وذكر فيه

حوادث الثورة العرابية بالتفصيل على طريقة الصحفيين . ولم يكن للمؤلف في كتابه وجهة نظر معينة بالنسبة للثورة ولكنه سجلها تسجيلا وافيا ، وقد صادر الخديو توفيق هذا الكتاب ، كما صادر ابن اخيه فاروق كتاب عبد الرحمن الرافعي .

كما اصدر الكاتب الانجليزي الشهير (بلنت) كتابة المعروف عن (التاريخ السري للثورة العرابية) وكان متعاطفا مع عرابي ، غير مهتم له ، بل كان مدافعا عن موقفه الوطني البطولي ، كما اصدر القنصل الامريكي في القاهرة في ذلك الوقت (وليام فابمان) كتابا سماه (مصر التى غدروا بها) وحيا الزعيم احمد عرابي تحية عظيمة

ثم تعرض عرابي للاتهامات على يد كثيرين من المصريين لاسباب كثيرة ، فقد اتهمه زميل السلاح اللواء مهندس محمود فهمي باشا) رئيس اركان حرب الجيش المصري في المعارك ضد العدوان البريطاني منذ البداية وحتى النهاية ، وكانت اتهامات اللواء محمود فهمي باشا تتعلق بمسائل التكتيك العسكري الذي ادعى ان احمد عرابي باشا كان يجهل اصولة مما ادى الى الهزيمة ودخول الاسطول البريطاني من قناة السويس ، ووقوع كارثة التل الكبير التي انهزم فيها جيش عرابي بعد ان امر اللواء المهندس محمود فهمي باشا رئيس الاركان قبل ان تدور المعركة

وعندما عاد عرابي من منفاه في جزيرة سيلان الى القاهرة استقبل من اعوان القصر ومن بعض الوطنيين ايضا اشنع استقبال ، وروجوا في مصر خلال الاجيال الماضية ان احمد عرابي خائن ، بل ان شوقي

امير الشعراء قالَ له قصيدة عَظيمة استقبله بها عند عودته ، وكان مطلعها :

صغار فى الذهاب وفى الاياب

أهذا كل شأنك ياعرابى ؟

واوشكت صفحة عرابى ان تطوى ، فلا يذكره احد وإذا جاء ذكره فهو خائن مارق جاهل لاقيمة له

ومنا عبد الرحمن الرافعى يده الى قلمه ، وكتب الكلمة الصادقة الحرة الشريفة التى ارخت للثورة العرابية وزعيمها احمد عرابى

هذه الصفحات هى خلاصة الدراسة العظيمة لهذا المؤرخ الجليل الذى فتح الباب امام الكتاب الاحرار الشرفاء ليكتبوا بانصاف عن احمد عرابى وثورته .. وكان له الفضل فى تقدير قيمة الشرفاء العظماء من الوطنيين المصريين

تحية الى روح عبد الرحمن الرافعى جزاء ماقدم لمصر سبتمبر ١٩٧٩

عبد المنعم شميس

الفصل الأول

الثورة العرابية

نظـرة عامـة

بعد أن خلع اسماعيل تقلد محمد توفيق مسند الخديوية يوم الخميس ٢٦ يونية سنة ١٨٧٩ (٦ رجب سنة ١٢٩٦ هـ) ومصر إذ ذاك تجتاز مرحلة من أدق المراحل في تاريخها القومي ، فالشعب يئن من المظالم والضرائب الفادحة التي عاناها في عهد اسماعيل ، ويتطلع الى حكم جديد ينتهي فيه عهد الاسراف والمظالم وتخف وطأة الضرائب والمغارم ؛ والخواطر ساخطة على التدخل الأجنبي في شئون مصر وما تعدد من مظاهره ، وتلاحق من أشكاله ووسائله ، فمن انشاء « صندوق الدين » الى فرض الرقابة الثنائية الانجليزية والفرنسية على مالية مصر ، الى تغلغل نفوذ الاجانب عامة في البلاد ، وقد بدأت ثورة الافكار والتطلع الى الحرية والنظم الدستورية في أواخر عهد اسماعيل ، وتأصلت في نفوس الطبقة المثقفة من الامة واتسع مداها في أوائل عهد توفيق ، واتجهت الافكار الى اقرار تلك النظم والعمل على توطيدها لكي تستقر على أساس مكين .

وبين هذا وذاك كانت المطامع الاستعمارية الأوروبية وبخاصة الانجليزية ترقب تطور الحوادث لكي تحقق أغراضها في مصر ، وقد بدأت هذه المطامع تتحرك نحو

اهدافها من سنة ١٨٧٥ حين اشترت انجلترا اسهم مصر في قناة السويس ، فان هذه المأساة كانت نذيرا بتوثب انجلترا لبسط يدها على البلاد ، وكانت فرنسا تطمع في أن يكون لها من النفـوذ في مصر ما لانجلتـرا أو يزيد ، والدول والجاليات الأجنبية عامة كانت ترمي الى مد نفـوذها المالي والاقتصادي فيها ، وتركيا كانت لا تفتأ تفـكر في اغتنام الفرصة لكي تنتقص المزايا والحقوق التي نالتها مصر ، فلا غرو أن كانت البلاد ـ كما أسلفنا ـ تجتاز مرحلة دقيقة في تاريخها القومي حين ولي أمرها الخديو توفيق .

لم يكن في ماضي توفيق قبل ولايته الحكم ما يسترعي النظر أو يدل على اتجاه معين في سياسته ، على أن هذا الماضي كان يبعث الأمل في أن يكون عهـده خيرا من عهـد اسماعيل ، فقد شهد المتاعب التي استهدفت لها البلاد بسبب اسراف ابيه وتورطه في القروض ، وتولى الوزارة على عهـد ابيه في ظروف اشتد فيها نفوذ الدول الأوروبية بسـبب هذا الاسراف ، ورأى بعينيه ما فرضته انجلترا وفرنسا على ابيه من أن يكون لهما في الوزارة الاصرية وزيران يمثلانهـما ويحميان مصالح الدائنين من الأوروبيين .

على أن ثمة ناحية ضعف في شخصيته ، وهي أنه كان ضعيف الرأي مترددا ، قليل الشجاعة والحزم ، فاستشعر الخوف من النفوذ الاوروبي من يوم توليته الحكم ، وكان همه الاول طوال عهده النزول على ارادة الدول الاوروبية ، ولم يكن مؤمنا بالنظام الدستوري ، بل كان في خاصة نفسـه من انصار الحكم المطلق ، ومـن ذلك تولدت في عهـده الازمات والمشاكل التي جاوزت في خطورتها وعـواقبها

ما حدث في عهد ابيه ، واخطرها الاحتلال البريطاني سنة ١٨٨٢ .

وكان محمد شريف يتولى رئاسة الوزارة في اواخر عهد اسماعيل واوائل عهد توفيق ، فابقاه توفيق في رئاسة الوزارة حتى اطمأن على مركزه ، ثم طلب منه الاستقالة فقدم استقالته في اغسطس سنة ١٨٧٩ .

وبعد أن استقالت وزارة شريف الف الخديو وزارة من غير رئيس ، وتولى هو رئاستها .

ثم الف وزارة مصطفى رياض في سبتمبر سنة ١٨٧٩ وهي الوزارة التي في عهدها قامت الثورة العرابية ، وعطلت الحياة النيابية زهاء سنتين وكان هذا التعطيل من أسباب قيام الثورة .

مقدمات الثورة العربية واسبابها

ظهرت الثورة العرابية في عهد وزارة رياض ، ومن الواجب قبل أن نعرض لوقائعها وحوادثها ، أن نذكر شيئا عن مقدماتها واسبابها .

توصف الثورة العرابية بأنها ثورة عسكرية ، وهذا صحيح لا مراء فيه اذا لاحظنا أن زعماءها والقائمين بها هم من ضباط الجيش ، وأنها قامت وتحركت وفازت وقتا ما بقوة الجيش ، ثم انتهت بهزيمته .

ولكن مما لا ريب فيه كذلك انها ليست ثورة عسكرية فحسب ، بل هي أيضا ثورة قومية ، اشتركت فيها طبقات الامة .

واذا اردنا ان نستقصي اسبابها وجدناها على نوعين ؛ « اسباب خاصة او مباشرة » ، وهي المرتبطة بطبقة الضباط والجنود وموقفهم من الحكومة ، وموقف الحكومة منهم ، « واسباب عامة » ، وهي التي تتصل بحالة الشعب والعوامل التي دفعته الى مناصرة الثورة وتأييدها .

واذ كانت الاسباب الخاصة اقوى اثرا في ظهورها وتطورها ، فلنبدأ بالكلام عنها .

الاسباب الخاصة

ترجع هذه الاسباب الى تذمر الضباط الوطنيين من سوء معاملة رؤسائهم ، وخاصة عثمان باشا رفقي وزير الحربية في عهد وزارة رياض .

عثمان رفقي

كان عثمان رفقي هذا قائدا شركسيا متعصبا لجنسه ، يتحيز للضباط الذين من اصل شركسي او تركي او ارناءودي ، ويعمل على جمع زمام السلطة في ايديهم ، ويؤثرهم على الوطنيين في الترقيات والتعيينات ، وينظر الى هؤلاء بعين الزراية والبغض .

فهو وحده يعد من اسباب الثورة العرابية ، وكان من ناحية الكفاية جاهلا ، قليل الادراك والذكاء ، عديم المواهب .. قليل النظر في العواقب ، يمثل طبقة الرؤساء العسكريين المنحدرين من سلالة الترك والشراكسة الذين كانت لهم رئاسة الجيش في عهد اسماعيل واوائل عهد توفيق .

ولم يكن الضباط الوطنيون يجدون منهم فى الجملة انصافا ، ولا مساواة ، ولا معاملة حسنة ، ولو ان اسماعيل درج على سنة سعيد فى تشجيعه المصريين وترقيتهم فى المناصب العسكرية لسادت روح المساواة فى الجيش ولما عيا امثال عثمان رفقى السبيل الى الثورة ، فقد كان سعيد يميل بطبعه الى ترقية الضباط الوطنيين ، واعطائهم حقهم فى التقدم ، وفى عهده ارتقى كثير منهم الى المراتب العسكرية العالية .

خذ لذلك مثلا عرابى ذاته ، فانه مع كونه نشأ فى الجيش جنديا بسيطا « نفرا » ، قد ارتقى الى مرتبة الضباط ، ونال درجاتها فى قليل من الزمن ، فصار ملازما سنة ١٨٥٨ ، ثم ارتقى الى درجة يوزباشى سنة ١٨٥٩ ، ثم الى رتبة « صاغ » فى تلك السنة ، ورتبة البكباشى سنة ١٨٦٠ ، ثم صار قائمقاما فى سبتمبر من تلك السنة .

اما فى عهد اسماعيل فقد ظل تسعة عشر عاما برتبة القائمقام ، وقس على ذلك سائر الضباط الوطنيين .

ولا شك فى ان اسماعيل كان يميز الضباط والرؤساء الشراكسة والترك على الوطنيين فى المعاملة رغم ما بدا منهم من العجز والجهل وعدم الكفاية ، مما ظهر اثره جليا فى الهزائم التى حاقت بالجيش المصرى سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ فى حرب الحبشة .

وعلى ما كان لهذه الهزائم من اسوأ الاثر ، فان اسماعيل لم يحاسب اولئك القواد والضباط على ما وقع منهم من الاهمال والتقصير ، وقيل انه اعتزم محاكمة راتب باشا قائد هذه الحملة ، ولكن ما لبث ان رجع عن ذلك ، بل قربه

اليه وجعله من خاصة بطانته ، وهذا يدلك على شديد ميله الى تلك الفئة ، فكانت لها الحظوة لديه ، ثم لدى الخديو توفيق .

ولو ظلت روح المساواة التى بثها سعيد فى الجيش سائدة فى عهد اسماعيل وتوفيق ، لما قامت الثورة العرابية لان عرابى وصحبه لم يثوروا الا حين طفح الكيل من محاباة أمثال عثمان رفقى للترك والشراكسة ، واضطهادهم للضباط الوطنيين .

فعرابى وصحبه كانوا على حق فى الثورة ، لان الطبيعة البشرية مفطورة على كراهية الظلم والاضطهـــاد ، ومن صفات النفس الانسانية الثورة على الظالم .

ولم تكن المظالم التى يشـــكومنها الضباط الوطنيون مقصورة على حرمانهم حقوقهم فى الترقى ، بل كانوا كذلك هدفا لاشد ضروب العنت والارهـــاق ، اذ كان يكفى أن تلصق بأى منهم تهمة ما ، ولو لم تكن صحيحة . ليكـون جزاؤه أن تنزع منه درجته أو يقصى عن منصبه ، أو ينقى الى اقصى السودان ، وتصبح حياته عرضة للخطر لأوهى الأسباب .

فالثورة العرابية كانت ثورة دفاع عن الحق ، ودفاع عن الحياة ، وليس من ينكر ما كان عليه معظم الرؤساء الشراكسة والترك والارناؤود من الغلظة والغطرسة ، والزهو والخيلاء والزراية بالوطنيين ، فان هذه النزعات كانت فاشية فيهم لا فى مصر وحدها ، بل فى سائر بلاد السلطنة العثمانية القديمة ، اذ كان العرب عامة يعانون سوء معاملة الترك لهم واضطهادهم اياهم ، وكانت هذه المعاملة من اسباب قيام

الثورات فى السلطنة العثمانية ، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ه

احمد عرابى

وما دمنا فى صدد الاسباب المباشرة للثورة ، فلا جدال فى أن ظهور احمد عرابى كان فى مقدمة هاتيك الاسباب ، فهو الذى بث فى نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة ، وتقـــدم الصفوف لعرض مطالبهم جهارا على ولاة الامور ، وكانت هذه المطالب فاتحة الثورة كما سيجىء بيانه ه

فهـذه الجـــراة كان لها أثر كبير فى ظهـــور الثــورة ولو لم يظهـــر عرابى ، ولم تكن له تلك الشـــخصية التى اجتذبت اليه صفوف الضباط وبثت فيهم روح التضامن والاقـدام ، لـكان محتملا أن لا تظهر الثورة العرابية أو لظهرت فى زمن آخر ، وفى ظروف وملابسات أخرى ، غير التى ظهرت فيها ه

الخديو توفيق

وهناك سبب من الاسباب المباشرة ، يرجع الى شخصية الخديو توفيق ، فقد كان من اخص صفاته التردد والضعف وقلة الثقة بنفسه فلم يعالج الثورة فى مهدها بالحزم والشدة ، او بالعــدل ورفع المظالم التى شكا منها الضباط ، بل كان موقفه منها التردد والتناقض ، لا يستقر على راى واحــد ، ولا على خطة واحــدة ، بل كان يقابل حركة الضباط تارة باللـــين

بالاونة بالشدة ، ثم يجنح الى التراخي والضعف ، ثم الى الشدة بعد الضعف .

ولم يكن صريحا في سياسته ، ولا في تصرفاته ، وكان أيضا يميل الى الدسائس ، ويبيح لبطانته ان تمضي في كيدها وتدبيرها ، ثم لا تلبث أن تنكشف فتثير عليه سخط الضباط وتدفعهم الى الثورة .

وكان له عدا ذلك من ظروفه العائلية ما يشجع عوامل التحريض على الثورة ، فان اسماعيل كان لا يفتأ يسعى الى العودة الى الحكم ، ولا يرضيه أن يستقر ابنه على العرش ، ومن هنا جاء الظن بأن له ضلعا في مؤامرة الضباط الشراكسة التي أججت نار الخلاف بين الخديو والعرابيين ، كما سنذكره في موضعه ، وكذلك كان له من الامير محمد عبد الحليم بن محمد على منافس قوى في التطلع الى مسند الخديوية ، وكان وجود عبد الحليم (الامير حليم) في الاستانة - مهبط الفتن والدسائس - واتصاله برجال المابين ، عاملا قويا لتهيئة الافكار لتوقع خلع توفيق ، كما خلع ابوه من قبل ، هذا فضلا من أن الامير حليم كان بحسب نظام الوراثة القديم احق بالعرش من توفيق لانه اكبر افراد الاسرة الحاكمة سنا ، ولم يتبدل هذا النظام الا في عهد اسماعيل اذ جعل العرش في ذريته « فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ » ، فكان توفيق أول من افاد من النظام الجديد ، ولم يكن قبل صدور هذا الفرمان يتطلع الى العرش ولا كان

معترفا له بالزعامة من افراد اسرة محمد على ، وبخاصة الاميرات ، اذ كن ينعين على والدته انها جارية من جوارى اسماعيل .

فهذا المركز القلق من شانه ان يغرى على الثورة .

اضف الى ذلك ان اعضـــاء وزارة رياض باشا كانوا مختلفى الراى والنزعات فى مواجهة الثـورة ، فكان هذا الموقف وما ينطوى عليه من الاضطراب والتناقض من العوامل التى اعانت على ظهور الثورة ونجاحها .

الاسباب العامة

وثمة اسباب عامة يشترك فيها الشعب بجميع طبقاته ؛ منها اسباب سياسية ، واخرى اقتصـــادية ، وثالثـــة اجتماعية .

الاسباب السياسية

فالاسباب السياسية ترجع الى تذمر المصريين عامة من سوء نظام الحكم القائم ورغبتهم فى التخلص منه . فقد كان قوام هذا النظام استبداد الحكام واضطهادهم الاهلين .

لم يكن ثمة عدل ولا قانون ولا قضاء ينتصف للمظلوم ويعطى كل ذى حق حقه ، ولا حـرية ، ولا مساواة ، ولا ضمانات قانونية تكفل للناس حقوقهم وحياتهم ، وكان الضرب بالكرباج شائعا ، يتخذه الحكام وسيلة لتحصيل الامـوال او اداة للقسوة والتعذيب ؛ حقا ان رياض باشا امر بابطاله

ولكن اوامره في هذا الصدد لم تنفذ تنفيذا تاما ، وبقي الكرباج في كثير من النواحي اداة للحكم ، وكانت السخرة مفروضة على البلاد ، ولم تكن مقصورة على المنافع والاعمال العامة ، بل كانت تستخدم لاستصلاح اطيان ذوي السلطة والجاه من الحكام والامراء .

وكان النفي الى اقاصي السودان عقوبة يعانيها الكثيرون لمجرد الشبهة ، أو النكاية ، ذكرت جريدة المونيتور إجبسيان (١٦ اكتوبر ١٨٨١) انه بالفعل محمد شريف وزارته بعد قيام الثورة العرابية تقدمت له عرائض كثيرة من المحكوم عليهم بالنفي الى السودان يطلبون رفع الظلم عنهم ، وبلغ عددهم ٩١٢ منفيا ، وهو عدد كبير يدلك على كثرة المظالم التي كان الناس يعانونها قبل الثورة .

وقد تبين من تحقيق هذه الشكايات أن كثيرين من المنفيين كان يتقرر نفيهم لمجرد محضر موقع عليه من بعض الافراد باتهام اى شخص بانه خطر ، او لمجرد خطاب من اية سلطة محلية بهذا الاتهام .

ولم تكن المظالم مقصورة على طبقة دون اخرى ، بل كانت عامة ، يعانيها العامة والخاصة ، ولم يكن ينجو من شرها الا من كانت تشملهم رعاية اولي الامر ، على ان هذه الرعاية لم تكن مضمونة البقاء ، بل كثيرا ما تنقلب غدرا لغير ما سبب سوى اهواء الطغاة وتقلباتهم .

فالمصريون كانوا اذن يتطلعون الى التخلص من نظام الحكم القائم وقتئذ ، وقد ادركت الطبقة الممتازة من الامة

ان اصلاح هذا النظام انما يكون بقيام الدستور وانتخاب مجلس نيابي يوطد مبادىء العدل والحرية ، ويتحقق فيه معنى الرقابة على الحكام ، ويحول دون ارتكاب المظالم ، فيأمن الناس على حقوقهم وعلى حياتهم ، ومن هنا اتحدت الطبقة المثقفة من الامة والضباط الوطنيين في الشعور والميول ، واجمع الكل على المطالبة بالمجلس النيابي .

فالثورة العرابية كانت من هذه الوجهة ثورة على المظالم وثورة على الحكم الاستبدادي .

وليس يخفى ان البلاد عرفت شيئا من النظام الدستوري من قبل ، اذ انشىء مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ على عهد اسماعيل ، ولكنه كان مجلسا لا سلطة له ، فلم يكن له أي اثر في رفع المظالم عن الاهلين ، وقد بدأت روح الحياة والمعارضة تظهر بين اعضائه في اواخر عهد اسماعيل ، وتطلعت انظار الخاصة من النواب والاعيان الى اصلاح نظامه وتوسيع اختصاصه ، وحقق شريف باشا هذه الآمال بوضع دستور على احدث المبادىء العصرية سنة ١٨٧٩ .

وبينما كانت الطبقة المثقفة ترتقب اعلان الدستور على يد الخديو توفيق ، اذ بهم يرون شريف باشا يستقيل لمعارضة الخديو اياه في تشكيل مجلس النواب ، واصراره على الحكم المطلق ، ورأوا توفيق يؤلف وزارة برئاسته مما ينم عن ميوله الاستبدادية ، ثم يكلف رياض باشا تأليف وزارة كان من مبادئها الاساسية حكم البلاد حكما مطلقا ، وحرمانها من أي نظام دستوري ، حتى مجلس شورى النواب القديم على ما كان عليه من ضعف السلطة ، لقد ظل معطلا زهاء سنتين ، طوال عهد وزارة رياض .

ولم يتس ما كان لهذا المجلس من بعض المواقف الطيبة في أواخر عهد اسماعيل ، وانه عطل في عهد توفيق ، فكان لزاما ان يستأنفوا الجهاد للدستور . وكان طبيعيا إذا دعاهم داع إلى الثورة أن يلبوا نداءه طائعين مستبشرين .

ويتبين لك من هذه الناحية ان الثورة العرابية هي استمرار للحركة الوطنية التى ظهرت في أواخر عهد اسماعيل وامتداد لها .

اضطهاد المعارضة

وكانت سياسة رياض من أسباب ظهور الثورة ، فقد استهدف لحركة مقاومة قوية ، لما بدا منه من المعارضة في انشاء مجلس النواب ، وانحيازه للنفوذ الاوروبي ، وما عرف عنه من الاستخفاف بميول الشعب وعدم اكتراثه لآراء الخاصة من الكبراء والاعيان ، واصراره على قمع كل معارضة بالشدة ، واضطهاده للمعارضين .

ومن أمثلة هذا الاضطهاد تجريد الفريق شاهين باشا كنج وزير الحربية السابق من رتبه والقابه لاتصاله بالحزب الوطني ، وتقديم السيد حسن موسى العقاد للمحاكمة ونفيه الى اقاصي السودان لاعتراضه على الغاء قانون المقابلة كما سيجيء بيانه في الاسباب الاقتصادية ، ثم اضطهاده الصحف المعارضة لوزارته .

استهدفت الصحف المعارضة للاضطهاد في عهد وزارة توفيق ثم في عهد وزارة رياض ، واستخدمت الحكومة

اللائحة القديمة المسماة لائحة او نظامنامة المطبوعات (غير قانون ٢٦ نوفمبر ١٨٨١) لانذار الصحف او تعطيلها .

فالصحف المعارضة وما كانت تبثه فى الافكار من روح التبرم بنظام الحكم والتطلع الى الحرية والدستور ، وما لقيته من الاضطهاد ، كل ذلك كان من الاسباب الممهدة للثورة والمحرضة عليها .

تاسيس الحزب الوطنى

اشتد ساعد الحركة بتاليف جمعية من الناقمين على سياسة رياض ، عرفوا بالحزب الوطنى (غير الحزب الذى اسسه الزعيم مصطفى كامل) ، وقد نشروا فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ أول بيان سياسى لهم ، وطبعوا منه عشرين الف نسخة ، وسعى رياض فى معرفة ناشريه لاقصائهم الى السودان ، فلم يستطع الى ذلك سبيلا .

ويقول المسيو جون نينيه John Ninet عميد الجالية السويسرية فى مصر الذى عاصر حوادث الثورة العرابية ان اخفاق رياض فى تعقب ناشرى هذا البيان شجع لخصومه على متابعة العمل لاسقاطه ، وان منهم الخديو توفيق ذاته ، ومن بينهم الباشوات الاربعة شريف باشا واسماعيل راغب باشا وعمر لطفى باشا ومحمد سلطان باشا ، وانهم اوفدوا الى باريس أديب اسحق لانشاء جريدة القاهرة ، وقد رحل فعلا الى أوروبا بعد الغاء جريدته

« مصر » و « التجارة » ، واصدر بباريس جريدته المعارضة لوزارة رياض ، وكانت من اشد الصحف لهجة ضدها . فكانت من اقوى العوامل في اثارة الافكار على رياض ووزارته ، وتعقبها رياض لمنع تداولها في مصر ، ولكن الباشوات الاربعة كانوا يوزعونها في انحاء البلاد ، وتعددت الاجتماعات السرية في منزل سلطان باشا لتنظيم الحزب الوطني ، وقويت الروابط بين منظميه ، وكان في مقدمتهم سلطان باشا واحمد عرابي بك وصاحباه عبد العال حلمي وعلى فهمي ، ومحمود سامي باشا البارودي .

فالحزب الوطني كان له اثر كبير في ظهور الثورة العرابية .

وكانت بالإسكندرية جمعية اخرى عرفت بجمعية « مصر الفتاة » ، ورفعت عريضة الى الخديو بمطالب الحرية وانشات جريدة « مصر الفتاة » للدعوة الى الحرية ، وهي الجريدة التي عطلتها الحكومة .

وثمة عامل آخر ، يتصل بالاسباب السياسية ، كان له اثره في التحريض على الثورة ، ويعد من مقدماتها ، وهو حدوث سابقة للثورة العرابية ، ونعني بها ثورة الضباط على وزارة نوبار اواخر عهد اسماعيل في فبراير سنة ١٨٧٩ ، فان تلك الثورة كانت صورة مصغرة للثورة العرابية ، اذ قامت على اكتاف الضباط ، وكان الباعث عليها شكواهم من تأخير مرتباتهم واحالة ٢٥٠٠ منهم الى الاستيداع ، فذهب نحو ستمائة ضابط منهم يتبعهم لفيف من طلبة المدرسة الحربية ونحو الفين من الجنود الى وزارة المالية بحجة رفع ظلامتهم الى

نوبار والسير ريفرس ويلسن وزير المالية وقتئذ ، فهجموا على نوبار واعتدوا عليـــه بالضرب ، وكذلك اعتدوا على السير ريفرس ويلسن ، واقتحموا أبواب الوزارة واحتلوا غرفها وقاعاتهـــا ، وحبسوا نوبار ورياض (وكان وزيرا للداخلية) والسير ريفرس ويلسن فى احدى غرف الطابق الاعلى ، وكانت نتيجة تلك الثورة سقـــوط وزارة نوبار ، فهذا الفوز الذى أحرزه الضباط سنة ١٨٧٩ قد أغـــرى عرابى وصحبه بالثورة سنة ١٨٨١ .

الأسباب الاقتصادية

لم تكن الحالة الاقتصادية خيرا من الحالة السياسية ، بل كانت ادعى منها الى الثورة .

فالديون التى اقترضها الخديو اسماعيل القت عـلى البلاد عبئا جسيما من الاثقال الفادحة ، واضطرت الحكومة الى تخصيص نصف موارد الميزانية لسداد فوائد الديون ، فكان ذلك سببا لتـــذمر الاهـــلين خـاصتهم وعامتهم ، لأن تخصيص هذا المبلغ الضـــخم ، الذى يجبى كل عـام من عرق الفلاح وكده ، معناه حرمان الاهلين ثمرة جهـــودهم ومتاعبهم ، واضاعتها لحساب الدائنين .

هذا فضلا عن فداحة الضرائب فى مجموعها ، وعدم توزيعها توزيعا عادلا ، واقتضائها بوسائل القهر والارهاق ، فانضم الاهلون الى الثورة وشايعوها آملين أن تخفف عنهم اعباء الضرائب .

وكان استفحال نفوذ الاجانب عامة واستحـواذهم على مرافق البلاد الاقتصادية مما دعا الى تبرم الاهلـين بنظام

الحكم ، لأن الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها ؟ والمزايا التي نالها التجار والمرابون منهم قد أكسبتهم الاموال الطائلة فأثروا على حساب الخزانة المصرية وعلى حساب الاهلين».

وزاد في تذمر المثقفين والاعيان استسلام الحكومة في عهد وزارة رياض لمطالب الدائنين وحكوماتهم ، فقد اقرت نظام « الرقابة الثنائية » كما املاه القنصلان الانجليزي والفرنسي ، وخولت الرقيبين الاوروبيين سلطة واسعة المدى في شئون الحكومة المالية ، واتسع النفوذ الاوروبي داخل الحكومة بواسطة الرقيبين وخارج الحكومة لاستجابتها لمطالب الماليين والاوروبيين ، والترخيص لهم باستثمار موارد البلاد ومرافقها الاقتصادية ، فانشئت في عهد وزارة رياض عدة مؤسسات مالية واقتصادية زادت من طغيان النفوذ الاوروبي في حياة مصر الاقتصادية ، كالبنك العقاري « وقد اسس في ١٥ فبراير سنة ١٨٨٠ » وشركة تكرير السكر ، والشركة العمومية لاجراء الاشغال بالديار المصرية ، وشركة المقاولات وغيرها ، وكلها شركات اجنبية برؤوس أموال أوروبية ، واعضاؤها من الاوروبيين وعقود تأسيسها التي صدرت بها الاوامر الرسمية لم تراع فيها مصالح الاهلين في شيء ».

«فهذا الاسراف في رعاية المصالح ورؤوس الاموال الاوروبية وتمكينها من التغلغل في كيان البلاد المالي والاقتصادي ، كل ذلك كان له أثره في تبرم الناس بالوزارة فضلاً عن انه كان في ذاته عملا غير صالح ولا يتفق والروح القومية ».

وزاد الاعيان سخطا على الوزارة انفاذها « قانون المقابلة » فانضموا الى صفوف المعارضة ».

كذلك ان ابطال ما كان يقضي به هذا القانون من اعفائهم من نصف المربوط على اطيانهم من الضرائب ، فيه ضياع اموالهم التي ادوها للحكومة مقابل هذا الاعفاء ، وقد كان اكثر الاعيان اعتراضا على هذا الالغاء السيد حسن موسى العقاد ، فقدم بذلك مظلمة الى لجنة التصفية نشرها في جريدة « الريفورم » ووصف فيها هذا العمل بانه استبداد ، وابان ان قانون المقابلة وما احتواه من المزايا لدافعي الضرائب مقدما هو عقد لا يجوز نقضه من جانب الحكومة وحدها وأن الاهالي قد احتملوا شدائد كثيرة في اداء المقابلة ، وباعوا في هذا السبيل مصوغاتهم واملاكهم ، واستدانوا الديون الفادحة ، فكان لزاما على الحكومة ان ترد جميع ما اداه المالكون الى اصحابه ، بحيث لا يسري موضوع الالغاء الا بعد رد ما اخذته الحكومة .

فرأى رياض في تقديم هذه المظلمة الى لجنة التصفية ونشرها في جريدة « الريفورم » معنى التشهير بالحكومة واثارة الافكار عليها ، وبخاصة لان العقاد دعا الاهالي الى توقيع عرائض بهذا المعنى ، فأمر بالقبض عليه وقدمه للمحاكمة ، فحكم عليه مجلس مصر الابتدائي بالحبس سنتين ، وشدد المجلس الاستئنافي هذا الحكم ، فزاده الى خمس سنوات ، ولم تكتف الحكومة بذلك ، بل قضى « مجلس الاحكام » بنفيه الى فازوغلي باقاصي السودان[1] ونفذ فيه الحكم وسيق الى فازوغلي ، ولم يفرج عنه الا في عهد وزارة شريف بعد انشاء مجلس النواب .

... يضاف الى ذلك صدور القانون المعروف بقانون التصفية ٤ يوليه سنة ١٨٨٠ ». فقد ظهر فيه من التحيز للدائنين الاجانب والإجحاف بالاهلين ، ما زاد الناس كرها لوزارة رياض ، وازداد الاعيان والملاك سخطا عليها لما فرضته عليهم من زيادة ضريبة العشر على اطيانهم .

ومن مظاهر سياسة الحكومة الاقتصادية انقاص عدد الجيش توفيرا للنفقات وهذا النقص كان له سبب آخر يتصل بالحالة السياسية ، وهو صدور الفرمان السلطاني الى الخديو توفيق مشتملا على انقاص عدد الجيش العامل الى ١٨ الف جندى ، ولكن السبب الاقتصادى كان له اكبر الاثر فى هذا النقص ، لان عدد الجيش نقص الى اثنى عشر الفا ، اى الى اقل مما حدده الفرمان السلطانى ، وقد استتبع هذا النقص احالة كثير من الضباط الى الاستيداع ، ووقوعهم فى الضيق المالى ، ولم تعن الحكومة بتدبير وظائف لهم تعوضهم ما نقص من رواتبهم ، فانضموا بطبيعة الحال الى الناقمين .

وشارك الموظفون ضباط الجيش فى شعورهم ، اذ رأوا من مظاهر اتساع سلطة الرقيبين الاوروبيين ما يثير فى نفوسهم روح السخط والتبرم ، واهم هذه المظاهر ازدياد نفوذ الموظفين الاوروبيين فى دور الحكومة وزيادة عددهم ، وتمييزهم بالمرتبات الضخمة ، فاستاء لذلك الموظفون الوطنيون .

والخلاصة مما تقدم أن الثورة العرابية هى من الوجهة السياسية ثورة على الاستبداد والمظالم ، ومن الوجهة الاقتصادية ثورة على التدخل الاوروبى فى شئون مصر

المالية وعلى النظم الاقتصادية التى كانت تعانيها البلاد قبل الثورة .

الأسباب الإجتماعية

(ا) حالة المجتمع :

ان حالة المجتمع المصرى كانت بلا مراء مستعدة لتلبية أول دعوة لتلبية نداء الحرية والثورة ، وذلك بفضل انتشار التعليم من عهد محمد على ، فالمدارس التى أسسها والبعثات العلمية التى اوفدها الى الخارج ، قد أخرجت طبقة مثقفة نالت حظا موفورا من العلوم ، وليس يخفى ان العلم من شأنه ان يهذب النفوس وينير البصائر ، وينهض بالعقول والافكار ، ويسمو بها الى التماس الرقى والتقدم ، ويعرفها معانى الحرية والمساواة والحقوق الانسانية ، ويهيب بها الى محاكاة الامم الحرة فى الثورة على الاستبداد .

(ب) النهضة العلمية

فالنهضة العلمية كان لها فضل لا ينكر فى توجيه الطبقات المثقفين الى التبرم بالاستبداد والتطلع الى الحرية والدستور ، واقترنت النهضة العلمية بنهضة فى الأدب ، قوامها الشعراء والكتاب من ادباء ذلك العصر ، والادب بما يطبع فى نفس الاديب من التطلع الى المثل العليا يمهد للنهضات الوطنية ويغذيها ويحدو بالامم الى الاستمساك بالحرية والكرامة الانسانية ، والنفور من الذل وإباء الضيم والمهانة .

بالعلوم والآداب كان لها أثرها في تمهيد الأفكار لقبول الثورة ، وفي الدعاية لها ، وقد كان لقصائد الشعراء ومقالات الادباء وما كان يلقيه الخطباء في المحافل والمجتمعات أثر كبير في التحريض على الثورة .

(ج) الصحافة

وكانت الصحافة من العوامل القوية في ترقية الافكار بما كانت تكتب عن الشئون العامة في مصر والخارج ، وما تنشر من المقالات عن مختلف الاحوال السياسية والاجتماعية ، وما تحوى من التنويه بالاعمال النافعة وانتقاد الاعمال الضارة ، فكان لها فضل كبير في تفتيح الاذهان الناس ، وتبصيرهم بالحقائق ، وتهذيبهم وتثقيفهم ، وكان لصحف المعارضة أثرها في احراج مركز الحكومة ، وتبرم الناس بها . وقد استهدفت هذه الصحف للانذار والتعطيل كما تقدم بيانه ، فكان الاضطهاد يكسبها عطف الناس ويزيدهم تعلقا بها وتأييدا لآرائها وأفكارها الحرة .

(د) السيد جمال الدين الأفغاني :

ويتصل بالاسباب الاجتماعية تأثير السيد جمال الدين الافغاني في المجتمع المصرى ، فقد ظهرت على يده بيئة مستضيئة بأنوار العلم والعرفان ، وارتوت من ينابيع العلم والحكمة ، وتحررت عقولها من قيود الجمود والاوهام ، وبفضله خطا فن الكتابة والخطابة في مصر خطوات واسعة ولم تقتصر حلقات دروسه ومجلسه على طلبة العلم ، بل كان يؤمها كثير من العلماء والموظفين والاعيان ، وكان يحمل

بين جنبيه روحا كبيرة ، ونفسا قوية ، تزينها متقسمات واخلاق عالية ، فاخذ يبث في النفوس روح العزة والشهامة ، ويحارب روح الذلة والاستكانة ، وكان بشخصيته وبدروسه واحاديثه ومناهجه في الحياة ، مدرسة اخلاقية رفعت من مستوى النفوس ، وكان على الزمن من العوامل الفعالة للتحول الذي بدا على الامة ، وانتقالها من حالة الخضوع والاستكانة ، الى التطلع للحرية والتبرم بنظام الحكم القديم ومساوئه ، والسخط على تدخل الدول في شئون البلاد ، ولئن نفى جمال الدين من مصر في اوائل حكم توفيق ، فان روحه ومبادئه وتعاليمه تركت اثرها في المجتمع المصري وهيأته للثورة ، ولا غرو فكثير من اقطابها هم من تلاميذه او مريديه أو المتأثرين بتعاليمه .

ظهور عرابي

نشـــأته ومـــاضيه

قلنا ان ظهور عرابي كان من الاسباب المباشرة الى ظهور الثورة ، ولا غرو فهو حامل لوائها وقائد زمامها ، والى اسمه نسبت ، وفي شخصه تمثلت ، فلنذكر قبل الكلام عن وقائع الثورة شيئا عن نشأة زعيمها .

ولد احمد عرابي في ٧ صفر سنة ١٢٥٧ (٣١ مارس سنة ١٨٤١) في هرية رزنة ، وهي قرية من اعمال مديرية الشرقية ، على مقربة من الزقازيق ، وكان ابوه شيخ البلد ، وهو من عائلة بدوية استوطنت تلك القرية في عهد جد عرابي ، ولما شب وترعرع علمه ابوه مبادىء القراءة

والكتابة فى مكتب القرية ، وعهد الى رجل يدعى ميخائيل غطاس ، وكان صرافا فى البلد تدريبه على الكتابة والاعمال الحسابية ، ومكث يتمرن على يديه نحو خمس سنوات ثم ارسله ابوه الى الجامع الازهر سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) لطلب العلم ، فمكث فيه اربع سنوات ، اتم فى خلالها استظهار القرآن الكريم ، وتلقى شيئا من الفقه والتفسير .

وبعد أن عاد الى بلده ، دون أن يتم دراسته فى الازهر اقترع بالعسكرية فى ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٧١ هـ « ٦ ديسمبر سنة ١٨٥٤ م » جنديا بسيطا « نفرا » تنفيذا لما قرره سعيد باشا من تجنيد أبناء العمد والمشايخ ولاجادته القراءة والكتابة والحساب عين كاتبا بدرجة « بلوك امين » بالاورطة الرابعة من آلاى المشاة الاول .

ثم رقى الى مرتبة الضباط ، حين اعتزم سعيد ترقية المصريين فى الجيش ، فنال رتبة ملازم من تحت السلاح سنة ١٨٥٨ وهو بعد فى السابعة عشرة ، ثم رتبة يوزباشى سنة ١٨٥٩ ، ثم رتبة صاغ فى نفس السنة ، ثم رتبة بكباشى سنة ١٨٦٠ ، ثم صار قائممقام فى سبتمبر سنة ١٨٦٠ ، وقد حظى برضا سعيد ورافقه فى زيارته للمدينة المنورة بالحجاز له سنة (١٢٧٧ هـ) ١٨٦١ م ، وكان لهذه الزيارة أثر كبير فى نفسه ، اذ آنس من سعيد عطفا كبيرا على طبقة الفلاحين ، ثم بدا لسعيد ان ينقص عدد الجيش فالغى بعض الفرق وفصل ضباطها من الخدمة وكان منهم احمد عرابى ، ثم أمر باعادتهم قبيل وفاته ، وعاد عرابى الى سابق رتبته .

فلما توفى سعيد وخلفه اسماعيل فقد عرابى عطف ولى الامر اذ لم يكن اسماعيل يأخذ بسنة سلفه فى العطف

على الضباط الوطنيين ، وعادت الحظوة في الجيش الى الضباط الشراكسة ، فكان ذلك من اسباب تذمر عرابي واتجاه افكاره الى المطالبة بحقوق الضباط المصريين .

ووقع له حادث في عهد اسماعيل كان له اثر كبير في اتجاه افكاره ونزعاته السياسية ، ذلك انه وقعت خصومة بينه وبين اللواء خسرو باشا الشركسي ادت الى تقديمه الى مجلس عسكري ، والحكم عليه بالسجن واحدا وعشرين يوما ، فاستانف عرابي هذا الحكم امام المجلس العسكري الاعلى ، فقضى بالغاء الحكم الابتدائي ، فحدث خلاف بسبب هذا الحكم بين وزير الحربية وقتئذ « اسماعيل سليم باشا » ورئيس المجلس الاعلى « علي باشا سري » ، لان الوزير كان يرغب في تأييد الحكم الابتدائي ، فسعى لدى الخديو اسماعيل في فصله من الجيش ، فتم له ما اراد ، وقد اورثته هذه الحادثة بغضا شديدا للشراكسة .

ووقع ظلامته من هذا القرار الى الخديو اسماعيل ، وظلت بين النظر والاهمال ثلاث سنوات ، وقد توسط له بعد ذلك بعض الخيرين فالتحق بوظيفة في دائرة الحلمية .

وفي اثناء قيامه بهذه الوظيفة تزوج من كريمة مرضعة الامير الهامي وهي اخت زوجة الخديو توفيق من الرضاعة ، وتوصل بذلك الى استصدار امر من الخديو اسماعيل بالعفو عنه واعادته الى الجيش برتبته العسكرية ، ولكنه حرم مرتبه طول مدة فصله ، فتأصلت في نفسه روح الكره لرؤساء الجيش من الشراكسة والترك الذين كانوا سببا في تأخير ترقية الضباط المصريين ومنهم عرابي

ذاته ، فقد ظل تسعة عشر عاما برتبة قائمقام ٦ وهي الرتبة التي نالها في عهد سعيد ، وكان يشهد محاباة الرؤساء لصغار الضباط الذين من أصل شركسي ، ممن هم دونه مرتبة حتى فاقوه في الرتب العسكرية ، لا لسبب سوى أنهم « من مماليك أو أبناء مماليك العائلة الخديوية » كما يقول عرابي في مذكراته .

ومن ذلك الحين أخذ يبث في نفوس الضباط الوطنيين فكرة الاتحاد والمطالبة بحقوقهم ورفع الحيف عنهم ، وكان للباقته وفصاحته في الكلام واستشهاده ببعض الاحاديث الشريفة النبوية والحكم المأثورة تأثير كبير في نفوس الضباط اجتذبهم اليه ومال بهم الى تلبية ندائه والاستماع لنصائحه والاقتناع بآرائه . ذكر محمود باشا فهمي أحد زملائه في الثورة في هذا الصدد ان عرابي دخل سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) أحد الالايات المرابطة بناحية رشيد فأخذ من ذلك الوقت في تأليف قلوب الضباط الوطنيين « أولاد العرب » ، وجمع كلمتهم على ولائه واظهار الاسف لحرمانهم من الترقيات في حين ان الضباط الترك والشراكسة مغمورون بها » .

ولما تولى توفيق مسند الخديوية رقى عرابي الى رتبة أميرالاى في يونيه سنة ١٨٧٩ « رجب سنة ١٢٩٦ هـ » وأصدر أمره بذلك وهو في الاسكندرية ، فتوجه عرابي الى سراي رأس التين وقدم للخديو شكره مقرونا بعبارات الاخلاص والولاء والدعاء ، لشمله الخديو برعايته ، وجعله ضمن ياورانه وعينه أميرالايا على الاى المشاة الرابع الذي كان مركزه بالقاهرة ، ويعرف بالاى العباسية ، وظل يشغل هذا المنصب حتى شبوب الثورة سنة ١٨٨١ م .

من هذا البيان يتضح ان ليس فى نشأة عـرابى شىء يستوقف النظر ، بل هى نشأة عادية لرجل عـادى ، لم يتميز فى ماضيه بعمل من اعمال البطـولة ، ولم يخض غمار المعارك والحروب ، بل هو ضابط « من تحت السلاح » كان فردا او « نفرا » كما هو الاصطلاح العسكرى ، ثم صار ضابطا لان سعيدا وضع قاعدة امكان ترقية الضباط من تحت السلاح ، رقيه مثله فى اكثار عددهم .

ولا غبار على هذه النشأة فى شىء ؟ فالجندى المجتهد قد يصل بالمران الى مرتبة كبار القواد وقادتهم .

ويقول هو عن نفسه فى مذكراته انه قرا كتابا باللغـة العربية عن تاريخ نابليون بونابرت ، ولما طالعه شعر بحاجة مصر الى حكومة نيابية دستورية ، دتاقت نفسه الى كثير من التواريخ العربية ، وازداد ميله الى حكم الشـورى حين سمع سعيدا يلقى خطبه فى « قصر النيل » يشيد فيها بمصر والمصريين .

ويقول عرابى فى مذكراته تعليقا على هذه الخطبة ، انه لما انتهى سعيد من القاء خطبته خرج المدعـوون من الامراء والعلماء غاضبين حانقين ، مدهوشين مما سمعوا ، واما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فـرحا واستبشارا .
ويقول انه اعتبر هذه الخطبة اول حجر فى اساس مبدأ « مصر للمصريين » قال : « وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشـا هو واضع اساس هذه النهضة الشريفة فى قلوب الامـة المصرية الكريمة » .

والشيء البارز في حياة عرابي قبل الثــورة أنه كان كه شخصية جذابة تؤثر فيمن حوله وتجتذبهم اليه ، فاقواله كانت تقع في نفوس الضباط والسامعين موقع الاقناع ، وزملاؤه ومعاصروه كانوا يعترفون له بالزعامة ، وهذا مظهر لقوة الشخصية ، ولولا أنه ذو شخصية كبيرة قوية لمــا استطاع ان يجمع الجيش وضباطه على محبته والانضــواء تحت لوائه والائتمار بأمره .

هذه كلمة موجزة عن نشأة عرابي وماضيه ، وصــورة عامة لشخصيته ، فلنتتبعه الآن ، ولنتابع عمله ، في ظهـــور الثورة ، ثم في اطوارها ومراحلها

الفصـــل الثـــانى

بدء الثورة

واقعة قصر النيل – اول فبراير سنة ١٨٨١

قلنا فى بيان اسباب الثورة ان عثمـــان رفقى ، وزير الحربية فى وزارة رياض ، كان وحده من اسباب الثـــورة العرابية ، لما ظهر منه من التعصب للشراكســـة والتركي والاجحاف بحقوق الضباط الوطنيين فى الجيش .

مقدمات الواقعة

تصرفات عثمان رفقى

وآخر ما بدا منه – مما عجل الثورة – انه اصدر امرا بنقل الميرالاى عبد العال بك حلمى حشيش قائد آلاى طرة (وكان يعـــرف بالآلاى السودانى) الى ديوان الجهادية (وزارة الحربية) وجعله معاونا بها ، وفى هذا خفض من درجته ومركزه ، وامر بتعيين خورشد بك نعمان بدله ، وهو من اصل شركسى ، واصدر امرا آخر بفصل احمد بك عبد الغفار قائمقام الاى الفرسان ، وعين بدله ضابطا شركسيا يدعى شاكر بك طمازه .

علم عرابي بهذه الاوامر قبل نشرهـــا ، اذ كان ليلة ١٦ يناير سنة ١٨٨١ — ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ مدعوا الى وليمة بدار نجم الدين باشا لمناسبة عودته من الحج ، فسمع بهـا من احد كبار المدعوين ، فثار لها غضبا ، وقال لصاحبه وهو يحادثه : « ان هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمــــان رفقى على هضمها » ، وعاد الى داره ساخطا غاضبا ، فالفى كثيرا من الضباط ينتظرونه ليتشاوروا واياه فيما يجب عمــله ، اذ كانوا قد بلغهم ايضا نبأ تلك الاوامر .

اجتماع الضباط ومطالبهم

اجتمع في تلك الليلة بمنزل احمد عرابي بك ، كل من : الميرالاى عبـد العال بك حلمى حشيش قائد الالاى طره ، والبكباشى خضر افندى خضر من ضباط الالاى المذكـور ، والميرالاى على بك فهمى الديب قائـد الالاى الاول « الاى الحرس الخديوى » بقشلاق عابدين ، والبكباشى محمد عبيد من ضباط الالاى المذكور ، والبكباشى الفى يوسف من ضباط الالاى الرابع الذى كان عرابى قائدا له ، واحمد بك عبـــد الغفار قائمقام آلاى الفرسان ، وكانـوا في شـــدة الهيـــاج والغضب لصدور هذه الاوامر ، واخذوا يتشاورون فيمـــا يجب عمله لمنع نفاذها ، فاتفقوا على اختيار عرابي بك رئيسا لهم ، وعهدوا اليه العمل للتخلص من هذه الحالة ، على ان يتضامنوا واياه في تنفيذ ما يامر به ، قال عرابي يصف ما دار في هذا الاجتماع من الحديث ، بعد ان اخبرهـ الضباط بنيات عثمان رفقى .

« قلت ما تريدون اذن ؟ فقالوا انما جئنا لنرى رأيك ، فقلت رايى ان تطيبوا نفوسكم ، وتهدئوا روعكم ، وتعتمدوا

على رؤسائكم وتفوضوا اليهم النظر في مصالحكم ، وهم يتخذون من بينهم رئيسا يثقون به كل الوثوق ، ويسمعون لقوله ويطيعون أمره ، ويحفظونه بمعاضدتكم اذا أرادت الحكومة به شرا ، فقالوا كلهم : انا فوضنا اليك هذا الامر ، فليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك ، فقلت كلا ، بل انظروا غيرى وانا اسمع له واطيع ، وانصح له جهدى ، فقالوا انا لا نبغى غيرك ، ولا نثق الا بك ، فابنت لهم ان الامر عصيب ، ولا يسع الحكومة الا قتل من يتصدى له ، فقالوا نحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا ، فقلت لهم اقسموا لى على ذلك . فاقسموا على السيف والمصحف » . ثم كتب عرابى من فوره عريضة الى رياض باشا بالشكوى من تعصب عثمان رفقى لجنسه ، واجحافه بحقوق الضباط الوطنيين ، وطلب فيها وضع حد لما يصيبهم من اضطهاد ، وعزله من منصبه واعادة قائمقام الفرسان .

وبعد أن كتب عرابى العريضة تلاها على الحاضرين فوافقوا عليها ووقع هو عليها كما وقع معه على بك فهمى وعبد العال بك حلمى ، ووضع المجتمعون الخطط الكفيلة بالمحافظة على النظام عند قيامهم بما اعتزموه ، والمحافظة على حياتهم اذا أرادت الحكومة أن تبطش بهم .

يعد هذا الاجتماع فاتحة الثورة العرابية ، لأن لما هذا زعماء الضباط على مقاومة تنفيذ الاوامر العسكرية والجهر بمناصبة وزير الحربية العداء ، والمطالبة بعزله ، واختيارهم عرابى بك رئيسا لهم ، وحلفهم اليمين على التضامن واياه ، ومقاداته ومفاداة الوطن بأرواحهم ، كل ذلك معناه العصيان

والخروج على النظام وتحدى الحكومة والاستهانة بهيبتهـــا وقوتها ، او بعبارة اخرى هى الثورة على الحكومة .

وفى غداة ذلك اليوم اى فى ١٧ يناير سنة ١٨٨١ ذهب الميرالايات الثلاثة احمد عرابى بك ، وعلى بك فهمى الديب ، وعبد العال بك حلمى حشيش ، الى وزارة الداخلية وقدموا العريضة الى خليل باشا يكن وكيل الوزارة ، وطلبوا اليـه تقديمها الى رياض باشا ، فذهب اليه ، ثم عاد واخبرهم بأن رياض باشا يطلب ان يقابلوه ، فلما قابلوه وعدهم بالنظر فى الامر ، وبعد اسبوع من هذه المقابلة ذهبوا الى داره ، وقابلوه ثانية وسألوه عما تم فى أمر العريضـــة ، فأجابهم متهـددا متوعدا وقال لهم ان تقديم مثل هذه العــريضة يؤدى الى الهلاك .

فأصر عرابى وصحبه على طلباتهم ، وابان عـــرابى ان ما يطلبونه هو حق وعدل ، وانتهى الحديث بان اخبرهم بانه سينظر فى طلباتهم ، وانصرفوا على ذلك .

محاكمة الضباط الثلاثة

وفى ٣١ يناير سنة ١٨٨١ اجتمـع مجلس الوزراء فى سراى عابدين برئاسة الخـديو توفيق ، وبحث فى أمر هذه العريضة ، فاستقر الراى على وجوب محاكمـــــة الضباط الثلاثة : احمد عـــرابى بك وعلى فهمى بك وعبد العال حلمى بك ، امام مجلس عسكرى .

وكان الامرموضع جدل طويل فى المجلس ، اذ كان رياض يميل الى اجراء تحقيق ما فى العريضة على مجلس عسكرى ، ولكن عثمان رفقى رأى وجوب القبض على الضباط الثلاثة

الذين اجترأوا على تقديمها ومحاكمتهم امام مجلس عسكري
وانقسم الخديو الى هذا الرأى ، وتابعه اغلب الوزراء ، واخذ
عثمان رفقى على عهدته تنفيذه وان يكون مسئولا اذا حصل
ما يخل بالامن .

استقر اذن رأى مجلس الوزراء على محاكمة الضباط الثلاثة .

واصدر الى وزير الحربية امرا بالقبض عليهم وسجنهم،
وتأليف المجلس العسكرى لمحاكمتهم برئاسة الجنرال استون
باشا رئيس أركان حرب الجيش المصرى .

ولم يعرف الضباط الثلاثة ما تقرر فى شأنهم ، ولم
يخبرهم عثمان رفقى بأمر القبض عليهم ، ولا نفذه بطريقة
عسكرية تشعر بهيبة الحكومة وسلطانها ، بل تحايل على
تنفيذه واتبع طريقة ملتوية تنم عن الضعف والدس ، فقد
أرسل اليهم فى مساء ذلك اليوم تذاكر يدعوهم فيها الى
الحضور لديوان الوزارة « بقصر النيل » صباح اليوم التالى
« اول فبراير » للمداولة معهم فى ترتيب الاحتفال بزفاف
الاميرة جميلة هانم شقيقة الخديو .

فاحس عرابى ورفيقاه المكيدة المدبرة لهم ، لانه لم تجر
العادة بان يستدعى وزير الحربية ثلاثة من امراء الالايات
للمذاكرة فى مثل هذا الشأن .

فاستعدوا للدفاع عن حياتهم ، واتفقوا على ان يلبوا
الدعوة وان يذهبوا الى قصر النيل ، على ان يصحبهم بعض
ضباط الآلاى الاول « الاى الحرس وكان مقره بقشلاق
عابدين » كعيون يرقبون الحالة عن بعد لكى يبادروا الى
اخبار اخوانهم بما يقع اذا اصاب الضباط الثلاثة مكروه .

وصل عرابي وصاحباه الى قصر النيل ، فالقوه فاصلا بكبار الضباط الموالين للحكومة ، وكان المجلس العسكري منعقدا ، فتلا على الضباط الثلاثة الامر القاضي باعتقالهم ومحاكمتهم ، ثم نزعت منهم سيوفهم ايذانا بانفاذ الامر ، وكان ذلك حوالى الظهر ، وسيقوا الى قاعة السجن بقصر النيل ، بين صفين من الضباط الشراكسة ، وتقاذفت عليهم الفاظ الشماتة والسباب ، ووقف عليهم الحراس وبأيديهم السيوف مسلولة .

وعين عثمان رفقي ثلاثة ضباط بدلهم على الالايات الثلاثة ، فجعل الميرالاى محمود بك طاهر قومندانا للالاى الرابع بدلا من عرابي بك ، والميرالاى خورشد بك نعمان ميرالايا للالاى السوداني بطره بدلا من عبد العال حلمى بك ، والقائمقام خورشيد بك بسمي ميرالايا لآلاى الحرس بدلا من على بك فهمى ، واعتزم تنفيذ هذا الامر فورا فاصطحب الضباط الجدد الثلاثة بثلاثة من القواد «اللواءات» ليتسلم كل منهم بحضوره قيادة آلايه .

الهجوم على قصر النيل

واطلاق سراح الضباط الثلاثة

عندما علم عيون الالاى الاول باعتقال الضباط الثلاثة ، اسرعوا بالعودة الى مركز الالاى ، بقشلاق عابدين ، وانهوا الى ضباطه ما وقع ، فهاج الضباط جميعا ، واعتزموا انقاذ اخوانهم ، ونهض البكباشي محمد عبيد مناديا الجند النداء العسكري بالاحتشاد والتأهب للمسير ، فاعترضه القائمقام

الالاى خورشيد بك بسبنى ؟ وساله عن سبب هذا النداء ، فلم يجبه بكلمة ، وامر بعض الجنود باعتقاله فى احدى قاعات القشلاق .

واصطف الجنود بأسلحتهم ، وساروا بقيادة البكباشى محمد عبيد ، وقصد بهم الى قصر النيل حيث الضباط المعتقلون ، وبينما كان الجند يستعدون للخروج من القشلاق علم الخديو بهذه الحركة ، وشهدها بنفسه من سلاملك السراى المقابل للقشلاق ، فأمر الفريق راشد باشا حسنى جن ياوره بأن يتوجه اليهم لوقف الحركة ، فلم تجد هذه الوساطة نفعا ، فاستدعى الخديو الضباط فلم يحضر احد .

سار جنود الالاى الاول من قشلاق عابدين الى قصر النيل ، فلما بلغوه وضع البكباشى محمد عبيد الحصار حوله ، وامر بقية الجند بالهجوم على الديوان ، فهجم الجنود حاملين بنادقهم وفى اطرافها الرماح (السنك) ، واقتحموا الديوان صائحين صاخبين .

فوقع الرعب فى نفوس القواد والضباط والجنود الموجودين بالديوان وفى مقدمتهم عثمان رفقى (وزير الحربية) ، وبادروا الى الفرار ، اما عثمان رفقى فقد فر من احدى النوافذ الى ورشة الترزية ، يطلب النجاة لنفسه ، ولما لم يجده الجند اقتحموا بأسلحتهم غرفة افلاطون باشا وكيل الحربية ، وطلبوا اطلاق ضباطهم .

وفى اثناء ذلك احاط فريق من الجند بافلاطون باشا ، فرغب فى التخلص منهم ، فضربوه وجرح فى رقبته جرحا خفيفا ، وهم استون باشا Stone ولارمى باشا Larmée ودى بلتش باشا De Plots بأغاثته ، فضربهم المتجمهرون

الخ .

واخذ الجند يبحثون عن الضباط المعتقلين ، وتفرقوا لذلك في جميع الغرف والجهات ، وكسروا الابواب والشبابيك وكل ما عاقهم عن السير ، الى ان وصلوا الى مقر الضباط الثلاثة ، ففك البكباشي محمد عبيد سراحهم .

اجتماع الجند بميدان عابدين

خرج الضباط الثلاثة من قصر النيل ظافرين وساروا يحيط بهم الجند الى قشلاق الالاي الاول بميدان عابدين . وكان عرابي وصحبه على عهد مع ضباط الالايات الثلاثة ان يتضامنوا معهم ويبادروا الى نجدتهم اذا حل بهم مكروه .

اما الالاي طره ، الذي كان على رأسه عبد العال حلمي ، فانه لم يكد يعلم بما حصل بعرابي وصاحبيه حتى هب لنجدتهم فلما حضر الامير الاي الجديد ، خورشيد بك نعمان ، ليتسلم الالاي بصحبه خورشيد باشا طاهر واحمد بك حمدي الياور الخديوي ، بادر البكباشي خضر خضر الى اعتقالهم ووضعهم تحت الحفظ في غرفة القائمقام فرج بك الذكر واعتقله معهم ، ثم امر بتوزيع الاسلحة والذخيرة على الجنود ، وسار بهم الى قصر النيل لانقاذ الضباط الثلاثة . وقد شعر ناظر محطة طرة بهذه الحركة ، فارسل تلغرافا الى الخديو ينبئه بها ، فاوفد الخديو احد ياورانه لمقابلة خضر واخباره بما تم من الافراج عن الضباط الثلاثة ، والتشفع بالرجوع من حيث اتى واطلاق سراح الضباط الذين سجنهم بطرة ، فلم يلق الياور اذنا صاغية ، واستمر الجند سائرين بقيادة خضر خضر . وسار بهم الى ميدان عابدين لكي يشاهد الضباط الزعماء بعد الافراج عنهم .

فلما وصلوا الى ميدان عابدين ؛ استقبله الالاى الاول بالتعظيم العسكرى وعزف الموسيقى ، وتقدم ضباط آلاى طرة الى عرابى وصاحبيه فهنئوهم بالسلامة وتعانقوا فرحين مستبشرين .

واحتشد الناس فى الميدان لمشاهدة هذا المنظر الذى لم يألفوه من قبل ، وعندئذ وقف عرابى خطيبا بأعلى صوته ؛ وأثنى على اخلاص الضباط والجند واتحادهم لانقاذ صاحبيه من السجن .

وأما آلاى العباسية « آلاى عرابى » فقد تخلف عن الاشتراك فى الحركة ، ولم يحضر الا ليلا بعد عزل عثمان رفقى ، كما سيجيء بيانه .

عزل عثمان رفقى

وتعيين البارودى وزيرا للحربية ــ اول انتصار للثورة

كان احتشاد جنود الالايين باسلحتهم فى ميدان عابدين كافيا لايقاع الاضطراب فى نفس الخديو وحاشيته . وقد استدعى وزراءه وخاصة رجاله حين بلغه نبأ ما حدث فى قصر النيل ، وتشاوروا فيما يصح عمله ازاء هذه الحركة ، فأشار محمود سامى البارودى (وكان وقتئذ وزيرا للاوقاف) باجابة طلبات الجند وقال انى اراهم مطيعين بدليل هتافهم باسم الخديو ، ولم ير الخديو بدا من الاذعان . واتفق الرأى على ان يذهب البارودى بصحبة خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى ليقابلا عرابى وصاحبيه ويتعرفا ما يطلبون ، فقابلاهم وعرفا منهم انهم

يطلبون عزل عثمان رفقى ويلتمسون العفو عنهم لان عثمان رفقى هو السبب فيما حدث ؛ فعاد البارودى وخيرى باشا الى الخديو وعرضا عليه حديثهما مع الضباط الثلاثة ، فأمر باستدعائهم فحضروا والتمسوا منه العفو فعفا عنهم .

واستقال عثمان رفقى . واصدر الخديو أمره باسناد وزارة الحربية الى البارودى مع بقاء وزارة الاوقاف فى عهدته .

فتم بهذا التعيين ثلاثة انتصارات نالها الحزب العسكرى فى يوم واحد ، أولها اطلاق سراح الضباط الثلاثة ، وثانيها عزل عثمان رفقى الذى كان خصما لهم ، ثم اسناد وزارة الحربية الى نصير لهم .

ومن هنا توطدت صلات الثقة بين البارودى والضباط ، اذ برهن على انه كان مؤيدا لهم داخل مجلس الوزراء ، وظل عضدا لهم وموضع ثقتهم طوال عهد الثورة .

موقف الآلاى الرابع

تقدمنا ان الآلاى الرابع (الآى العباسية) تخلف عن الحضور الى ميدان عابدين عند احتشاد الجند ، ويعلل ذلك أنه لم يكن مؤازرا حركة الثورة فى مبدأ الأمر فلما صدرت الأوامر السابقة ، وتعيين أميرالاى جديد له ، وهو الميرالاى محمود بك طاهر ، ذهب هذا صحبة اللواء طه باشا لطفى الى مركز الالاى ليتسلم منصبه ،

فاستقبله ضباطه بالاحترام والاذعان ، وقبلوه اميرا عليهم ، وابدى البكباشي الالفي يوسف خضوعه وخضوع زملائه لاوامر الحكومة ، ولكن لم يمض قليل من الزمن حتى بلغهم اجتماع الالايين الاخرين في ميدان عابدين ، ثم ما كان من عزل عثمان رفقي وتعيين محمود سامي البارودي وزيرا للحربية ، وصدور العفو من الخديو عن الميرالايات الثلاثة ، فوقع ضباط الالاى المتخلف في الحيرة والارتباك ، وسقط في ايديهم وتحرج مركزهم امام زملائهم ، واضطر طه باشا وطاهر بك الى الانسحاب ومغادرة مركز الالاى ، اما ضباطه فاخذ يلوم بعضهم بعضا على تخلفهم عن اللحاق باخوانهم ، وينسب كل منهم هذا التخلف الى الاخرين ، واخيرا اتفقت اراؤهم على الذهاب الى ميدان عابدين ليظهروا اخلاصهم لعرابي ويلتمسوا منه العفو من تأخيرهم ، فذهبوا ليلا وقابلوا عرابي ، فقبل عذرهم ظاهرا ، وبقوا بالقشلاق بقية الليل ، وعادوا صباحا الى العباسية مع امير الايهم الاصلي ـ عرابي .

قضى عرابي وجنوده بقية الليل في قشلاق عابدين ، واقام دوريات من جنود الالايين لحراسة القشلاق ، اتقاء مكيدة قد تدبر ضدهم ، وانقضى الليل بسلام ، وفي الصباح عاد الاى العباسية الى مركزه وعاد الالاى السوداني الى طرة ، وافرج عن المسجونين الذين اعتقلهم الثائرون بالامس وهم اللواء خورشيد باشا طاهر وخورشيد بك نعمان والقائمقام فرج بك الذكر والياور الخديو احمد بك حمدي .

عرابي والقناصل

ولما كان عرابي على رأس هذه الحركة أرسل الى قنصل ايجلترا وفرنسا كتابا يسوغ فيه عمله ويبسط فيه شكواه من تصرف الحكومة ، وكان البارون دى رنج De Ring قنصـــل فرنسا العام يعطف على مطالب الضباط ، وينكر على وزير الحربية السابق تصرفاته ، وقد عرف فى الجملة بالعواطف الطيبة نحو مصر ومناوأته المطامع الانجليزية فيها ، ومن هنا جاء الظن انه ارسل الى عرابي كتابا يمدحه فيه على ثباته ويشجعه على عدم المبالاة بالحكومة ، والواقع أنه لم يرسل اليه كتـابا ما ، بل تدخل لدى الخـديو لانصاف الضـباط الوطنيين وتهدئة الحـالة .

وقد نقم الخديو رياض من البارون دى رنج عطفه على الضباط الوطنيين وتأييده اياهم ، فارسل الخديو باتفـاقه مع رياض الى المسيو جول جريفي Jules Grevy رئيس جمهورية فرنسا رسالة يشـكو فيها مسلك القنصل العام ، وكان نتيجة هذا المسعى استدعاء البارون دى رنج الى فرنسا فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٨١ ثم نقله من منصبه ، فغادر مصر على كره من الضباط الوطنيـين فى أول مارس سنة ١٨٨١ ، وكان نقله انتصارا لوزارة رياض ، وقد اغتبطت السياسة البريطانية لهذا النقل لأنها كانت ترى فى البـارون دى رنج عاملا مناوئا لها ومؤيدا للحركة الوطنية فى مصر .

وعين بدله المسيو سنكفكس Scienkiewicz معتمدا وقنصلا عاما لفرنسا فى مصر ، فحضر الى القاهرة وقدم

أوراق اعتماده الى الخديو في ١٤ يوليه سنة ١٨٨١
بسراى رأس التين .

خطبة الخديوي في الضباط

أراد الخديو بعد انقضاء بضعة أيام على واقعة قصر النيل أن يجتذب اليه قلوب ضباط الجيش ، ويزيل تأثير الحادثة من نفوسهم ، فاستدعى الى سراى عابدين يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٨١ ضباط الآيات العاصمة من رتبة بكباشى فما فوقهم ، وحضر الاجتماع وزير الحربية « البارودى » وكبار رؤساء الجيش من رتبة فريق ولواء ، فلما انتظم عقدهم ، ألقى الخديو فيهم خطبة ضمنها العفو عما حدث يوم أول فبراير ، وأكد لهم أنه لم يبق فى نفسه أثر منها ، وطلب اليهم احترام النظام وطاعة الحكومة .

فقابل الضباط هذه الخطبة باظهار الولاء والتقدير والامتثال للاوامر والقوانين والنظامات العسكرية ، وانصرفوا داعين شاكرين .

وكان الظن أن مثل هذه الخطبة ترد النظام الى الجيش ، وتدعو الضباط الى الاطمئنان الى نيات الحكومة نحوهم ، اذ لم يكن خافيا انهم كانوا يتوجسون شرا من ناحيتها ، ويتوقعون أن تتربص بهم الدوائر للاقتصاص منهم اذا أمكنتها الفرصة وبذلك تزداد قوة التنافر السائد بينهم وبين الحكومة ، فأراد الخديو بهذه الخطبة أن يدخل الطمأنينة الى نفوسهم ، ويدعوهم الى الثقة بمقاصد الحكومة ، ولكن الحوادث جاءت على خلاف ما كان يظن ويتوقع .

مطالب العرابيين

بعد واقعة قصر النيل

لم يطمئن عرابي وصحبه على مراكزهم وحياتهم بعد واقعة قصر النيل ، فبالرغم من عزل عثمان رفقي ، وتعيين وزير حربية يعطف عليهم ويؤيدهم ، فانهم كانوا يخشون على حياتهم أن تمتد اليها يد الاغتيال انتقاماً مما فعلوا ، وأقاموا لهم حرساً من المخلصين لاشخاصهم ، وزادوا من عدد الخفراء لحراسة منازلهم ليلا ، واختاروا ضباطا من خاصة أوليائهم لنقل المراسلات السرية بينهم ، وصاروا اذا انتقلوا من مراكز الايالاتهم الى بيوتهم اصحب كل منهم حرسا من العساكر المسلحين للمحافظة على حياتهم يلازمونهم حتى يعودوا الى مراكزهم ، وأكثروا من الاجتماعات السرية ، يعقدونها ليلا في منزل عرابي ، ويدعون اليها من يثقون باخلاصهم من الضباط للتشاور فيما يفعلون ، وتنفيذ ما يستقر عليه رأيهم ، وقد اسفرت هذه الاجتماعات عن تقديم عريضة من جميع الالايات بالمطالب الآتية :

أولا — صرف نقود بدل التعيينات التي تؤخذ من مخازن الجهادية ، وتباع للالايات ، وذلك حفظا لحقوق العساكر من التلاعب بها والخيانة التي كانت فاشية في المأمورين ورؤسائهم ، وخصوصا في صنف المسلي (السمن) ، فانه كان يصرف للالايات من الشحم الذي يصنع في تريستا ويأتي في براميل باسم مسلي وكان كريه الطعم والرائحة لا يصلح للاطعام ، ولكن لم يكن احد ليجسر على المجاهرة

بالحقيقة ؛ لا للتجار المتعهدين بتوريده من الداخلة مـع الرؤسـاء .

ثانيا ـ عدم استقطاع مرتبات الضباط والعساكر في مدة الاجازات التى تعطى لهم اذا لم تتجاوز ثلاثين يوما ؛ واذا تجاوزت هذه المدة يستقطع نصفها فقط .

ثالثا ـ ان يؤخذ من الضباط والعساكر نصف الاجرة في السكك الحديدية .

رابعا ـ ابطال ورشة التـرزية لما فيها من التلاعب والغبن الفاحش وصرف اثمان الملابس نقدا لتشترى مـن الخارج بمعرفة الآلايات .

خامسا ـ عدم جواز الترقى للعسكرية ما لم يسن لذلك قانون خاص يجرى العمل على مقتضاه .

سادسا ـ زيادة مرتبات جميـع الضباط والعساكر بالنسبة لارتفاع أسعار الحـاجات من قيمتهـا منـذ ثمانين سنة أى حين انشاء العسكرية وترتيب تلك المرتبات الدنيئة .

سابعا ـ سن قانون يشمل حالات الترقى والتقـاعد والمكافآت والاجازات وتسوية معاش الاستيداع .

ثامنا ـ ارجاع احمد بك عبد الغفار قائمقام السوارى الذى فصله عثمان رفقى من الخدمة من غيـر محاكمة ولا سبب يوجب ذلك .

اجابة معظم هذه الطلبات

اجابت الحكومة معظم هذه الطلبات ؟ فعنيت وزارة الحربية باصلاح مآكل الجيش ، وصار يطبخ لهم فى معظم الوجبات اللحم وانواع الخضر والارز باللبن والحلوى ، بدلا من العدس والفول اللذين كانا طعامهم الدائم ، وصار يعطى للجنود السودانيين شراب البوظة المصنوعة من الشعير كالمألوف عادتهم . وتصرف لاولادهم ونسائهم جرايات زيادة عن جرايات الجند .

وعرض محمود سامى البارودى على مجلس الوزراء بوجوب سن القوانين اللازمة لاصلاح حالة الجند ، وزيادة رواتب الضباط والعساكر ، وتعديل النظامات والقوانين العسكرية كافة . فوافق مجلس الوزراء على اقتراح وزير الحربية ورأى البدء بزيادة رواتب الضباط والجنود ، وتأليف لجنة للنظر فيما يجب اجراؤه من التعديلات والاصلاحات فى النظم والقوانين العسكرية ، ورفع رياض الى الخديو فى ٢٠ ابريل سنة ١٨٨١ تقريرا بذلك اشار فيه الى طلب ناظر الجهادية زيادة رواتب الضباط والجنود .

وبناء على هذا التقرير صدر مرسومان بتاريخ ٢٠ ابريل سنة ١٨٨١ م (٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ هـ) يقضى الاول بزيادة رواتب الضباط والجنود .

ويقضى المرسوم الثانى بتاليف لجنة (قومسيون) برئاسة وزير الحربية والبحرية للنظر والبحث فى القوانين والنظم العسكرية المعمول بها وقتئذ ، وادخال كل ما ترى لزومه من التعديلات والاصلاحات فيها وما ينبغى اجراؤه

من الاصلاح فى المدارس الحربية واعداد مشروع قانون بشروط الدخول فى سلك الضباط وتعيينهم وترقيتهم واستيداعهم ورفتهم وتقاعدهم ، وتسوية حالة الضباط المحالين الى الاستيداع .

فاخذت اللجنة توالي الاجتماع لاعداد القوانين العسكرية الجديدة ، وهى القوانين التى صدرت فى عهد وزارة شريف كما سيجىء بيانه .

احتفال وزير الحربية

بزيادة رواتب الضباط

اقام محمود سامى البارودى بعد صدور هذين المرسومين حفلة فى ديوان الجهادية « وزارة الحربية » بقصر النيل ابتهاجا بزيادة رواتب الضباط والجند وتأليف لجنة اصلاح النظم العسكرية ، وكانما اراد ان يعلن اول ثمرة لتقلده وزارة الحربية ليكسب ثقة الضباط والجند ، ويزداد بهم نفوذا وسلطانا .

استكملت هذه الحفلة مظاهر الرونق والفخامة ، اذ أعد فيها البارودى مادبة فاخرة دعا اليها الوزراء وعلى رأسهم رياض ، ثم المراقبين الاوروبيين ، وضباط الجيش ، ولما تكامل جمعهم جلسوا الى موائد الطعام ، فتناولوا الماكل الفاخرة .

ثم قام محمود سامى البارودى ، والقى خطبة نوه فيها بفضل الحكومة واعرب عن فضل الخديو فيما تقرر من

الاصلاحات ، ودعا الضباط الى الخضوع لاوامـر الحضرة الخديوية ولعله اراد بهذه الخطبة ان يزيل من الاذهان تأثير العصيان الذى وقـــع من الجيش يوم أول فبراير سنة ١٨٨١ .

ثم قام بعده رياض وارتجل خطابا حث فيه الضبـاط على الطاعة والنظام .

خطبة عــرابى

وبعد ان جلس رياض قــام عــرابى (باشا) واجاب بتحقيق ما قاله وزير الحربية ورئيس الوزراء ، وخلاصة خطبته انه بين ما وصلت اليه الحكومة فى ذلك العهد من التقدم ، ناسبا جميع ذلك الى همة الخديو واستقامةوزرائه وغيرتهم على المصالح ، ثم قال اننا على الدوام مطيعـون لاوامره السامية ، ونحن آلته المنفذة الحاضرة بيـن يديه يديرها كيف يشاء ، وفى اىوقت آراد ، واننا بلسان واحد نسال الله تعالى أن يحفظه لنا ويطيل بقاءه ويعززه برجـال حكومته ويمتع البلاد بأحكامه العادلة . آمين .

ويقول عرابى فى مذكراته انه قال : « اننا لا نريد الا الاصلاح واقامة العدل على قاعـدة الحـرية والاخـاء والمساواة . وذلك لا يتم الا بانشـاء مجلس النواب وايجاده فعلا . ونحن مطيعون للحكومة ، بل نحـن الآلة المنفـذة

لأوامرها العادلة . وكلنا بلسان واحد نسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظ الحضرة الخديوية . ويوفق رجال حكومته الكرام لاصلاح البلاد واسعاد العباد » .

مظاهر الخلاف

وبوادر الشقاق بين الحكومة والضباط

الى هنا سارت الأمور سيرا حسنا ؛ واطمأن ضباط الجيش الى حسن مقاصد الحكومة ، وهدأت الأفكار بعض الهدوء ، ولكن الخديو وحاشيته لم يكونوا في خاصة أنفسهم راضين عن النفوذ الذي ناله الحزب العسكري بعد حادثة قصر النيل ؛ ولم يكن عفو الخديو عن زعماء الحركة الا عملا ظاهرا ؛ اذ دلت الحوادث والملابسات على انه كان يبغي تهيئة الوسائل لقمع الحركة والانتقام من مدبريها ؛ وزاد في هذه الحالة النفسية ما كان يسمعه من حاشيته والمقربين اليه (ومعظمهم من الشراكسة) من عبارات التحقير للضباط (الفلاحين) ، والتهوين من أمرهم ؛ وتحريضه على الايقاع بهم ؛ واستعادة هيبته ونفوذه ؛ وكان من أخص صفات توفيق التردد والضعف وسرعة الانقياد لمن يقع تحت تأثيرهم .

وكان زعماء الحركة من العرابيين انفسهم شاعرين بالقلق على مصيرهم ، بل على حياتهم وارواحهم ، عالمين بأن الخديو لم يعف عنهم ؛ ولم يجب طلباتهم في واقعة

قصر النيل الا مضطرا تحت ضغط الجيش الذى جاء ميدان عابدين مهددا متوعدا وانه لا يكف عن العمل لاسترداد سلطته ونفوذه ، فبقى الفريقان يسىء كل منهما الظن بالآخر ويأخذ حذره منه ، وتعددت الحوادث التى باعدت بينهما وزادت هوة الخلاف والعداء اتساعا .

استقالة البارودى

وقعت فى شهر يوليو سنة ١٨٨١ حادثة فى الاسكندرية كان لها أثر كبير فى تطور الحوادث ، وبيانها أن الخديو توفيق كان يقضى الصيف فى الاسكندرية ، وقد حدث أن عربة لأحد تجار الثغر كان يقودها سائق أوروبى كانت تسير فى الشارع المؤدى الى سراى رأس التين ، فصدمت جنديا من فرقة المدفعية واصابته اصابة قاتلة ، نقل على أثرها الى المستشفى وتوفى هناك ، وكان الخديو وقتئذ بالسراى .

فأراد رفاق القتيل أن يحملوه اليها ، ويلتمسوا من الخديو الاهتمام بمعاقبة الجانى .

كان هذا العمل بالغا فى الخروج على النظام ، لأن مثل هذه الحادثة لا ترفع الى الخديو ، وليس من اللائق أن يذهب الجنود الى قصره حاملين القتيل يعرضونه عليه ويطلبون منه معاقبة الجانى ، اذ أن السراى الخديوية ليست مخفر بوليس تحمل اليه جثث القتلى ، وقد دخل الجند السراى فى جلبة وضجة ، وصاحوا طالبين معاقبة الجانى ، فغضب الخديو من الجند ، وأمر بطردهم ، فانصرفوا ، وبعد أيام صدر الامر بتشكيل مجلس

عسكري لمحاكمتهم ، فحوكموا وصدرت عليهم أحكام بالغة منتهى القسوة ، فقد حكم على الجندي الذي دعا رفاقه الى حمل القتيل الى السراي بالاشغال الشاقة المؤبدة ، وحكم على رفاقه وهم ثمانية بالاشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات وبأن يقضوا مدة العقوبة بليمان الخرطوم ثم يكونوا بعد ذلك من أفراد الجيش بالاقطار السودانية ، واقر الخديو الحكم ونفذ في المحكوم عليهم ، وسيقوا الى السويس ومنها الى سواكن ثم الى الخرطوم .

كان لهذا الحكم الشديد وقع اليم في النفوس ، وكتب عبد العال بك حلمي تقريرا الى وزير الحربية « البارودي » يشكو فيه من قسوته ، وذكر بعض الحوادث التي تجري في الآيه ، والدسائس التي لا تنقطع ، وقارن بين قسوة الحكم في هذه الحادثة وانفاذه ، وبين ما عومل به تسعة عشر ضابطا خرجوا عن الطاعة واكتفى باحالتهم الى الاستيداع .

رفع وزير الحربية هذا التقرير الى الخديو ، فاستاء من ذلك وعده تطاولا على مقامه ، وغضب على البارودي وأعتزم اقصاءه عن وزارة الحربية ، واستدعى الوزراء بالتلغراف من القاهرة ، فوفدوا الى الاسكندرية واجتمعوا بالخديو في سراي رأس التين ، وتداولوا في حادثة الجندي القتيل ، وما فعل رفاقه ، وقرر الخديو أن بقاء البارودي في وزارة الحربية هو منشأ هذه الفوضى ولا سبيل الى اعادة النظام الا بعزله ، فلم ير البارودي بدا من أن يقدم استقالته فقبلت في الحال .

تعيين داود يكن وزيرا للحربية

وعين الخديو صهره داود باشا يكن بدله ، ثم اعقب ذلك صدور أمر آخر بعزل احمد باشا الدرملي محافظ العاصمة ، لما كان معروفا عنه من مشايعة الحركة الثورية ، وتعيين عبد القادر باشا حلمي مكانه ، وكان مكسروها من العرابيين .

قابل عرابي وصحبه هذا التغيير بالانزعاج والتبرم ، وتوجسوا خيفة من عواقب ابعاد البارودي الذي كانوا يطمئنون اليه ، ويركنون الى اخلاصه ، وتوقعوا شرا مستطيرا من تعيين صهر الخديو على رأس الوزارة التي تملك ناصية الجيش ، على انهم كتموا شعورهم ، واخذوا يتدبرون ما يجب عليهم عمله للمحافظة على حياتهم بعد هذا التغيير ، وذهبوا الى داود يكن في ديوان الجهادية ، يهنئونه بمنصبه الجديد ، وطلبوا اليه ان يجعل فاتحة اعماله اصدار قوانين الاصلاحات العسكرية التي وضعتها اللجنة ، فوعدهم بذلك ، ولكنه لم يلبث ان اصدر منشورا ابلغه جميع الالايات نهى فيه الضباط عن اجتماعهم في المنازل أو في احياء المدينة ونبه الى عدم ترك مراكز الالايات ليلا او نهارا ، وانذرهم بانه اذا وجد اثنان منهم او اكثر مجتمعين معا في المدينة فسيجرى ضبطهم بيد رجال الضبطية واعتقالهم ، وان كل من تكلم منهم مع آخر في الامور السياسية يسجن بالقلعة ، وشدد على الضباط في

اتباع هذه الاوامر واخذ يراقب تنفيذها ، فيذهب بنفسه ليلا الى مراكز الالايات ليتحقق من تنفيذ أوامره ، وبث عبد القادر باشا حلمى محافظ العاصمة الجديد العيون والجواسيس على منازل رؤساء الحزب العسكرى وخاصة عرابى وعبد العال واحمد عبد الغفار ، لمنع اجتماعاتهم ، فارتاعوا من ذلك ولزموا الاياتهم .

وكان الغرض من صدور هذه الاوامر تفريق اجتماعات الضباط ، اذ كانت هذه الاجتماعات الوسيلة العمليـــة لتبادلهم الآراء والأفكار ، وتعاهدهم على التضامن واتحاد الكلمة ، واتفاقهم على الخطط التى يتبعونها لحفظ كيانهم وتحقيق مطالبهم . فداود يكن قد حقق بهذه الاوامر المخاوف التى ساورت عرابى وصحبه من تعيينه وزيرا للحربية بدلا من البارودى ، قال عرابى فى هذا الصدد : « ولما كانـت تلك الاوامر مخالفة للقوانين العسكرية ومهينـــة للشرف العسكرى فقـــد ردت اليـــه من طرف امراء الالايات » ومعنى ذلك انهم اصروا على نقضها وعدم العمل بها .

وكان هذا منتظـــــرا ، لأنه لا يكفى أن يصدر وزير الحربية مثل هذه الأوامر لتكون موضع الاحترام والتنفيذ ، بل يجب أن يكون للحكومة من الهيبة والقوة ما يكفل تنفيذها .

والواقع انه منذ الساعة التى هجم فيها الجنود على قصر النيل فى اول فبراير سنة ۱۸۸۱ واطلقوا سراح عرابى وصحبه واخرجوهم من السجن واكرهوا عثمان رفقى على الهرب ، ثم اكرهوا الخديو بعد ذلك على عزله من منصبه ، من هذا اليوم سقطت هيبة الحـــكومة ، فلم يعـــد فى استطاعتها ان تاخذ الجيش بالقوة ، لأن قـــوتها لم يكن

قوامها الا ذلك الجيش نفسه ، فلما أفلت زمامه من يدها أصبحت عديمة الحول والقوة .

زعامة عرابي القومية

لم يكن خافيا أن الجيش بضباطه وجنوده قد صار الى جانب عرابي ، فان الدعوة التي قام بها وهي تخويل الضباط الوطنيين حقوقهم ومساواتهم بالعنصر الشركسي هي دعوة محببة الى نفوس الجند والضباط ، وانتصاره الاول في واقعة قصر النيل ، واكراهه الخديو على اجابة مطالبه الاولى ، قد زاد من نفوذه ، وجعل الضباط المترددين ، ينضمون اليه ، لان انتصار الزعيم في خطته من أعظم العوامل في نجاح دعوته ، وتأييد الناس له والتفافهم حوله ، هذا فضلا عن أن ضباط الجيش وجنوده قد لمسوا ثمار الحركة التي قام بها عرابي ، فان أول ماعمله محمود سامي البارودي حين تولى وزارة الحربية زيادة رواتب الضباط والجند ، فمثل هذا العمل من شأنه أن يزيد الجيش التفافا حول عرابي .

أضف الى ذلك أن معسكر الحكومة كان منقسما على نفسه ، فالخديو لم يكن مخلصا للوزارة ، ولا لرئيسها رياض ، وكان ينقم منه أنه لا يرجع اليه في كليات الامور وجزئياتها ، وكان يميل في خاصة نفسه الى أن يستبدل به وزيرا يخضع لاوامره ويكون آلة في يده ، ومن هنا جاء اتصاله بزعماء الضباط بواسطة على بك فهمي قائد الآلاي الاول « الآلاي الحرس » ، فقد كان على فهمي موضع ثقة الخديو اذ كان متزوجا من سيدة شركسية ، فتظاهر الخديو

وقتا ما بالعطف على الضباط نكاية برياض ، وجعل من على بك فهمى واسطة فى ابلاغ هذا العطف الى زعمائهم .

ولكن هذا العطف لم يصل الى درجة الاتفاق على تدبير مظاهرة ٩ سبتمبر كما يقول جون نينيه ، بل كان عطفا غير محدد ولا مستقر ، يفضى به الخديو احيانا حين يضيق صدره من احتمال رياض فى الوزارة ، ويقول عرابى توضيحا لهذه الحالة النفسية ان رسالة الخديو له على لسان على فهمى مقصورة على هذه الكلمات « انتم ثلاثة جنود وانا وابكم » ، وهذا ما جعل عرابى يعتقد يوم واقعة عابدين ان الخديو فى جانب الضباط لرغبته فى التخلص من رياض ، ولم يكن الخديو فى تظاهره حينا بالعطف على حركة الضباط بعيد النظر فى العواقب ، بل كان محدود الفكر ، ضعيف الرأى ، اذ لم يقدر أن اضعاف مركز رياض هو اضعاف لمركزه هو .

ولم يكن خافيا على العرابيين ما صار اليه مسند الحكومة من الضعف والانقسام ، ولذلك لم يترددوا حين رأوا الحكومة تتنكر لهم ان يبادروها بالثورة .

ولم يكن لواقعة قصر النيل اثرها فى الجيش فحسب ، بل كان لها اثر بالغ فى الامة ، اذ جعلت لعرابى مكانة كبيرة فى البلاد ، واخذت الالسنة تلهج باسمه والتمدح بشجاعته واقدامه .

والواقع ان الحادثة فى ذاتها وما تنطوى عليه من الجرأة على الحكومة وكسر شوكتها واطلاق سراح المسجونين وعزل وزير الحربية عثمان رفقى الذى كان موضع سخط الضباط الوطنيين ، وتعيين وزير يعطف عليهم ويؤيدهم ، ثم الاصلاحات التى قام بها البارودى ، واخصها زيادة

ورواتب الضباط والجند ، كل هذه الأعمال جعلت من عرابي زعيما قوميا اتجهت اليه الانظار لتحقيق أماني الشعب .

ولم يكن الجيش يصدر عن أفكار وعواطف تخالف أفكار الجماهير ، بل كان في واقع الأمر يمثل الأمة في أفكارها ونفسيتها ، فهو أول شيء طبقة من صميم الامة ، وضباطه وجنوده متصلون بها بروابط القرابة والدم ، وكانوا يمثلون الامــة من هذه الناحية ، ومن كونهم جــاءوا من مختلف نواحي المديريات .

وكانت المظالم التي شكا منها زعماء الجيش تشبه المظالم التي كانت البلاد تشكو منها ، ولم يكن الناس راضين عن الحكومة وسياستها ، بل كانوا يتبرمون بمظالم الحــكام وينقمون من الوزارة استسلامها للنفوذ الاجنبي وخضوعها لأوامر القناصل ومحاباتها الموظفين الأجانب في مصــالح الحكومة وتمييزها اياهم بالرواتب الكبيرة والمزايا العديدة ، فلا غرو أن اغتبط الناس بتحقيق مطالب الجيش ، وذاع في البلاد اسم عرابي كمنقذ للامة من المظالم ، ومحقــق للآمــال .

وقد لقي عرابي عطفا وتأييدا من جميع الطبقات ، وفي مقدمتها العلماء والأعيان وعمد البلاد ومشايخ العربان ، وأخــذ هو يبث أفــكاره بينهم ليكونوا عــدته وحزبه ، ويتأهب للقيام بحركة جريئة توطد نفوذه وســلطانه ، ويطمئن بها على حياته وحياة صحبه الموالين له في الجيش ، وهي المطالبة بتأليف المجلس النيابي مع اســقاط وزارة رياض ، او بعبارة أخرى احداث انقلاب في نظام الحــكم واحلال حكم الشورى محل الحكم الاستبدادي .

ولما اطمأن عرابي الى ان الجيش فى قبضـــة يده ،
والامة تناصره ، وشرع فى احداث الانقلاب الذى كان يرجوه
فى نظام الحـــكم ، أو بعبارة أخرى اخـذ يتأهب لمتابعة
الثورة التى بداها يوم أول فبراير سنة ١٨٨١ .

وكانت الحكومة من ناحيتها تدفعه الى الثورة دفعا ،
بما بدا منها من الحركات العـدائية التى قصـدت منهـا
تفريق شمل زعماء الجيش وضباطه تمهيدا للتنكيل بهم ،
فهى لم تصدر القوانين العسكرية الجديدة التى وضعتها
لجنة الاصلاح المتقدم ذكرها ، وكان هذا اخـلالا بوعدها
فى تحسين حالة الضباط والجنود ، وبرهانا على سـوء
مقاصدها نحو الجيش ، واشتدت هذه المقاصد ظهورا من
يوم عودة الخديو من مصيفه بالاسكندرية الى العاصمة ،
وكأنما كان مجيئه نذيرا بانفاذ خطة الحكومة فى القضـــاء
على نفوذ الحزب العسكرى .

دبرت هـذه الخطة فى الاسـكندرية اثنـــاء مصيف
الخديو بها ، فقد خيل اليه انه استمال جنود الاى الحرس
وضباطه ، وعلى رأسهم على فهمى ، وجعلهم عـــدته فى
انفاذ أوامره ، واستمال اليه أيضا قائد الاى الاسكندرية
(حسين بـك مظهر) ، فاعتزم نقل الالاى المـذكور الى
القاهرة ليكون له فى العاصمة الايان تحت طاعته .

لم يكد الخديو يصل الى العاصمة حتى اخذ ينفـذ
خطته ، وقوامها تفريق وحدات الجيش ، ونقـل الفرق
الموالية للعرابيين من العـــاصمة لـكى يستبدل بهـا
فرقا أخرى موالية للخديو ، فأصدر داود باشا يكن وزير
الحربية أمرا بان ينقـــل الالاى الثالث من المشاة (الاى
القلعة) الذى كان يرأسه ابراهيم بك خيدر الى الاسكندرية

بدلا من الاى الاسكندرية (الآلاى الخامس) ، وان يحل هذا فى القاهرة مكانه ، فلما علم ضباط الآلاى الثالث بهذا الامر اضطربوا له واوجسوا شرا من عواقبه ، وذهبت بهم الظنون والوساوس كل مذهب ، وخشوا ان يكون غرض الحكومة الانتقام منهم والتنكيل بهم ، وكانت الظروف مؤيدة لظنونهم ، وسرت بينهم اشاعة ان فى نية الحكومة اغراقهم فى كوبرى كفر الزيات حين سفرهم بالقطار الى الاسكندرية ، وعادت الى اذهانهم حادثة اغراق الامير احمد رفعت بن ابراهيم باشا فى كفر الزيات فى عهد بعيد .

واتفقت كلمة ضباط الآلاى على نقض الاذعان لامر وزير الحربية ، والامتناع عن مغادرة القلعة ، فلما جمع ابراهيم بك حيدر قائد الآلاى ضباطه وتلا عليهم أمر الوزير اعلنوا جميعا أنهم يرفضون الاذعان له ، فكتب الى وزير الحربية يخبره بذلك ، واعتزم عرابى وصحبه تحريك الجيش والسير به الى سراى عابدين فى شكل مظاهرة عسكرية لاملاء ارادتهم على الخديو ، لكى يضعوا حدا للحالة القلقة التى وصلت اليها البلاد ولاحداث الانقلاب الذى ارادوه .

الفصـــل الثـــالث

أوج الثورة

واقعـــة عابدين

(٩ سبتمبر سنة ١٨٨١)

اتفقت كلمـة زعمـاء الضباط على اقـامة المظـاهر
سكرية امام سراى عابدين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ،
ضـــعوا لها خطة محكمة ، وهى حضور جميع الآيات
يش المرابطة بالقاهـرة الى ميدان عابدين (الجمهورية
ن) فى أصيل ذلك اليوم لتقديم طلبات الأمة الى الخديو
يق ، وقوامهـــا اسقـــاط الوزارة ، وتأليف المجلس
يابى ، وزيادة عدد الجيش ».

فخاطب عرابى جميع الآيات المشاة والفرسان والمدفعية
جودة وقتئذ بالعاصمة لموافاته بميدان عابدين فى الساعة
اشرة (عربى) عصـــر يوم الجمعـــة ٩ سبتمبر ســنة
٨٨ (١٥ شوال سنة ١٢٩٨ هـ) لعرض طلباتهم على

الخديو ، وارسل الى وزير الحربية يبلغه أن يخبر الخديو بأن جميع الالايات ستحضر الى ساحة عابدين فى الساعة المذكورة « لعرض طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وضمان مستقبلها » .

وارسل ايضا الى قناصل الدول يطمئنهم ان لا خوف على رعاياهم من هذه المظاهرة لأنها مقصورة على أحوال البلاد الداخلية .

محاولة الخديو منع المظاهرة

فلما وصل كتاب عرابي الى وزير الحربية ابلغه من فوره الى الخديو ، فاضطرب له وخشى مغبة هذه المظاهرة المسلحة ، فاستدعى فى الحال رياض باشا رئيس الوزارة وفاوضه فى الامر بحضور احمد خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى والجنرال استون باشا Stone رئيس اركان حرب الجيش ، فاتفقت كلمتهم على محاولة اقناع قواد الالايات بالعدول عن هذه المظاهرة ، ففشلت هذه المحاولة .

احتشاد الجيش فى ميدان عابدين

احتشد الجيش فى الموعد المضروب فى ميدان عابدين وكان اول من حضر الى ميدان عابدين الاى الفرسان (السوارى) بقيادة احمد عبد الغفار ، ولعله بادر بالحضور لأنه كان من اول الناقمين من النظام القديم ، إذ فصله وزير الحربية الاسبق (عثمان رفقى) لغير ما سبب .

ثم جاء عرابى ممتطيا جواده شاهرا سيفه ، يقود الاى العباسية ويصحبه الاى المدفعية « الطوبجية » يقوده اسماعيل صبرى ، ومعه المدافع بذخيرتها ، وكانت بطاريات المدافع تتخلل اورطة المشاة اثناء المسير .

ولما وصل عرابى تفقد على بك فهمى فلم يجده ، واخبره بعض الضباط انه وزع الاى الحرس داخل السراى ، ومعه كمية وافرة من الذخيرة ، وانه على استعداد للدفاع عنها اذا مست الحاجة ، فبعث اليه من فوره بالملازم محمد على يستدعيه ، فحضر على بك فهمى ، فساله عرابى عن سبب جعله العسكر على ابواب السراى ومنافذها من الداخل ، ولم يكن هذا اتفاقهم من قبل ، فطمانه على فهمى ، وقال له : « ان السياسة خداع » ، اى انه لم يفعل ذلك الا لمخادعة الخديو ، وانه باق على عهده ، فطلب اليه عرابى ان يسحب الاية من السراى وياخذ مكانه فى الميدان ، ففعل وامر بخروج الالاى من السراى فخرج منها الجند جميعا ، واصطفوا الى جانب اخوانهم فى المكان المعين لهم من الدائرة ، ثم تم ترتيب آلاى المدفعية والفرسان والمشاه على شكل مربع ، وجاء بعد ذلك الالاى الثانى من قصر النيل يقوده بعض ضباطه وذلك لامتناع قائده الميرالاى محمد بك شوقى والبكباشية عن الاشتراك فى الحركة ، ثم جاء الالاى الثالث قادما من القلعة بقيادة البكباشى فوده حسن ، والالاى السودانى قادما من طره بقيادة عبد العال حلمى ، ثم اورطه المستحفظين يقودها القائمقام ابراهيم فوزى .

وبذلك اكتمل الجيش في ميدان عابدين ، اذ لم يبق الاى من الآلايات المرابطة بالعاصمة الا حضر الى الميــدان ، وبلغ عدد الجنود المحتشدين في الميدان نحو اربعة آلاف بأسلحتهم ومدافعهم ، وغصت اطراف الميدان بالجموع الحاشدة من النــاس الذين جـاءوا ليشهدوا هذا المنظر ، وامتلات نوافــذ البيوت المجاورة للسراى وسطوحهـــا بالنظاره ، وكان الموقف رهيبا ، لان مجيء الجيش مهددا متوعدا ، واحتشاده بأسلحته وذخائره ومدافعـــه امام السراى الخديوية ، يحاصرها ويسد المسالك على من فيها ، كل ذلك خليق بان يفزع الخديو ووزراءه ، وخاصة بعــد ان راى أن حرسه الخاص قد تخلى عنه في هذه الساعة العصيبة ، وانضم الى الجيش الثائر .

وكان الخديو قد عاد الى السراى ودخلها من البــاب الشرقي وصعد الى ديوانه ، وشهد تجمع الجنود في الميدان وكان الوزراء قد توافدوا على السراى ، وجاء ايضا بعض قناصل الــدول والسير أوكلن كولفن المراقب المــالى الانجليزى ، فشهدوا هــذا المنظر الذى لم يألفوا مثله في مصر من قبل .

نزول الخديو الى الميدان

وقد ظن الخــديو انه لو نزل الى الميدان لقابل ما له من الهيبة التقليدية في نفوس المواطنين والجنــد ، بصــدا الجيش وضباطه عن الثورة ، فنزل من السراى الى حيثما رؤساء الجند ، يصحبه المستر كوكسن Cookson

القنصل انجلترا فى الاسكندرية وكان نائبا عن القنصل العام ادوار مالت لغيابه بالاجازة ، والسير اوكلن كولفن المراقب المالى الانجليزى ، وبعض جنود الحرس الخاص .

فلما توسط الميـدان نادى عرابى ، فجاء راكبا جواده شاهرا سيفه ، وخلفه نحو ثلاثين ضابطا شاهرى السيوف ، فلما دنا من الخديو صاح به احد رجال الحرس ان ترجل واغمد سيفك ، ففعل ثم أقبل عليه ، وهنا يقول عرابى ان المستر كوكسن اشار على الخديو بان يطلق عليه مسدسه ، ولكن الخديو لم يعمل باشارته وقال له : « أفلا تنظر الى من حولنا من العسكر » ، أى انه خشى مغبة العمـل بنصيحة المستر كوكسن ، والواقع انها نصيحة لا تنم عن اخلاصه للخديو ولا حسن قصد من المستر كوكسن ، فلو ان الخديو امكنه ان يقتل عرابى فى هذه اللحظة لما امن على حياته من الجند والضباط .

اما ما كان من الخديو فى هذه المواجهة فانه صاح بالضباط الذين جاءوا خلف عرابى : ان اغمدوا سيوفكم وعودوا الى بلوكاتكم ، فلم يفعلوا ، وظلوا وقوفا فى اماكنهم ، وكانوا كحرس خاص لعرابى ، فلم يغادروه حتى انتهى الحوار بينهما

مطالب عرابى

ولما وقف عرابى امام الخديو وحياه التحية العسكرية خاطبه الخديو توفيق بقوله « ما هى اسـباب حضورك بالجيش الى هنا » ؟

فأجابه عرابى : « جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والامة ، وكلها طلبات عادلة » .

فقال الخديو : « وما هى هذه الطلبات » ؟

فأجابه : « هى عزل رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وابلاغ عدد الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية » .

فقال الخديو : « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وانا خديو البلد واعمل زى ما انا عاوز » .

فقال عرابى : « ونحن لسنا عبيدا ولا نورث بعد اليوم » .

فلما وصل الحوار الى هذا الحد اشار المستر كوكسن على الخديو بالرجوع الى السراى لانتا نظره الى سوء المغبة اذا زادت المناقشة عن هذا الحد ، فرجع الخديو ومن كان بمعيته الى داخل السراى .

ثم عاد منها المستر كوكسن ومعه السنيور اوكلن كولفن وخاطب عرابى كرسول من قبل الخديو قائلا : ان عزل الوزارة من خصائص الخديو ، وطلب تشكيل مجلس النواب ليس من حقوق الجهادية ، وزيادة الجيش لا لزوم لها لأن مالية الحكومة لا تساعد على ذلك ، فقال عرابى : اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتى المتعلقة بالاهالى لم أعمد اليها الا لانهم اقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن اخوانهم واولادهم ، فهم القوة التى تنفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة وانظر الى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر ، فهم الاهالى الذين

انابونا عنهم في طلب حقوقهم ، واعلم علم اليقين اننا لا نتنازل نتنازل من طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ .

فقال القنصل : علمت من كلامك انك ترغب في تنفيـذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشـأ عنـــه ضياع بلادكم وتلاشـيها .

فقال عرابي : كيف يكون ذلك ؟ ومن ذا الذي يعارضنا في احوال داخليتنا ؟ فاعلم أننا سنقـــاوم من يتصـــدى لمعارضتنا أشد المقاومة الى أن نفنى عن آخرنا .

قال القنصل : واين قوتكم التي ستدافع بها ؟

قال عرابي : عند الاقتضاء يمكن ان نحشد مليونا من العساكر يدافعون عن بلادهم ويسمعـــون قولي ويلبـــون اشارتي .

فقال القنصل : وماذا تفعل اذا لم تجب الى ماتطلب ؟

فقال عرابي : اقول كلمة اخرى ، فقال القنصـــل : وما هي ؟

فقال عرابي : لا اقولها الا عند اليأس والقنوط .

قبول مطالب عرابي

سقوط وزارة رياض

وهنـا انقطعت المخـابرات بين الفـريقين ، وتداول الخديو في الموقف مع من كانوا بداخل السراى من وزراء

وقناصل وغيرهم ، ومرت ساعة وهم يتداولون ، فرأوا أن لا بد من الاذعان لمطالب رؤساء الجند ، لان الجيش باكمله يؤيد هذه المطالب ، ولم يكن لدى الخديو اية قوة يعتمد عليها .

فاستقر الرأى على اجابة هذه المطالب تدريجيا ، وان يبدأ بسقوط الوزارة ، فقدم رياض استقالته الى الخديو ، وكان هذا أوج الثورة .

أبلغ عرابى هذا القرار ، وطلب اليه الخديو قبول اسناد رئاسة الوزارة الجديدة الى على حيدر باشا يكن ، فلم يوافق على ذلك لما له من صلة القرابة بالخديو ، فعرض عليه تعيين محمد شريف باشا رئيسا ، فقبل ، وكان شريف وقتئذ بالاسكندرية ، فاستدعى بالتلغراف للحضور الى العاصمة .

وبعد ان اجيبت مطالب عرابى توجه الى الخديو فى السراى ، وشكر له ارضاءه لمطالب الامة ، فاقسم انه مرتاح لما فعل ، وانه وافق على تلك الطلبات بنية صادقة ، فكرر عرابى الشكر والدعاء له ، واصدر أمره الى الآلايات بالرجوع الى مراكزها ، ما عدا الآلاى السودانى فانه قضى ليلته فى ضيافة آلاى الحرس بقشلاق عابدين .

البيان الرسمى عن الواقعة

ونشرت الوقائع المصرية فى عدد الاحد ١١ سبتمبر سنة ١٨٨١ (١٧ شوال سنة ١٢٩٨ هـ) البيان الآتى :

« فى ليلة السبت ١٦ شوال سنة ١٢٩٨ (١٠ سبتمبر

سنة ١٨٨١) استعفت نظارة دولتلو رياض باشا فقبل استعفاؤها وكلف دولتلو شريف باشا بتشكيل نظارة جديدة » .

ولم يكتف رياض بالاستقالة ، بل رحل الى أوروبا خوفا على حياته ، فابحر من الاسكندرية يوم الاربعاء ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، ولم يعد من أوروبا الا بعد ان شبت الحرب فى مصر وتبين رجحان كفة الانجليز فى ميدان القتال .

الفصل الرابع

وزارة الامة

قلنا ان شريف كان بالاسكندرية يوم المظاهرة العسكرية التى ادت الى سقوط وزارة رياض ، وانه استدعى بالتلغراف فى ذلك اليوم فسافر من محطة (الحضرة) فى قطار خاص ووصل الى القاهرة فجر اليوم التالى (١٠ سبتمبر سنة ١٨٨١) ، وذهب اليه عرابى بمنزله وهنأه برئاسة الوزارة الجديدة ، وفاوضه فى أشخاص الوزراء الذين يؤلف منهم وزارته .

تزود مزيف فى قبول الوزارة

كان طبيعيا ان يتدخل عرابى فى تأليف الوزارة ويكون له رأى فى اشخاصها ، لانه هو الذى توصل بقوة الجيش الى اسقاط وزارة رياض واختيار شريف لتولى الرئاسة ، ولم يكن شريف يجهل ذلك او يتجاهله ، ولكنه كان رجلا أنوفا مستقل الرأى حفيظا على كرامته لا يقبل ان يتلقى الأوامر من غيره ، فضلا عن انه كان يشعر فى خاصة نفسه بخطر استمرار تدخل الجيش فى

السياسة ؟ ولذلك اجتهد في وضع حد للتدخل العسكري في شئون الحكومة »

أما فيما يتعلق باختيار أعضاء وزارته ، وتدخل عرابي في هذا الصدد ، فان هذا التدخل جعله يتردد اياما في قبول رئاسة الوزارة ؟ فقد رغب اليه عرابي اثناء المقابلة الاولى في اختيار محمود سامي البارودي للحربية ؟ ومصطفى فهمي للخارجية ؟ « لما يعلمه من ميلهما الى العدل والحرية » كما يقول عرابي في مذكراته ؟ ولم يكن هذا اعتقاد شريف باشا فيهما ، وقد صارح عرابي انه لا يقبل اشتراكهما معه في الوزارة ، لانهما حين كانا عضوين في وزارته الثانية التي الفها في أول عهد الخديو توفيق تعاهدا واياه كما تعاهد سائر الوزراء على انه اذا رفض الخديو الموافقة على تشكيل مجلس النواب استقالت وزارته على أن لا يشترك احد من اعضائها في الوزارة التي تخلفها ما لم يقبل الخديو تشكيل المجلس النيابي ؟ فنكث البارودي ومصطفى فهمي عهدهما ؟ قال شريف في هذا الصدد مخاطبا عرابي : « اني لا اقبل ان يكون في وزارتي محمود سامي ولا مصطفى فهمي ؟ لانهما لم يوفيا بالعهد الذي تعاهدنا عليه من قبل ، فقد اتفقنا على انه اذا رفض الخديو الموافقة على تشكيل مجلس النواب استقالت وزارتنا ؟ ولا يشترك احد منا بعد ذلك في الوزارة الجديدة ، ولكنهما نكثا العهد وقبلا الدخول في وزارة رياض باشا ، التي قامت بعد وزارتنا والتي سقطت بالامس ، لذلك لا استطيع ان اشتغل معهما ؟ »

ولكن عرابي كان حريصا على اسناد وزارة الحربية الى البارودى ، لما ثبت من ولائه للحركة واخلاصه للجيش . ولم ينس أنه على يده حين تولى وزارة الحربية أجيبت مطالب العرابيين الاولى ، وهى زيادة رواتب الضباط والجند وتأليف لجنة لاصلاح القوانين العسكرية . وأن الخديو قد أقصاه بعد ذلك من وزارة الحربية لاخلاصه للحزب العسكرى ، أما مصطفى فهمى فكان عرابى يميل الى تقليده وزارة الخارجية لما كان يتظاهر به من الاخلاص للحركة ، على أنه لم يبد منه أى عمل ايجابى يدل على هذا الاخلاص ، وكل ما عرف عنه أنه من يوم أن اشترك فى مقتل اسماعيل صديق على عهد الخديو اسماعيل ، ملىء قلبه رعبا من هول هذا الحادث ، وتقرت نفسه من استبداد الخديويين ، ومن هنا اطمأن له العرابيون ، واراد عرابى أن يقنع شريف بقبول مرشحيه ، فقال له : « ان لكل وقت حكما ، وانى واثق بحبهما الحرية والعدل والمساواة ، وفضلا عن ذلك فان العسكرية لا تطمئن لغير محمود سامى باشا ». [6]

اعترض شريف على عرابي أن يقبلوه هو وزيرا للحربية ، قال مخاطبا عرابي : « الا ترضون أن أكون ناظرا للجهادية فانى قد ربيت معكم فى العسكرية » .

والحق أن حجة شريف كانت قوية ، لانه تلقى التعليم العالى فى المدارس الحربية ، ونال قسطا وافرا من علومها

وتكونها في أرقى مدارس فرنسا ، وهو بلا شك اكفأ في هذا الصدد من محمود سامي البارودي ومن القـواد العرابيين ، ولكن عرابي أصر على اختيار البارودي للحربية ؟ وقال لشريف : « لقد اخترناك رئيسا للوزارة ، ولابد من مراعاة ميول رجال العسكرية » ، فاصر شريف على عـدم قبول مرشحيه ، وانتهت المقابلة الاولى على غير اتفاق .

ومضت ايام وشريف متردد في قبول الرئاسة ، ولم يكن يستطيع غيره ان يضطلع باعبائها وينقذ الموقف ، وفي ذلك يقول المسيو سنكنكس قنصل فرنسا العام بمصر في رسالته الى وزير خارجية فرنسا : « اذا لم يقبـل شريف باشا الوزارة فستبقى البلاد بلا حكومة » ، وظل في تردده حتى عاهد العـرابيون أن يكون الجيش خاضعـا لاوامـر الحكومة ، فقبل تأليف الوزارة ورضي باسناد الحربية الى البارودي ، والخارجية الى مصطفى فهمي .

وقدم الضباط وكبراء البلاد واعيانها الى شريف كتابا منهم بيانا يعلنون ثقتهم فيه ويعاهدونه بتأييده .

تأليف وزارة شريف

١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١

قبل شريف تأليف الوزارة بعد أن حصل على هـذه العهود والمواثيق ، فألفها في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ على النحو الآتي :

شريف باشا للرئاسة والداخلية ، محمود سامي باشا البارودي للحربية والبحرية ، علي حيـدر باشا المالية ،

اسماعيل باشا أيوب للاشغــــال ، مصطفى فهمى باشا الخارجية ، محمد زكى باشا للمعارف والاوقاف ، محمد قدرى بك (باشا) للحقانية .

وهذه الوزارة هى ثالثة الوزارات التى الفها شريف ، وقد رفع الى الخديو توفيق كتابا ضمنـــه الاسباب التى حدت به الى قبول رئاسة الوزارة فى ذلك الظرف الدقيق ، والمبادىء العامة التى جعلها برنامجا لوزارته .

وتعد وزارة شريف « وزارة الامة » ، لانها الفت تحقيقا لرغبة كبراء البلاد وأعيانها ، وقد ابتهجت الامة ابتهاجــا كبيرا بتأليفها ، وعلقت عليها تحقيق آمالها فى اقامة النظام الدستورى المقرون بالعدل والاستقامة .

وقد اضطلع شريف باشا بالمهمة التى القتها الثورة على عاتقه ، واول ما رسم من الخطوط الحكيمة اعادة النظام الى الجيش ، فقد ذهب اليه عــرابى عقب تأليف الوزارة بيومين على رأس وفد من الضباط لتهنئته بالوزارة وشكره على قبول الرئاسة والقى امامه الكلمة الآتية :

« انى بلسان قومى اعرض لدولتكم اننا جميعا والقوم بصداقة دولتكم وخلوص طويتكم لمحبة الوطــن واهله ، وجازمون بان هذه الصفات التى تحلت بها ذاتكم الشريفة ، تكون وقاية لبلادنا وسببا فى استتباب الراحة العمومية فيها ، واننا نعلم واجباتنا والفروض التى تحتمها علينـــا وظائفنا العسكرية ، واعظمها حفظ البلاد ومن فيهـــا ، ولذلك فاننا نقر باننا القوة المنفذة لما يصدر من الاوامر التى تكون ان شاء الله فى خير ، وقاضية باصلاح شئون البلاد ، الا ان لنا حقوقا معلومة يمنحها لنا القانون ، ونرجو من الله

ان يحسن الينا بنوالها بمساعدة دولتكم وتوفيق الله تعالى وفضاله سبحانه ان يوفقنا جميعا لما فيه الخير والصلاح آمين » .

وأمن عليه الحاضرون من الضباط »

« انترى فى هذا الخطاب ان عرابى تعهد من جانبه باحترام النظام ، اذ يقر بأن الجيش هو القوة المنفذة لما يصدر اليه من أوامر »

خطبة شريف

وقد اغتنم شريف هذه الفرصة ليتجه الضباط الى واجبهم فأجاب على كلمة الشكر بقوله :

« فى علمكم ما قال الاقدمون : آلة الرياسة سعة السياسة ، ولا حكومة الا بقوة ، ولا قوة الا بانقياد الجنود انقيادا تاما ، وامتثالهم امتثالا مطلقا » .

« كل حكومة عليها فرائض وواجبات ، من أهمها صيانة الوطن وحفظ الامن العمومى فيه ، وهذا وذاك لا يأتيان الا بطاعة رجالها العسكرية ، فتـرددى أولا فى قبول الرياسة ما كان الا تجافيا عن تأسيس حكومة غير قوية يخيب بها الأمل ويزيد معها الإشكال ، فأكون عرضة للملامة بين أخـواتى فى الوطن وبين الأجانب ، وحيث أفاتنا الالطاف الالهية وحصل عندى اليقين بانقيادكم ، فقد زال الاضطراب من القلوب ، ورتبت الهيئة الجديدة من رجال ذوى عفة واستقامة ، فأوصيكم بملاحظة الدقة فى الضبط والربط ، لانهما من أخص شئون العسكرية

وأساس قواها ؟ واعرفوا انكم مقلدون اشرف وظيفة وطنية ، فقوموا باداء واجباتها الشريفة ، وعلى القيام باداء كل ما يزيدكم فخرا وسؤددا ، وفقنا الله واياكم ».

لهذه الخطبة على ايجازها جمعت اسمى ما يقوله زعيم سياسي صائب الرأى بعيد النظر فى الظروف التى تألفت فيها وزارته ، اذ لم يكن خافيا ان الدول الاستعمارية ـ وخاصة انجلترا ـ كانت تتطلع الى الثورة العرابية لكى تتخذ منها ذريعة للتدخل فى شئون البلاد ، ولم يخف هذه المطامع عن عرابى ذاته ، فقد ذكر فى مذكراته انه كان يلاحظ هو وصحبه عقب واقعة قصر النيل كثرة تردد السير ادوار مالت قنصل انجلترا فى مصر على الخديو ليلا ونهارا ، فاوجسوا من ذلك خيفة على مصير البلاد ، وخشوا من مطامع انجلترا ، وتحدثوا بانها تطمع فى احتلال وادى النيل اسوة بما فعلته فرنسا فى تونس اذ احتلتها سنة ١٨٨١ .

فشريف باشا سعى جهده كى ان لا يتخذ دعـاة الاستعمار من الثورة ذريعة للتدخل فى شئون البلاد ، من اجل ذلك لم يفته النصح للعرابيين بأن لا يقحموا الجيش وقتئذ فى غمار السياسة ، فتضطرب الاحوال ، وتتفتح الثغرات للتدخل الاجنبى .

ولقد كان شريف من الوجهة الدستورية اسبق فى الكفاح للدستور من العرابيين ، فلعل يده تطور نظام مجلس شورى النواب ، اذ تألفت وزارته الاولى فى عهد

الخديو اسماعيل على قاعدة تقرير مبـدأ المسئوليـة الوزارية امام المجلس ، وعلى يده وضع دستور سنـة ١٨٧٩ على أحدث المبادىء العصرية ، ولم يحـل دون صدور المرسوم الخديوى بانفاذه الا خلع اسماعيل ، ومن أجل الدستور استقال من وزارته الثانيـة فى أوائل عهـد الخديو توفيق ، وبرنامجه سنة ١٨٨١ حين ألف وزارته الجديدة كان استئنافا لجهاده فى سبيل الدستور منذ سنة ١٨٧٩ ، أى قبل أن تظهر الحركة العـرابية بسنتين ؛ فلا غرو أن يشعر شريف بعزة النفس والاستقـلال فى الرأى ازاء العرابيين .

ولقد حققت وزارة شريف كثيراً من الاصلاحات فى المدة الوجيزة التى تولت فيها الحكم ، وكان مما نفـذته اصدار القوانين العسكرية التى كان هدفها تحسين حال الضباط والجند واصلاح التعليم فى المدارس الحربية .

وابتهج الضباط بصدور هذه القوانين ؛ وزادتهـم ثقة بوزارة شريف ، وذهب وفد منهم الى داره وقدموا له شكرهم وشكر زملائهم على عنايته واهتمام وزارته ؛ باصدارها ، واعربوا له عن حسن مقاصدهم وكامل ثقتهم به وبوزارته ، وعاهدوه على ألا يخالفوا له أمـرا ، وأن ينقادوا لارادة الحكومة ولا يترددوا فى الذهاب الى أية جهة تامرهم بالذهاب اليها .

نقل الاى عبد العال حلمي الى دمياط

والاى عرابي الى الشرقية

وقد رغب شريف باشا فى نقل زعماء الحركة حسبو القاهرة الى الاقاليم ، لكى يخفف من ضغط الحـــزبو العسكرى على الحكومة ، واقنع عـــرابي وصحبه بـــان مصلحة البلاد تقضي بابعاد الالايات التى يتولون قيادتهـا عن العاصمة حتى تهدأ الخواطر ، ويقوى سلطان الحكومة حيال الدول ، وزاد فى حجة شريف ارسال الحكومـــة التركية وفدا الى مصر برئاسة على نظامى باشا لتحقيق أسباب ثورة الجيش وخروجه على الخديو ، فقد ورد نبأ قيام هذا الوفد من الاستانة فى ٣ اكتوبر سنة ١٨٨١ ، فاتخذ شريف باشا من هذا الحادث وسيلة لاقناع زعماء الضباط بالابتعاد عن العاصمة لكى يكون ذلك دليلا قائما على ائتمانهم للحكومة وتقبلهم اوامـــرها وترك سلطـة الحكم فى يدها ، ولكى يمتنع الاتصال بينهم وبين الوفـد العثمانى القادم ، فلا ينفسح المجال امامه للدس والتفرقة ، فاقتنعوا بهذه الحجة ، واستقر رأى وزارة الحربية على نقل الاى عبد العال حلمي الى دمياط ، والاى عرابي الى رأس الوادي بالشرقية (*)

ويقول عرابي انهم قبلوا ذلك على شرط صدور الامر الخديوى بانتخاب النواب لكى يطمئن على انشاء المجلس النيابي (؟) وقد صدر الامر المذكور فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ (*)

وكان سفر الالايين الى مقرهما الجديد فرصة للمظاهرات الوطنية التى تجلت فيها حماسة الاهلين وعواطفهم نحو الجيش .

فكان الالاى عبد العال حلمى هو السابق بالسفر الى مركزه الجديد ، وكان يوم سفره يوما مشهودا ، فقد انتقل الالاى الى محطة العاصمة مارا وسط المدينة ، وسبقه اليها معظم ضباط العسكرية وضباط المستحفظين والبوليس للقيام بواجب التوديع ، وامتلأت المحطة بالمودعين ، ولما وصل اليها الالاى اخذ مصطفى بك العنانى احد أعيان القاهرة ومن كبار تجارها ينثر الورد والرياحين على رؤوس الجند ، وسقى الناس شرابا سكريا فى ذلك اليوم اكراما للجيش المنقذ للبلاد من هاوية الاستبداد ، وحضر محمود سامى البارودى وزير الحربية ليودع الالاى المسافر يصحبه عرابى ، وتبودلت الخطب الحماسية فى المحطة قبل قيام القطر .

وفى ٦ اكتوبر سنة ١٨٨١ سافر الالاى عرابى من العاصمة بين مظاهر الحماسة والتكريم ، فتحرك من مركزه بالعباسية فى الساعة الثامنة صباحا قاصدا المحطة ، وشق المدينة من باب النصر تتقدمه موسيقاه تعزف بالحانها الحربية فتثير الحماسة فى النفوس الى ان بلغ المشهد الحسينى ، فاصطف الالاى امام المسجد ، ثم دخل عرابى وزار مقام الحسين رضى الله عنه يصحبه بعض الضباط ، وادار بين الالاى على الضريح الشريف ، ودعوا الدعوات الصالحة ، ثم خرجوا وسار الالاى الى المحطة ، مارا بالموسكى ثم شارع البوستة فشارع كلوت بك ، وكانت الشوارع تزخر بالمتفرجين ، وازدحمت المحطة

بالودعين ، اذ حضر اليها جميع ضباط الجيش المصرى ورؤساؤه وكثير من الاعيان والتجار وعامة الناس ، وتبودلت الخطب الوطنية فى المحطة .

ثم تحرك القطار فى منتصف الساعة الحادية عشرة قاصدا مدينة الزقازيق ، وصحب عرابى فى سفره السيد عبد الله نديم — خطيب الثورة — واستقبل وصحبه بالحفاوة فى المحطات بمظاهر الفرح والسرور والتكريم ، وكان السيد عبد الله نديم يخطب فى الناس فى كل محطة ، واستمرت مظاهر الاحتفالات حتى بلغ القطار محطة الزقازيق ، فاستقبل القادمين جمهور الاعيان والاهالى والتجار يتقدمهم امين بك الشمسى كبير تجار البندر ، وهتفوا لعرابى والجيش هتاف الدعاء ، ونثروا على الجنود الورد والازهار العطرية ، وسقوهم الشراب السكرى ، ونزل عرابى من القطار وحيا جميع المستقبلين ، والقى فيهم خطبة حماسية بدأها بقوله :

« سادتى واخوانى ، انا اخوكم فى الوطنية ، واسمى احمد عرابى ، ولدت فى بلدة « هرية رزنة » من بلاد الشرقية هذه ، فمن عرفنى منكم فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فقد عرفته بنفسى ، وها انا واقف بين ايدى الاهل والخلان » ، واخذ يشيد بما قام به وزملاؤه الضباط .

ثم استأنف القطار السير قاصدا رأس الوادى حيث كان مركز الالاى ، وبعد ان استقر به عرابى وجنده يومين ،

فدعاه أمين بك الشمسي ودعا معه صحبه من الضباط الى وليمة شائقة فخمة تكريما لهم ، فلبوا الدعوة ، والقى عرابى فى الوليمة خطبة بمعنى الخطبة السابقة وشكر أمين بك الشمسي وأثنى عليه الثناء المستطاب ، ثم وقف السيد عبد الله النديم والقى خطبة حماسية ، تعالى فى أثنائها هتاف الاستحسان من الحاضرين .

وفى اليوم التالى دعى عرابى لوضع الحجر الاساسى للمدرسة الاميرية بالزقازيق ، فلبى الدعوة وحضر الحفلة ، ووضع الحجر الاساسى للمدرسة باسم الخديو ، والقى بهذه المناسبة خطبة ذكر فيها فوائد التعليم ، وحث الحاضرين على العناية بتعليم ابنائهم ليعدوهم لخدمة بلادهم فى المستقبل .

تعيين عرابى وكيلا لوزارة الحربية

بقى عرابى فى منصبه بالشرقية نحو ثلاثة اشهر يتنقل فى الجهات ويبث افكاره بين الاعيان والاهلين ، وقد اوجست الحكومة خيفة من ابتعاده طويلا عن العاصمة وتركه يجمع حوله الاتباع والانصار بعيدا عن رقابتها ، فاقترح البارودى تعيينه وكيلا لوزارة الحربية ، فصدر امر الخديو بذلك فى ٤ يناير سنة ١٨٨٢ .

وعاد الى العاصمة واستقر بها ، وتوطدت الثقة بينه وبين البارودى ، وعظم نفوذه ، وصارت داره كعبة الطلاب الحاجات وذوى الشكايات يقصدون اليها من كل فج ، حتى أصبحت تشبه مجموع دوائر الحكومة لكثرة من كان يفد عليها من الزائرين والشاكين ، وتردد عليه مراسلو الصحف الاوروبية ليأخذوا منه الاحاديث والبيانات عن

الحركة التى قام بها ، فازدادت شهرته فى الاوساط الاوروبية .

الاصلاح القضائى ـ انشاء المحاكم الاهلية

ان أهم اصلاحات الوزارة الشريفية بعد الاصلاح الدستورى هو انشاء المحاكم الاهلية « الوطنية » ووضع نظامها الجديد ، ففى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨١ صدر القانون المعروف بلائحة ترتيب المحاكم الاهلية ، وهى تتضمن معظم القواعد العامة للنظام القضائى الحالى واهمها :

١ ـ وجوب العمل بالقوانين بعد نشرها واعلانها فى الجريدة الرسمية .

٢ ـ عدم سريان القوانين على الماضى ، ووجوب استثناء الاحكام الى القوانين التى سيجرى نشرها او القوانين واللوائح الجارى العمل بموجبها متى كانت احكامها غير مخالفة لنصوص القوانين المذكورة .

٣ ـ رتبت اللائحة انواع المحاكم الجديدة ، فقضت بانشاء محكمة ابتدائية فى كل من القاهرة والاسكندرية ، وفى كل مديرية من الوجه البحرى والقبلى ، وفى السودان وباقى ملحقات الحكومة المصرية ، وانشاء محاكم جزئية فى دوائر اختصاص المحاكم الابتدائية ، ومحكمتين استئنافيتين ، احداهما بالقاهرة والاخرى باسيوط ، ومحكمة تقض بالقاهرة وكان اسمها فى اللائحة « محكمة التمييز » ، وانشاء النيابة العمومية .

٤ ــ ونصت اللائحة على عدم جواز عزل قضاة المحاكم لا إنما للحكومة حق استبـــدال من ترى فيه عـــدم اللياقة والاستعداد منهم فى أثناء السنوات الثلاث الاولى من تاريخ تعيينه ، ونصت على عدم نقل القضاة من محكمة الى أخرى الا برضاهم وبمقتضى أمر يصدر من الخديو بناء على طلب وزير الحقانية وبعد اخذ رأى محكمة النقض .

٥ ــ تقررت فى اللائحة قواعد اختصاص هذه المحاكم .

تركيا والثورة العرابية

لم يكن موقف تركيا حيال مصر أثناء الثورة العـــرابية موقفا سليما ولا نزيها ، بل كانت ترمى الى انتهـــاز الفرص لانتقاص مزايا الاستقلال الذى نالته مصر فى عهـــد محمـــد على ثم فى عهد اسماعيل ، واسترداد هذه المزايا ، والتدخل فى شئون مصر الداخلية .

ومع ان تركيا وقتئذ كانت من الضعف والارتباك بحيث لا تستطيع ان تجعل مصر ولاية عثمانية خاضعة لحكمها ، فقد كانت السياسة التركية قائمة على الدس وقصر النظر ، فهى لم تدع وسيلة الا انتهزتها لاحراج مركز مصر والوقيعة بها ، وكان موقفها من يوم أن ظهرت الثورة العرابية الى ان وقع الاحتلال موقفا مشوها ، قوامه الخبث وسوء النيـــة والخداع ، فضلا عن الجهل وقصر النظر ، وكان ذلك من اكبر العوامل المساعدة على وقوع الاحتلال البريطانى .

الوفد العثمانى الاول

اكتوبر سنة ١٨٨١

حدثت واقعة عابدين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وانتهت بسلام ، وتألفت وزارة شريف المرجوة من الامة ، وهدأت الاحوال ، وابتدأت الوزارة الجديدة تحقق برنامجها بين مظاهر الثقة والاطمئنان .

وبالرغم من ذلك ، فان الحكومة التركية رأت فى هذه الحادثة فرصة جديدة للتدخل فى شئون مصر وانتحال حق الاشراف عليها ، فقررت ارسال لجنة الى مصر للنظر فى الحوادث الاخيرة ، وقد عرفت هذه اللجنة بالوفد العثمانى ، وهو مؤلف من : على نظامى باشا من ياوران السلطان عبد الحميد ، وعلى بك فؤاد من اعضاء مجلس شورى الدولة ونجل عالى باشا الصدر الاعظم المشهور ، وفى معيتهما قدرى بك وصفر افندى وسيف الله افندى من ياوران السلطان .

تحرك هذا الوفد من الاستانة يوم ٢ اكتوبر سنة ١٨٨١ قاصدا الى مصر ، ولم يسبق تأليفه مخابرة بين حكومة الاستانة والحكومة المصرية حتى يعرف مقصدها من ايفاده ، بل فوجئت البلاد من الاستانة تنبىء بقيام هذا الوفد ، فقوبل النبأ بالدهشة ، لأن حالة البلاد لم تكن تستدعى ايفاده فضلا عما يحدثه مجيئه من هياج الخواطر واثارة الهواجس فى وقت كانت البلاد محتاجة فيه الى اقرار الطمأنينة فى النفوس .

ولكن الحكومة العثمانية كانت فى الواقع تتعمد احداث حدث يثير الخواطر فى مصر ، فلعلها كانت تأمل أن تستغيد

من الثورة ، أو لعلها نظرت بعين الاستياء الى قيام وزارة حرة تقيم النظام الدستورى فى مصر ، لان مثل هـذا النظام لم يكن لترضى عنه حكومة الاستانة التى جبلت على كراهية الحرية والدستور . هذا الى ان على رأسها السلطان عبـد الحميد الذى بدأ عهـده بتعطيـل القـانون الاساسى العثمانى ، والغـاء مجلس المبعوثين « النواب » وتشتيت دعاة الحرية وانصارها ، اضف الى ذلك أن الخديو توفيق لم يكن منظورا اليه فى الاستانة بعين الرضا والعطف لان سلطان تركيا لم يكن ليغفـــر له اغفاله الذهاب الى عاصمة السلطنة ، حين ولايته الحـكم ، ليقـدم له فروض الولاء .

حقا ان الخديو توفيق اعتذر عن عدم ذهابه الى الاستانة بأوتبـاك احـــوال مصر وضرورة وجوده فى عاصمة مصر ، ولكن هذا العذر لم يكن ليقبله حكام الاستـانة ، اذ كان من أخص صفاتهم الغطرسة والكبرياء وسوء الظن والانتقام ، لذلك انتهزوا كل فرصة لاحـــراج مركز الخديو واثارة المشـاكل والعقبات فى وجهه ، ففكرة ارسال وفد الى مصر فكرة قوامها الكيد وسوء القصد ، وقد استاء لهـا شريف وأبدى مخاوفه منها .

جاء هذا الوفد الى الاسكندرية يوم الخميس ٦ أكتوبر سنة ١٨٨١ ، ووصل اعضاؤه الى القاهرة فى مساء ذلك اليوم ونزلوا ضيوفا على الحكومة بقصر النزهة بشبرا .

وفى صبيحة الجمعة ذهبوا الى سراى الاسماعيليـــة لمقابلة الخـديو ، فاستقبلهم بالترحـاب ، وتبـادل واياهم عبارات التحية والود ، وابلغوه تحيات السلطان واعربوا له عن تمام رضاه وسروره لما يبذله فى تحسين أحوال البلاد .

وأن الغرض من ارسال هذا الوفد هو اظهار الثقة بالخديو وتأييد نفوذه وتثبيت مركزه ، فرد عليهم بعبارات الشكر المألوفة ، ثم انصرفوا عائدين الى قصر النزهة ، وهناك رد لهم الخديو الزيارة .

وذهب على نظامى باشا الى قصر النيل حيث كان مقر وزارة الحربية ومركز الآلاى الثانى ، فاستقبله محمود سامى باشا البارودى وزير الحربية ، وهناك استدعى طلبة بك عصمت قائد الآلاى ومعه الضباط من رتبة قائمقام وبكباشى والقى فيهم خطابا باللغة التركية — عربه لهم البارودى — حثهم فيه على طاعة الخديو وتنفيذ اوامره .

فأجابه طلبة بك عصمت بقوله : « ان العساكر المصرية جموعا وأفرادا على قدم الطاعة والانقياد لولى امرنا الخديو المعظم ، يتلقون أوامره بالامتثال ، ويقفون عند حد نواهيه ، فان كلا منا يعلم أن أول واجب على الجند هو اطاعة ولى الامر والاذعان لما يأمر به ، وما منا الا محب للجناب الخديو ميال بكليته الى الامتثال لارشاداته » .

ولما انتهى من كلامه وقف على نظامى باشا ، وصافح طلبة بك ومن معه من الضباط ، واثنى عليهم الثناء الجميل ، ثم بقى مع محمود سامى البارودى نحو نصف ساعة وانصرف .

وزار بعد ذلك شيخ الجامع الازهر وتقيب الاشراف وشيخ المالكية ، وكانوا فى احاديثهم معه يثنون على الجيش ويطرون اعماله ويذكرون فضله فيما نالته البلاد .

وقد استاءت فرنسا وانجلترا من حضور الوفد العثماني على غير اتفاق معهما ، وعدتاه تدخلا من تركيا في شئون مصر الداخلية ، وطلبتا من الحكومة العثمانية تقصير مدة اقامته ، وانتهزت انجلترا هذه الفرصة لتعلن عن نفوذها في مصر حيال حضور الوفد ، فطلب السير ادوار مالت من حكومته ارسال بارجة حربية الى مياه الاسكندرية ، فأجابت طلبه ، واتفقت مع الحكومة الفرنسية على أن ترسل كل منهما بارجة على أن تعود البارجتان من الاسكندرية بحين مبارحة الوفد العثماني أرض مصر وقد وصلت فعلا البارجة الفرنسية « ألما Alma » الى مياه الاسكندرية ، ثم جاءتها البارجة الانجليزية « انفنسبل Invincible » وغادرتا المياه يوم ٢٠ اكتوبر غداة سفر الوفد العثماني ، فكانت هذه المظاهرة البحرية أولى مظاهرة من هذا النوع أثناء الثورة العرابية »

والمظاهرة الثانية وقعت في شهر مايو سنة ١٨٨٢ كما سيجيء بيانه ، ويلاحظ أن البارجة « انفنسبل » هي احدى البوارج التي اشتركت في ضرب الاسكندرية يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ، فحضور الوفد العثماني كان باعثا على مجيء هذه البوارج ، فلا جرم كان حضوره ضارا بمصر من جميع النواحي »

وظل رجال الوفد العثماني في مصر بضعة عشر يوما بين مقابلات وولائم ، واجمعت كلمة من حادثوهم من ذوي المقامات على أن البلاد ليس فيها أي اضطراب ، وأكد لهم الخديو أن الجيش على طاعته ، وبذلك انتهت مهمتهم ، واتضح أن مجيئهم لم يكن له مسوغ ، ولا كانت له نتيجة ما ، وعادوا الى الاسكندرية يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٨١ ، وفي صباح اليوم التالي اقلعوا راجعين الى الاستانة »

الفصــل الخامس

انشاء مجلس النواب

فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ رفع شريف الى الخديو تقريرا باجابة مطلب الامة فى صدد انشاء مجلس النـواب ، ضمنه مزايا النظام الدستورى وضرورة اقراره فى مصر ، وطلب تمهيدا لتاليف المجلس النيابى الجديد اجراء انتخابات عامة طبقا للائحة مجلس شورى النواب القديم ، على ان تعـرض الوزارة على المجلس المنتخب مشروع اللائحة الاساسية التى تكفل نهوضه الى مستوى المجالس النيابية الصحيحة ، أو بعبارة أخرى دعا الى انتخاب مجلس شورى النواب على أن يكون « جمعية تأسيسية » تضع الدستور الجديد .

وفى نفس اليوم الذى رفــع فيه شريف تقــريره الى الخديو ، صدر « الامر العالى » باجراء الانتخابات العامـة وتحديد يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ لافتتــاح مجلس النواب .

ولما كان نظام مجلس شورى النواب القديم يجعــل انتخاب النواب موكولا الى عمــد البــلاد ومشــايخها فى المديريات ، وجماعة الاعيان فى القاهـــرة والإسكندرية ودمياط ، فقد جرت انتخابات سنة ١٨٨١ على هــذا الاساس .

ولا شك فى ان جعل انتخاب النواب موكولا الى عمد البلاد ومشايخها فى المديريات يسهل على الحكومة السيطرة على الانتخابات واملاء ارادتها فيمن يختارهم العمد والمشايخ ، ولكن شريف حرص حرصا شديدا على ان تجرى الانتخابات حرة بعيدة عن تدخل الحكومة . واصدر منشورا بذلك الى جميع المديريات والمحافظات نبه فيه على المديرين والمحافظين الى ترك الانتخابات حرة . وهو اول منشور انتخابى فى تاريخ مصر الحديثة يقضى باحترام حرية الانتخابات العامة .

وفى الحق أن الحكومة لم تتدخل فى هذه الانتخابات ، ولم تتعرض لحرية الناخبين فى انتخاب من يريدون ، فكان الانتخاب حرا بكل معانى الحرية ، وكذلك كان حرا من تدخل العرابيين واملاء ارادتهم على الناخبين ، وترشيح اشياعهم واتباعهم ، وقد كان فى استطاعة حزبهم باعتباره صاحب الفضل فى انشاء مجلس النواب ان يتدخل فى الانتخابات ، ويملى ارادته على الناخبين ، لكى يضمن تأليف غالبية النواب من اتباعه ومرشحيه ، ولو فعل ذلك لقضى على حرية الانتخابات قضاء مبرما ، ولكن حسنا فعل ، اذ ترك الناخبين احرارا فى انتخاب من يانسون فيهم الاستقامة والاخلاص والكفاية ، ولم يسلبهم حرية الاختيار التى هى قوام الحياة الدستورية الصحيحة ، فجاءت الانتخابات صورة صادقة لارادة الناخبين ، وضرب العرابيون بذلك مثلا رائعا فى احترام حرية الانتخاب .

افتتاح مجلس النواب
فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١

« كان افتتاح مجلس النواب يوماً مشهوداً من أيام مصر التاريخية ، استقبلته الامة مغتبطة مبتهجة بما نالته من تقرير حريتها السياسية بانشاء مجلس يمثلها ويشرف على شئونها واقدارها ، وقد كان هذا المجلس حقا رمزا لهذه الحرية ، ولولا دسائس الانجليز ومكايدهم لكان فاتحة عصر جديد لنهضة مصر وتقدمها »

أعدت قاعة اجتماع المجلس بديوان وزارة الاشغال — قاعة اجتماع مجلس الشيوخ السابقة — وحدد يوم الاثنين ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ لافتتاحه ، فلم تكد تشرق الشمس ذلك اليوم حتى ازدحم الديوان والشوارع المفضية اليه بالجماهير ، واصطفت « أورطة » من الآلاى الاول المشاة — الاى الحرس — على جانبى الطريق من باب الديوان الى سلم القاعة بقيادة البكباشى محمد عبيد « الذى تقدم الكلام عن الدور الذى قام به فى واقعة قصر النيل » ومعها موسيقاها العسكرية تصدح بألحان الفرح والسرور والابتهاج »

وحضر النواب ، واخذوا مجالسهم ووجوههم تتهلل غبطة وسروراً ، وفى نحو الساعة العاشرة صباحا تحرك الركب الخديوى من سراى الاسماعيلية ، فاطلقت المدافع

من القلعة ايذانا بتحرك الموكب ، وكان يصحب الخديو في عربته شريف باشا رئيس مجلس الوزراء ، واحمد خيري باشا المهردار — حامل الختم — ورئيس الديوان الخديوي ، وطلعت باشا كاتب الديوان الخديوي .

فلما اقبل الركب صدحت الموسيقى بالسلام ، وهتف الجنود بحياة الخديو منادين النداء المعتاد « افندمزجوق باشا » — أي يعيش افندينا — وكان في انتظاره على سلم المجلس جميع الوزراء ورئيس مجلس النواب وبعض أعضائه ، فتلقوه بالاحترام ، وقصد الى الغرفة المعدة لاستراحته ، فلبث بها هنيهة قصيرة ، ثم انهى اليه محمد سلطان باشا رئيس المجلس أن المجلس قد استعد وكمل اجتماع الاعضاء ، فسار الخديو ودخل قاعة الاجتماع في نحو الساعة الحادية عشرة ، وحيا الاعضاء ، فتلقوه بجميل الاعزاز والاجلال ، واخذ مجلسه يحف به كبار رجال الدولة . وفتتح المجلس بتلاوة خطبة العرش ، وقد تلاها بنفسه ، وهذا نصها :

« ابدى لحضرات النواب مسروريتي من اجتماعهم لاجل أن ينوبوا عن الأهالي في الامور العائدة عليهم بالنفع . وفي علم الجميع أنى من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ، ولكن تأخر افتتاحه الآن بسبب المشكلات التي كانت محيطة بالحكومة . اما الآن فنحمد الله تعالى على ما تيسر لنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ، ومن تخفيف احمال الاهالي على قدر الامكان ، فلم يبق مانع من المبادرة الى ما انا متشوق لحصوله وهو مجلس النواب الذي أنا فاتحة في هذا اليوم باجتماعكم ، وانتم تحيطون علما أن

وطن مقاصدى ومساعى حكومتى هـــو راحة الاهـــالى ورفاهيتهم وانتظام امورهم بتعميم العدالة بينهم ، وتأمين سكان القطر على اختلاف أجناسهم ، وهذا منهجى واضح مستقيم ، وعليه سيرى منذ توليت أمركم ، محيا للتربيـــة ونشر العلوم والمعارف » .

« فعلى المجلس أن يكون مساعدا للحكومة فى هـــذه الامور كلها ، خالصا مخلصا فى خدمة الوطـــن ، منحصرة افكاره ومذكراته فى المنافع العمومية ، مـــع مراعاة قــرار لجنة التصفية وسائر تعهدات الحكومة مع الدول ، سالـكا المسلك المعتدل والمنهج القـــويم الذى هو أهم شىء فى هـــذا الوقت الذى هو عصر الترقى والتمدن ، فالواجب علينـــا الاعتدال والتـــأنى وحسن التبصر ، وأن نكون يدا واحـــدة فى اتمام الاعمال النافعة ، متوسلين بعناية الله تعالىوامداد رسوله الكريم . ومتمسكين بقـــوة ارتباطنـــا بالحضرة الشاهانية والدولة العليـــة أدامهـــا الله ، نسأل الله حسن النجاح انه ولى التوفيق » .

ولما انتهى الخديو من تلاوة خطبة العرش هتف الجميع له واطلقت المدافع من القلعة مؤذنة بانتهاء الخطاب مبشرة باجتماع مجلس النواب ، ثم برح الخديو مكان الاجتمـــاع وصدحت الموسيقى بنغمـــات التحيـــة له ، وعاد الى سرايه فى موكب حافل .

وتعد خطبة الخديو توفيق من الوثائق الهامـــة فى تاريخ مصر الدستورى ، لانها اول خطبة لولى الامـــر فى افتتاح اول مجلس نيابى كامل السلطة فى تاريخ مصـــر الحديث ، وهى فى مجموعها سديدة المعانى واضحـــة

الاسلوب ، متضمنة اعلان الخديو انضمامه الى الامـة في اقرار النظام الدستورى ، وقد القاها بنفسه دون أن يستنيب عنه رئيس مجلس الوزراء كما هو العـرف البرلماني ، فكان في القائه اياها تثبيتا وتوكيدا لما احتوت عليه من الاراء والمعاني ، على انه في خاصة نفسه لم يكن مخلصا لهذه الاراء والمعاني »

لم تكن جلسة الافتتاح علنية ، وذلك طبقا للائحة مجلس شورى النواب القديمة ، ولكن الحكومة تجاوزت عن تطبيق هذا النص ، فدخل كثير من النظارة مكان الاجتماع ، ووقفوا حول مقاعد الاعضاء حتى انتهت حفلة الافتتاح ، ولم يدع احد من قناصل الدول الى حضور الحفلة باعتبارها حفلة سرية طبقا للائحة القديمة ، ولأن مسألة الاجتماع من شئون البلاد الداخلية . وقد اعد في القاعة ١٢٢ كرسيا لجلوس النواب ، وكانوا في الواقع اقل من ذلك ، ولكن الحكومة كانت معتزمة تعديل اللائحة الاساسية القديمة بزيادة عدد النواب عن بعض المديريات ، وانتخاب نواب عن السودان ، فاعدت منذ افتتاح المجلس القاعد الكافية لهذا العدد ، واعدت كذلك نحو ٤٠٠ كرسي للنظارة في اعتزامها جعل جلسات المجلس علنية في اللائحة الجديدة »

وبعد انصراف الخديو دخل النواب مكان الاقلام (اللجان) ، وظلوا مستريحين ساعة من الزمن ، ثم عادوا الى قاعة المجلس واستأنفوا اجتماعهم ، فالقى فيهم محمد سلطان باشا رئيس المجلس وسليمان باشا اباظة نائب الشرقية ، كل منهما خطبة سديدة المعاني »

كان افتتاح المجلس بمثابة عيد قومي عام ؛ تجلت فيه مظاهر الابتهاج والغبطة والسرور العظيم ، فوفد على العاصمة فى ذلك اليوم كثير من الزائرين من مختلف المديريات لمشاهدة حفلة الافتتاح ، واقيمت الولائم والحفلات فى القاهرة والاسكندرية ابتهاجا بافتتاح المجلس الجديد ، واشترك فيها كثير من النواب والاعيان والموظفين وطبقات الشعب كافة ، وعبرت الصحف اصدق تعبير عن شعور الرأى العام نحو هذا الحادث الهام فى حياة مصر القومية .

وقد اجتمع المجلس يوم افتتاحه ؛ وانتخب من بين اعضائه لجنة عهد اليها اعداد الرد على خطاب العرش وتقديمه الى الخديو ، وهذه اللجنة مؤلفة من عشرة اعضاء من النواب البارزين وهم :

احمد بك الشريف ، عبد السلام بك المويلحى ، محمد بك الشواربى ، امين بك الشمسى ، هلال بك منيسى ، محمود بك سليمان ، أحمد بك على ، مراد أفندى السعودى ، اسماعيل بك سليمان ، على بك شعير .

وقد أعدت اللجنة الرد واقره المجلس ؛ وفى يوم الخميس ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٨١ ذهب سلطان باشا رئيس المجلس ومعه عبد الله باشا فكرى كبير الكتاب واعضاء اللجنة العشرة الى سراى الاسماعيلية لتقديمه ؛ فقابلهم الخديو بحضور الوزراء ، وتلا محمود بك سليمان الرد .

وتعد خطبة رئيس مجلس النواب يوم افتتاح المجلس وتعقيب سليمان باشا اباظة عليها ورد المجلس على خطبة

العرش من الوثائق الهامة فى تاريخ المجلس » وهى صورة ناطقة تمثل لنا جانبا من الحياة السياسية والآداب البرلمانية فى ذلك العصر ، ولغة هذه الوثائق ومعانيها حسنة — فى مجموعها — وتدل على سهولة استساغة نوابغ سنة ١٨٨١ للاساليب البرلمانية الحديثة »

وضع الدستور والمبادىء التى اشتمل عليها

قامت وزارة شريف بوضع الدستور » وكان يسمى فى اصطلاح ذلك العصر « اللائحة الاساسية » أو « القانون الاساسى » ، وقد وضع على أحدث المبادىء العصرية ، اذ يتضمن القواعد الرئيسية للنظم البرلمانية ، كتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب » وتخويل المجلس حق تقرير القوانين بحيث لا تصدر الا بتصديق منه » وتقرير الميزانية والرقابة على اعمال الحكومة وموظفيها » والزامها بعدم فرض أى ضريبة أو اصدار أى قانون أو لائحة الا بعد تصديق المجلس ، وقد اخذ بنظرية وحدة الهيئة النيابية فجعلها ممثلة فى مجلس النواب دون مجلس الشيوخ »

ولما أتم شريف وضع الدستور عرضه على مجلس النواب للمناقشة فيه واقراره ، ففى عصر يوم ٢ يناير سنة ١٨٨٢ جاء الى مجلس النواب يصحبه سائر الوزراء » لعرض الدستور على هيئة المجلس . والقى فى هذا المقام خطبة ضافية ذكر فيها خلاصة ما احتواه من القواعد » وألمع الى انه بوضع هذا الدستور انما ينفذ الخطة التى رآها من ثلاث سنوات ، فى عهد الخديو اسماعيل »

وقد أحال المجلس مشروع الدستور الى « اللجنة الدستورية » ، وهى لجنة الفها خصيصا للنظر فيه وكانت تسمى « لجنة اللائحة » ، وقد بحثت اللجنة مواد الدستور واقرت معظمها مع تعديلات يسيرة فى بعضها لا تغير من جوهره شيئا ، وكاد الامر يتم بالاتفاق بين الحكومة والمجلس على نصوص الدستور ، لولا الازمة التى ادى اليها تدخل فرنسا وانجلترا فى وضع الدستور ، وانتهت بسقوط وزارة شريف »

الفصـل السادس

تدخـل الاستعمار وسوء نيتـه

ازمـة يناير سنة ١٨٨٢

اعترض وضع الدستور ازمة سياسية خطيرة تسميها ازمة يناير سنة ١٨٨٢ ، ترجع الى سوء نية انجلترا وفرنسا حيال مصر واطماعهما الاستعمارية والتمـارهما بالنظام الدستوري الذي كاد يستقر باعلان اللائحة الاساسية ، ولم يكن قد بقي على اعلانها وصدور المرسوم بهـا سوى اجـراءات شكلية من تبـادل الرأى بين مجلس النـواب والحكومة على التعديلات الطفيفة التي ادخلتها لجنة المجلس في مشروع اللائحة .

ولكن انجلترا وفرنسا ارادتا أن تحدثا حدثا يخلـق الاضطراب في مصر ، وقد يودي بالدستـــور ، وذلك بتدخلهما في شئون مصر الداخلية ، وايقـاع الفرقة بين الخديو والامة ، لكى تتخذا من هذه الفرقة ذريعة للتدخـل المسلح .

مذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢

ففي اليوم الثامن من شهر يناير سنة ١٨٨٢ توجـه السير ادوار مالت Edward Malet معتمـــد انجلترا ؛

والمسيو سنكنكس Scienkieviez المعتمد الفرنسي مجتمعين الى سراى عابدين ، وقدما الى الخديو مذكرة مشتركة مع الدولتين بتاريخ ٧ يناير سنة ١٨٨٢ ، قوامهـا انهما حيال الحوادث الاخيرة قد اجمعتا على تأييد سلطة الخديو !

وتحوى المذكرة أن الدولتين انتحلتا لنفسيهما حـــق القوامة والرقابة على مصر واقرار الامن والنظام فيهـا ، والتــدخل في شئونها الداخليــة ، وظـاهر من عباراتهـا ان فرنسا وانجلترا كانتا تنظران بعـين الاستياء الى تأليف مجلس النواب وقيام النظام البرلماني في مصر ، ولم تكتمـا الاعراب عن هذا الاستياء صراحة في المذكرة ، اذ جعلتا من الحوادث الموجبة للتدخل « صدور الامر الخـــديوى باجتماع مجلس النواب ».

قوبلت هذه المذكرة في مصر بالسخط العام ، وهاجت لها الخواطر ، وتوجه شريف الى معتمدى فرنسا وانجلترا وأنهى اليهما اعتراضه على المذكرة .

واعقب هذا التدخل تدخل آخر ، اذ طلب قنصـــلا الدولتين من شريف باشا بايعاز من الرقيبين الاوروبيـــين الا يخول مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، وقدما اليه في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٢ مذكرة بهذا المعنى اثنـاء اشتغال « اللجنة الدستورية » بالنظر في اللائحة الاساسية .

فكان هذا التدخل تحديا بالغا لكرامة البلاد وحقوقها ، وتكبيرا مبيتا بين الدولتين للتدخل المسلح وخلق الذرائع للاحتلال ، اذ ما شأن انجلترا وفرنسا بنظام مجلس النواب المصرى ؟ وأى قانون يخولهما حق التدخل في وضع الدستور والمطالبة بحرمان المجلس حق تقرير الميزانية ؟!

لا شك ان هذا عدوان منكر لا سند له من الحق ولا من العهود المبرمة بين مصر والدولتين ، لا سيما ان مشروع اللائحة الاساسية كان ينص فى صراحة لا ابهام فيها على احترام اتفاقات مصر الخاصة بتسوية الديون ، وفى هذا النص الكفاية لاطمئنان الدول ورعاياها وتشدد على حقوقهم ، أما التذرع بهذه الديون لحرمان مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، وهو أهم خصائص البرلمان ، فهو الظلم والاعتساف والتحكم الذى لا مسوغ له ، وهو الطمع الاستعمارى الذى لا يحترم حقا ولا يرعى عهداً .

كان الموقف على جانب كبير من الخطر ، فهناك اولا حقوق الامة وكرامتها ، ولا تقبل امة تحترم نفسها ان تنزل على ارادة دولتين غاصبتين تريدان حرمان مجلس النواب حقا من اقدس حقوقه . وهو تقرير الميزانية ، وهناك من جهة اخرى الخطر الماثل امام رجل الدولة ، اذ يرى البلاد هدفا للتدخل المسلح من جانب الدولتين المتحفزتين للاحتلال .

وقد ارتأى شريف درءا للازمة ان لا يبت مجلس النواب بقرار نهائى فى المادة المتعلقة بالميزانية ، وان يرجئها الى حين ، حتى تنجلى الغمة ، وبذلك يتفادى التدخل المسلح الذى لم يكن فى استطاعة مصر وقتئذ ان تصده لما كانت عليه من الضعف والارتباك . والتأجيل فى ذاته لم يكن مضيعا لحقوق الامة فى الدستور ، بل كثيرا ما يكون التأجيل من الوسائل السياسية التى يعمد اليها لاتقاء الازمات . على ان وضع الدستور قد يستغرق وقتا يطول او يقصر ، على حسب الظروف والملابسات ، ولم يكن النص الخاص بالميزانية فى ذاته مستعجلا ، لان ميزانية

سنة ١٨٨٢ كان قد صدر المرســــوم باعتمادها فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، أى قبل انعقـاد مجلس النواب ، فالبحث فى أمر الميزانية لا تبدو أهميته العملية الا فى ختام سنة ١٨٨٢ حيث توضع ميزانية سنة ١٨٨٣ ، فارجـــاء البت فى هذا النص لم يكن له من الخطر ما يدعــو الى التصادم بين المجلس والوزارة .

وقد نصــح المستر « بلنت » صديق المصريين عـرابى وصحبه بالاعتدال فى موقفهم من هذه الازمـــــة ، وبان لا يقطعوا برأى فى نص الميزانية قبل أن تفـــاوض الوزارة حكومتى فرنسا وانجلترا ، وأيده الشيخ محمـــد عبـده فى نصيحته ، وروى عنه أنه قال فى هذا الصدد : « لقد لبثنا عدة قرون فى انتظار حريتنا ، فلا يشق علينا أن ننتظر الآن بضعة أشهر » ، ولكن نصيحة الاثنين ذهبت عبثا .

وقد عرض شريف على مجلس النواب فكرة التأجيل ، ولكن عرابى ورؤساء الضباط والاعضاء البارزين من النواب لم يقبلوا هذا الحل ، وارتأوا رأيا آخر يناقضه ، وهو تقرير مادة الميزانية فى الحال ، ويلوح لنا ان ثمة عامـــلا آخر غير الاقتناع كان له دخل فى الأخذ بهذا الرأى ، وهـــو انصراف العرابيين عن شريف ، ورغبتهم فى اقصائه عن الحـــكم ، واسناد رآسة الوزارة الى رجل منهم ، اذ لم يكن يخفى ان شريف وان كان قد ألف وزارته على قاعدة اجابة مطـــالب العرابيين ، لـــكنه يشعر حيـــالهم بشىء من الاستقلال والكرامة .

وهذا ما جعل العرابيين يرغبــون فى التخلص منـــه ويستبدلون به رجلا من خاصتهم ، وقد ساعد على ظهـــور

هذه الرغبة طموح محمود سامي البارودي الى رئاسة الوزارة ، فقد كان البارودي كثير الطموح الى السلطة والجاه ومن هنا تعقدت الازمة ، وامتنع الاخذ برأى شريف ، لان البارودي وهو وزير الحربية في وزارة شريف قد زين لعرابي وصحبه ان يتشبثوا برأيهم ، ويرفضوا التأجيل ، ويقرروا مادة الميزانية فورا ، وقد رتب على هذه الخطة وصوله الى الرياسة ، لانه كان مفهوما أن رفض النواب رأى شريف يؤدي بداهة الى استقالته ، فيدعى هو الى تأليف الوزارة الجديدة .

استقالة شريف

اتفقت كثرة النواب على رفض التأجيل وعلى اقرار مادة الميزانية كما هي ، ورأى شريف من حديثه مع اعضاء اللجنة الدستورية أنهم راغبون في اسقاط وزارته ، فلم ير بدا من تقديم استقالته في ٢ فبراير سنة ١٨٨٢ .

وقد كان يجدر بالنواب أن يتريثوا في الامر ، والا ينقلبوا بهذه السرعة على من كان موضع آمالهم حتى الامس ، ومما يستوقف النظر ويدعو الى الاسف ، ان يكون أول عمل هام لمجلس النواب هو التخلص من الرجل الذي أنشأه وناضل من أجله ووضع نظامه الاساسي ، ولكنها الاهواء والمطامع كان لها الاثر البالغ في ركوب هذا المسلك .

وبهذا سقوط وزارة شريف انتصارا حاسما للحركة الثورية وعلى رأسها عرابي .

وقد ذاعت شهرة عرابى فى اوروبا عقب سقوط هذه الوزارة ، بعد ما تبين أن له النفوذ الفعال فى مجلس النواب ، اذ استطاع بواسطته اسقاط الوزارة التى رغب فى التخلص منها .

المرحلة الثانوية للثورة

وزارة البـــارودى

نزل الخديو على ارادة الحزب العسكرى — وعلى الظاهر ارادة النواب — فأسند رياسة الوزارة الى محمود سـامى البارودى ، فالفها وادخـل عرابى فيها وزيرا للحـربية ، ويبدو من التامل فى الكتاب الذى رفعه الى الخديو بتاليف الوزارة ان لا خلاف فى المبادىء العامة بين الوزارة الجديدة والوزارة المستقيلة .

والخلاف الحقيقى بينهما هو فى اقران المواد المتعلقة بالميزانية فورا ، وكان شريف يرى تأجيلها الى حين ، ولمة فارق آخر فى التشكيل ، فان وزارة البارودى مؤلفة من صميم العرابيين ، وحسبك أن فيها عرابى وزيرا للحربية ، وقد كانت فى ذلك الحين أهم الوزارات شانا واعظمها نفوذا . وربما كان هذا من أهم الاسباب الحقيقية التى ادت الى تغيير الوزارة ، لان عرابى كان يطمع فى ان يتولى وزارة الجهادية بعد ان ارتقى فى عهد وزارة شريف الى منصب وكيلها ، كما كان يطمع البارودى فى رآسة الوزارة ، وهكذا كان التطلع الى المناصب الوزارية من اسباب ما حل بمصر من الكوارث .

ويقيننا ان الثورة العرابية قد بدأت تسلك سبيلا بعيدا عن الحكمة من يوم أن اتفق عرابي وصحبه على اسقاط وزارة شريف وبدأت بذلك مرحلتها الثانية ، فـان شريف كان بلا نزاع اقدر من البارودى على حسن تدبير الامـور فى تلك الاوقات العصيبة ، اذ له من ماضيه السياسى وثقافتـه واختباره ما يجعل له كفاية ممتازة فى الاضطـلاع بالمهـام السياسية ، اما البارودى فقـد كانت نشأته ادبية وحربية فحسب ، وعلى انه من اعلام الادب وكبار الشعراء ، وله فى ذلك المقام الذى لا يبارى ، لكن هذه المزايا ليست هى المطلوبة لتصريف سياسة مصر ، وخاصة فى ذلك العصر المضطرب اضف الى ذلك أن النشأة الحربية اذا اجتمعت الى الشعر والادب ، تثير فى النفس روح الخيـال والتطلع الى اقصى مراتب المجد والعلا ، ومن هنا جاءت آمال البارودى بعيدة الافق لا تقف عند حد ، حتى بلغت التطلع الى العرش ..

وقد عظم شأن عرابى بتقلده وزارة الحربية ، فانهـا الوزارة الوحيدة التى كانت تتطلع اليهـا الانظـار فى ذلك الحين ، وفيها كانت تتمثل سلطة الحكم وقوة الحـركة الوطنية . فاصبح عرابى الرئيس الفعلى للحكومة ، وزاد من مكانته نيله بعد تقلده الوزارة رتبة لواء « باشا » ، فـا للالقـاب والرتب من الاثر الذى لا ينكر فى نفوس العـامة والخاصة ، وصار له الامر والنهى ، لا فى وزارة الحربيـة فحسب ، بل فى كل وزارات الحكومة ..

دستور سنة ١٨٨٢

أقر مجلس النواب الدستور ، وصدق به المرسوم الخديوي في ٨ فبراير سنة ١٨٨٢ ، وقدمه البارودي الى المجلس موقعا عليه من الخديو ، والقى لهذه المناسبة خطبة بليغة ولما انتهى من خطبته قدم للمجلس نسخة الدستور مصدقا عليها من الخديو .

فنهض عبد السلام بك المويلحي والقى كلمة شكر البارودي على اسراعه بالتصديق على الدستور ورد عليه البارودي باسمه واسم زملائه بأنهم لم يفعلوا الا الواجب ، ثم القى سلطان باشا بلسان النواب كلمة شكر أخرى ، وانتهت الجلسة اذ كانت الساعة السابعة .

وبعد انفضاض الجلسة توجه النواب الى السراي الخديوية ليؤدوا للخديو واجب الشكر .

أهم أعمال المجلس

واخذ مجلس النواب يضطلع بمهمته في كفاية وجهد يستحقان التقدير والثناء ، ومع أنه لم يجتمع الا زمنا وجيزا لم يتجاوز ثلاثة أشهر ، فقد قام بطائفة صالحة من الاعمال ، فقد قرر الدستور ، وهذا من أهم اعماله ، ووضع النظام الداخلي للمجلس ، وتباحث في مسائل هامة تتصل بتقدم البلاد ورفاهيتها ، كعلاج غلاء الاسعار ، وتعميم التعليم الابتدائي ، ومنع تضخم المعاشات ، ونظر في اقتراح تقدمه نائب اسنا بانشاء « خزان أسوان » واقره المجلس ، وهذا يدلك على أن نواب سنة ١٨٨٢ لم تفتهم التفكير في أعظم مشروعات الري التي تمت في العهد الحديث .

الفصل السابع

ظهور الفتن بعد انفضاض مجلس النواب

كانت مدة انعقاد المجلس فترة تقدم ونشاط لمتعت مصر خلالها بالهدوء والسكينة فى ظل النظام الدستورى ، ولم تكد تنتهى الدورة النيابية حتى اكفهر جو الصفاء الذى ساد مصر من قبل ، واخذت الاحداث تتوالى على البلاد ، فكان انفضاض المجلس نذيرا بالأنتكاس والرجعة ، ولقد كان محتملا لو بقى المجلس منعقدا ان يعالج هذه الاحداث بالحكمة والروية ، ولكن شاءت الاقدار والملابسات أن يضطرب الجو بعد انتهاء الدورة البرلمانية ، فاحتملت وزارة البارودى وحدها تبعة معالجة الموقف ، وواجهت مشكلات عدة ، داخلية وخارجية ؛ وتفاقم الخلاف بينهما وبين الخديو حتى أدى الى استقالتها »

مؤامرة الضباط الشراكسة (ابريل سنة ١٨٨٢)

وأول الاحداث الداخلية التى انتابت البلاد بعد انفضاض مجلس النواب هو مؤامرة الضباط الشراكسة ؛ وهى حادثة خطيرة كان لها تأثير كبير فى تطور الثورة العرابية ، بل فى مصير البلاد قاطبة ، وخلاصتها انه فى

شهر ابريل سنة ١٨٨٢ علم عرابي من ظلبة باشا مصطفى قائد اللواء الاول أن بعض الضباط الشراكسة يأتمرون به ، ويدبرون الامر لقتله وقتل رؤساء الضباط الوطنيين والوزراء ، وأن بعض من صدر اليهم الامر منهم بالنفي الى السودان كانوا قوام هذه المؤامرة ، فعرض عرابي الامر على الوزراء ، ثم على الخديو ، فتقرر تحقيق هذه المؤامرة في مجلس حربي ، وتألف هذا المجلس برياسة الفريق راشد باشا حسني .

فأخذ المجلس في التحقيق ، وسأل من عرفت اسماؤهم من المتآمرين ، فدلوا على ثمانية عشر ضابطا ممن اشتركوا معهم في المؤامرة ، فأمر المجلس بالقبض عليهم واخذ في استجوابهم ، فدل هؤلاء أيضا على غيرهم ، فقبض عليهم ، حتى بلغ عدد المعتقلين نحو اربعين ضابطا ، وفي مقدمتهم عثمان رفقي وزير الحربية السابق ، وخصم عرابي اللدود ، وقد سيق المقبوض عليهم الى ثكنة قصر النيل ، وعوملوا بالغلظة والشدة .

واختلفت الآراء في حقيقة هذه المؤامرة ، فقال بعض الرواة انها مؤامرة حقيقية ، كان القصد منها اغتيال رؤساء العرابيين وفي مقدمتهم عرابي ، وقال البعض الآخر انها مؤامرة خيالية ، قوامها فزع عرابي وخوفه على حياته ، فصدق الرواية التي خلقتها أوهام المفسدين ، وأراد الانتقام من خصومه ، وقد كان عرابي لا يفتأ تساوره الهواجس من ناحية خصومه .

وفي ٣٠ ابريل سنة ١٨٨٢ اصدر المجلس حكمه في القضية ، وهو يقضي على الاربعين ضابطا المتهمين بالنفي

المؤبد الى أقاصي السـودان ، مـع تجريدهم من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ، وأن يكونوا متفرقين في الجهات التي ينفون اليها ولا تكون هذه الجهـات في مركز الحكمدارية « الخـرطوم » ولا المديـريات ولا السواحل ، وصدر هذا الحكم ايضا على اثنين من غيـر العسكريين مع تجريدهما من الحقوق المدنيـة ، واحيلت محاكمة خمسة غيرهما الى المحاكم الاهلية ، وحـكم على راتب باشا الذي عد محركا للمؤامرة بالتجريد من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ، وحرمانه العـودة الى مصر ، واذا عاد يقضي عليه بالنفي على النحو السابق .

رفع الحكم الى الخديو توفيق للتصديق عليه ، فـرآه بالغا منتهى القسوة ، فامتنع عن اقراره ، ووقع من أجـل ذلك خلاف كبير بينه وبين الوزارة ، اذ أصر على تعـديل الحكم ، وتمسكت الوزارة باقـراره ، وانتهى الامـر بأن أصدر الخديو امره في ٩ مايو سنة ١٨٨٢ بتعديل الحكم الى النفي من القطر المصري والترخيص للمحكوم عليهـم بالتوجه أنى شاءوا خارج القطر ، مع عدم حرمانهم رتبهم ونياشينهم . وقـد وقع الخديو هذا الامر بحضـور السير ادوار مالت والمسيو سنككس قنصلي بريطانيا وفرنسا .

على ان هذا التعديل لم يحسم الخلاف بين الخـديو والوزراء ، فقد ذهب البارودي الى الخديو عقب توقيعـه أمر التعديل ، ولامه في لهجة شديدة لنـزوله على إرادة قناصل الدول واهماله رأي الوزراء ، وطلب اليه اضـافة عقوبة التجـريد من الرتب العسكرية الى امر التعـديل ، فاجتمع القناصل ثانية لدى الخديو عقب هـذه المقـابلة ، وانتهى الاجتماع باصرار الخديو على الامر الذي اصدره ،

فأثار ذلك سخط الوزراء ، واجتمعوا يوم ١٠ مــايو اجتماعا طويلا دام ثماني ساعات ، انتهوا فيه الى وجوب انعقاد مجلس النواب للنظــر في الخلاف ــ وكانت قــد قضت دورته ــ وبدا على اجتماعهم روح المعارضة الشديدة للخديو ، فأنكروا عليه حق العفو ، وصرح الخديو من ناحية انه لا يطيق استمرار هذه الحــال لانه يراد المســاس بامتيازاته ، ولما طال اجتماع الوزراء قلق قناصل الدول وأوجسوا خيفة من تفاقم الخلاف ، وجاءوا أثناء الاجتماع وسألوا عما اذا كان ثمة خطر يتهدد حياة الرعايا الاوربيين ، فأجيبوا بان لا شيء يتهددهم البتة ، وأبلغهم وزير الخارجية « مصطفى باشا فهمي » أنه بازاء استحالة الاتفاق مــع الخديو ، ولان رئيس الوزارة لا يمكن ان يستقيل في هذا الظرف ، فان المجلس قرر عودة مجلس النواب الى الانعقاد لينظر في الخلاف القائم بين الخديو والوزراء .

وكان لهذا القرار خطورته ، لان عرض الخــلاف بين الخديو والوزارة على مجلس النواب مع اصرار الخديو على موقفه معناه التهديد بخلعه ، وهذا ماكان عرابي وصحبه يذكرونه في احاديثهم .

ولما كانت الدعوة الى اجتماع مجلس النواب يجب ان تصدر من الخديو ، فقد اوفد مجلس الوزراء حسين باشا الدرملي وكيــل الداخلية الى الخديو لابلاغه القرار ، ولكن الخديو رفض فقد المجلس ، فدعت الوزارة النــواب الى الاجتماع بواسطة المديرين ، وهذا لا يعد اجتماعا قانونيــا طبقا لاحكام الدستور « اللائحة الاساسية » .

وقد لبى أكثر النواب الدعوة ، فجــاءوا القاهرة ، وتعددت اجتماعاتهم الخاصة ، وكان الوزراء لا يفتــأون يعقدون مجلسهم لتقرير خطتهم تجــاه الخــلاف المتفــاقم بينهم وبين الخديو .

وفى ظهــر يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨٢ اجتمعــوا فى دار البارودى ومعهم بعض رؤساء الجيش ، ثم جاءهم محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب يصحبه عبد السلام بك المويلحى ، احد النواب البارزين ، ثم جاءهم بعض النواب وتحدثوا فى أمر الخلاف ، وتعددت الاجتماعات من النواب والوزراء ، وكان فريق من النواب يميل الى حسم الخلاف بالحسنى ، اذ رأوا أن استمرار الشقاق يهدد البلاد بأعظم الأخطار .

ولم يوافق النواب عامة على عقد المجلس بصفة رسمية لعدم مشروعية الاجتماع غير العادى الا بأمر من الخــديو كما تقضى بذلك المادة ٩ من الدستور ، وتعددت مع ذلك اجتماعاتهم غير الرسمية ، ووقف النواب من أمر هــذا الخلاف موقف الاستقلال والاعتدال ، فلم يعتبروا انفسهم آلات صماء فى يد الحزب الغالب ، ولم يذعنــوا لارادة المسيطرين على هذا الحزب ، بل تدبروا الامــر بوحى من ارادتهم ، فبرهنوا على استقلال يحمدون عليــه ، وكانوا لخلفائهم مثلا صالحا فى الاضطلاع بأعبــاء النيابة وتقــدير الامانة التى عهدت اليهم .

وقد سوى الخلاف مؤقتا بين الوزارة والخديو ببقــاء الوزارة فى مركزها مع تعديل حكم المجلس العسكرى طبقا لما ارتآه الخديو .

حضور الاسطولين الانجليزى والفرنسى

مايو سنة ١٨٨٢

استفاضت الانباء فى غضون الخـلاف بين الوزارة والخديو من اعتزام انجلترا وفرنسا ارسال اسطوليهما الى الاسكندرية ، وقد تحققت هذه الانباء ، فقـررت الدولتان على أثر ما بلغهما من اشتداد الخلاف بين الخديو والوزارة ودعوة مجلس النواب الى الاجتماع بدون أمره ، ارسال اسطوليهما الى مصر ، اذ عدتا هـذه الحالة حالة ثورة تستدعى التدخل ، وأفضى اللورد « جـرانفيل » Granville وزير خارجية انجلترا بهذه الفكرة يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨٢ الى المسيو « تيسـو » Tissot سفير فرنسا فى لندن ، قائلا ان الحاجة ماسة الى القيام بمظاهرة بحرية فى مياه الاسكندرية . وقد صادفت هـذه الفكرة قبولا من الحكومة الفرنسية وسوغت الدولتان هذا العمل العدوانى بأن الغرض منه حماية رعاياهما من الاخطار التى يستهدفون لها .

ولم يكن ثمة خطر ولا خوف من هـذه الناحية ، وانما هى حجة مصطنعة ووسيلة باطلة تستر الغرض الحقيقى ، وهو خلق الذرائع للتدخل المسلح فى شئون مصر .

وتلك كانت المظاهرة البحرية الثانية قامت بها الدولتان خلال الحوادث العرابية ، والاولى كانت فى شهر اكتوبر سنة ١٨٨١ لمناسبة حضور الوفد العثمانى الاول كما تقدم بيانه ، والثانية كانت أشد خطرا من الاولى ، اذ انها لم تكن مظاهرة فحسب ، بل كانت مقدمة لضرب الاسكندرية وللاحتلال البريطانى .

اتفقت الدولتان على أن ترسل كلٌ منهمـا سفن بوارج الى المياه المصرية ، وجاءت الانباء بأن الاسطولين على أهبة الحضور ، فقوبل الخبر فى مصر بالقلق والانزعاج .

بدأت البوارج تصل الى مياه الاسكندرية يوم الجمعة ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ ، ففى أصيل ذلك اليوم جاءت مدرعة انجليزية ، وفى صباح السبت ٢٠ منه دخلتها سفينتان أخريان ، وثلاث سفن فرنسية ، وكانت السفن الانجليزية بقيادة الاميرال السير بوشان سيمـــور Seymour والفرنسية بقيادة الاميرال كونراد Conrad ولما كان مجيئهما « بصفـــة ودية » فقد أطلقت المدافـــع تحية لقدومهما .

وبعد ظهر يوم السبت نزل الاميرالان الى البر مرتديين ملابسهما الرسمية ، وزارا محافظ الاسكندرية ، فـــرد لهما الزيارة تبعا للتقاليد المتادة .

وفى ٢٢ مايو جاءت الاسكندرية أيضـــا سفينتان حربيتان يونانيتان ، وبارجة انجليزية أخـــرى قادمة من مالطة ، وفى يوم الاثنين جاءت بارجة انجليزية وتوجهت الى بورسعيد ، وفى أوائـــل يونيـــه وصلت ثلاث بوارج انجليزية اخرى الى الاسكندرية ،كما جاءت بارجة فرنسية وجاءت أيضا بارجة امريكية .

مطالب انجلترا وفرنسا

مذكرة ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢

لم يكد يحضر الاسطولان الانجليزى والفرنسى الى مياه الاسكندرية حتى اخذت الدولتان تخاطبان مصر بلغة التهديد والبلاغات الرسمية ، فبدأتا بطلب استقالة وزارة البارودى وخروج عرابى من القطر المصرى ، واخذ المسيو سنكفكس قنصل فرنسا العام على عاتقه ان يسعى اول الامر الى هذا الغرض « بطريقة ودية » ، فاتصل بزعماء العرابيين بواسطة سلطان باشا ليحملهم على قبول هذه المطالب « من غير حاجة الى بلاغ نهائى » فعرض عليهم سلطان باشا هذه المطالب « كأنها مقترحات من عنده » فرفضوا قبولها ، ومن ذلك الحين فقد سلطان باشا ثقة العرابيين « وبدأ انحيازه الى صف الخديو » .

وفى يوم الخميس ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ جاءت تعليمات الحكومتين الى قنصليهما ومضمونها تقديم البلاغ النهائى الذى اعدتاه الى الوزارة المصرية ، وانتظار الجواب منها » وبعد ظهر ذلك اليوم قدم القنصلان الى البارودى بلاغ الدولتين فى شكل مذكرة « نوتة » طلبا فيها استقالة الوزارة ، وابعاد عرابى عن القطر المصري مؤقتا مع حفظ رتبه ومرتباته ونياشينه ، واقامة عبد العال حلمى وعلى فهمى الديب فى الارياف بجهات لا يخرجان منها مع حفظ رتبهما ومرتباتهما ونياشينهما » .

رد الوزارة

اجتمع الوزراء يوم ورود المذكرة ، وقرروا رفض مطالب الدولتين ، ويقول البارودى انه نصح عرابى بقبولها فلم يقبل هو واخوانه ، وايد هذه الرواية احمد بك رفعت سكرتير مجلس الوزراء ، اذ قال ان البارودى افضى اليه بانه مقتنع بقبول هذه المطالب ، « ولكن الجهادية لم تقتنع » ، فقال له احمد بك رفعت : « اقنعهم » ، فأجابه البارودى : « لا يمكننى ، فاننا متحالفون مع بعض » .

وهذا يعطيك فكرة عن الحالة السياسية فى ذلك الوقت العصيب ، ويدلك على أن البارودى كان يأتمر باوامر عرابى فى السياسة العامة ، ولو تخالف رأيه ، وليس هذا ما يجب على رئيس الوزارة أن يعمله فى ازمة خطيرة يرتبط بها كيان البلاد .

اما الخديو فقد اعلن قبول مطالب الدولتين ، فاستقالت وزارة البارودى فى ٢٦ مايو ١٨٨٢ احتجاجا على مطالب الدولتين وعلى قبول الخديو اياها . فقبل الخديو استقالتها ، وهاجت الخواطر وخاصة بين الضباط لان قبول استقالة الوزارة معناه اقصاء عرابى عن وزارة الحربية .

وبالرغم من استقالة الوزارة ، فان عرابى بقى على اتصال دائم بضباط الجيش لكى يضمن الا يقبل الجيش وزيرا للحربية سواه ، وهذا ظاهر من الخطاب الذى ارسله بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ الى انصاره من الضباط ،

لقد اخبرهم فيه انه مع استقالته من وزارة الحربية فانه لم يستقل من رياسة الحزب الوطني ، ويطلب اليهم أن يأتمروا بأوامره وأن يحافظوا على الامن .

ويقول عرابي في مذكراته انه ارسل هذه الرسالة تلغرافيا الى جميع مراكز العسكرية بعد أن قابله قناصل الدول وطلبوا اليه تأمين رعاياهم .

لم يكن من الميسور في هذه الظروف تأليف وزارة جديدة تخالف الوزارة المستقيلة في خطتها وتنال ثقة النواب والضباط .

ففي صباح يوم السبت ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ ، أي غداة استقالة الوزارة ، عقد الخديو في سراي الاسماعيلية اجتماعا كبيرا برياسته ، حضره النواب والعلماء والاعيان واصحاب المناصب والرتب ، وكان من الحاضرين شريف باشا ، فكلفه الخديو تأليف وزارة جديدة ، فأبى واصر على الاباء .

اجتماع خطير

٢٧ مايو سنة ١٨٨٢

وفي غروب ذلك اليوم — ١٧ مايو ١٨٨٢ — اجتمع النواب في دار محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، ووفد عليهم كبار العلماء ، فعقدوا اجتماعا حافلا ، ثم جاءهم عرابي وهو في شدة الغضب ، فأخذ يخطب فيهم متهددا متوعدا كل من يناصر الخديو .

وجاء جمع من أكبار الضباط ، منهم عبد العال حلمي وعلى فهمي الديب ، ومحمد عبيد وبصحبتهم نفر قليل من صغار الضباط والجند ، فدخلوا مكان الاجتماع بشكل مظاهرة عسكرية يطلبون خلع الخديو علنا ، ويتهددون من يظهر له الولاء ، والقى عرابي خطبة ملأها طعنا في الخديو وفي العائلة الخديوية ، ونادى بخلعه ، واختتم خطبته بقوله : « من كان معنا فليقم ! » ، فحدثت ضجة كبيرة في المكان ، ووقف الضباط ، ولكن معظم النواب والملكيين لم يقوموا ، فتهددهم الاميرالاى محمد عبيد بالسيف ، فظلوا جالسين ، وتبين من ذلك الموقف أن النواب لا يوافقون عرابي على خلع الخديو ، وانتهى الاجتماع في هرج ومرج دون أن يظفر عرابي بضم النواب الى صفه ، ولما رأى هو وطلبه ويعقوب سامي أن النواب لا يوافقون على اعلان خلع الخديو ، اكتفوا بالالحاح في بقاء عرابي وزيرا للحربية ، فقبل سلطان باشا أن يقوم بهذه الوساطة لدى الخديو في ذلك ، وقابل سلطان باشا الخديو في ذلك اليوم بسراى الاسماعيلية ، وتحدث معه مليا في شأن الخلاف وايجاد طريقة لتسويته ، ثم اجتمع بدار سلطان باشا جمع من النواب والعلماء وضباط الجيش ، وانتهوا الى الاتفاق على مقابلة الخديو ورجائه ابقاء عرابي وزيرا للحربية ، لكي لا يضطرب حبل النظام ، فذهب وفد من النواب مؤلف من سلطان باشا ، وحسن باشا الشريعي ، وسليمان باشا اباظة ، الى سراى الاسماعيلية ، وقابلوا الخديو وعرضوا عليه رغبتهم في بقاء عرابي « ناظرا للجهادية » ، وبعد اصراره على رفض طلبهم عاد فقبل رجاءهم واصدر أمرا الى عرابي باعادته الى وزارة الحربية .

عاد اذن عرابى الى تقلد وزارة الحربية ورياسة الجيش والسيطرة على الحكومة ، وظلت النفوس قلقة ترقب ما تتمخض عنه الحوادث ، وبقى عرابى وصحبه نافذى الكلمة فى شئون الحكومة كافة .

موقف الدول

ظلت انجلترا مشتركة مع فرنسا فى موقفهما حيال مصر حتى حضور الاسطولين ، وقد ظهر اشتراكهما فى العمل فيما وقع من الاحداث السابقة ، كوضع الرقابة الثنائية ثم المظاهرة البحرية الاولى التى وقعت فى اكتوبر سنة ١٨٨١ ، ثم تقديم مذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ التى ادت الى سقوط وزارة شريف ، وتقديم المذكرة الاخيرة التى ادت الى استقالة وزارة البارودى ، على أن انجلترا قد اعتزمت بعد ان قطعت هذه المرحلة التمهيدية أن تنفرد بالعمل تحقيقا لاغراضها الاستعمارية ، ولم يخف اللورد جرانفيل Granville هذه النية عن الحكومة الفرنسية ، فقد ابلغ المسيو دى فريسينيه De Freycinel رئيس وزراء فرنسا بما يأتى : « اننا كنا سعداء بالامس اذ شاطرنا حكومتكم رأيها حين كنا نأمل الوصول الى نتيجة مرضية ، ولكن مع الاسف ليست هذه هى الحالة الآن » .

وصرح السير ادوارد مالت « قنصل انجلترا العام فى مصر يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ : « انه لا يعتبر نفسه مقيدا بالوسائل المنطوية على التساهل الواردة فى مذكرة ٢٥ مايو » .

وبدت نية الانفراد بالعمل من الجانب الانجليزى بمظهر فعلى فيما بعث به اميرال الاسطول البريطانى الى حكومته يوم ٢٩ مايو سنة ١٨٨٢ ينبئها بأن المصريين ينشئون بطارية تجاه احدى بوارج الاسطول ، ويطلب ارســال بوارج ، فلبت الحكومة الانجليزية طلبه ، ودل هذا العمل على نيــة انجلترا فى احتلال مصر .

ورأى مسيو دى فريسينيه انه يستطيع انقــاذ الموقف بدعوة الدول الى عقد مؤتمر للنظر فى المسألة المصرية ، فعرض فى ٣٠ مايو سنة ١٨٨٢ على الدول الاوروبيةالكبرى عقد هذا المؤتمر ، فلم تتردد انجلترا فى قبول هذه الفكرة ، وبادر اللورد جرانفيل وزير خارجيتها باعلان قبــولها ، اذ كان يعتقد ان السياسة الانجليزية لا يصعب عليها أن تبتدع الحوادث التى تستسيغ بها تدخلها المنفــرد فى مصر .

الوفد العثمانى الثانى

يونيــه ســنة ١٨٨٢

فى اثناء ازمة استقالة وزارة البارودى أرسل الخديو توفيق برقية الى السلطان ينبئه فيها عن هياج الضباط ، فجاءه الرد من البــاب العالى بأن السلطان باعث اليــه بلجنة للنظر فى المشكلة ، ففى اليوم الثانى من شهر يونية سنة ١٨٨٢ عين مصطفى درويش باشا معتمــدا عثمانيــا ساميا للحضور الى مصر ، وعهد اليه برياسة وفد أرسله السلطان الى مصر لمعالجة الحالة فيها ، وكان هــذا جوابا على رسالة الخديو وعلى فكرة عقد مؤتمــر دولى للنظر فى

المسألة المصرية ، فقد كان ظنها ان حضور « مسيو دي شاهاني » يغني عن عقد مثل هذا المؤتمر ، ويكفي لاعادة السلام والوئام في مصر ، وكذلك كانت سياستها قائمة على الجهل وقصر النظر ، فبينما كانت انجلترا تعمل على التدخل الحربي وترسل اسطولها تمهيدا وتأييدا لهذا التدخل ، فان الحكومة التركية توهمت ان مجرد ايفادها مندوبا ساميا كدرويش باشا يعيد الأمور الى نصابها في مصر ، ويحول دون تدخل انجلترا ، وتوهمت أن عدم اشتراكها في المؤتمر يمنع الدول من ان تتدخل أو تبرم أمرا في المسألة المصرية .

كان هذا هو الوفد العثماني الذي جاء مصر في اثناء الحوادث العرابية ، والوفد الأول — كما سلف القول — هو الذي حضر في شهر أكتوبر سنة ١٨٨١ برياسة علي نظامي باشا .

ويهمنا ان نقرر أن كلا الوفدين لم يحضر بنية خالصة نحو مصر ، بل حضر للمظاهرة والاعلان عن سلطة تركيا في القطر المصري دون أن يعمل كلاهما اي عمل نافع في فض الخلاف بين الخديو والجيش أو في انقاذ مصر من مطامع انجلترا الاستعمارية .

جاء الوفد العثماني الثاني برياسة درويش باشا في الوقت الذي اكتمل فيه عدد البوارج الانجليزية والفرنسية في مياه الاسكندرية ، وقد كانت رؤية هذه البوارج كافية لافهامه أن الموقف جد عصيب ، وأن حضوره بصفته مندوبا عن السلطان لا يمكن ان يؤثر في الموقف شيئا بازاء تلك المدافع الضخمة الفاغرة أفواهها ، وتلك المعدات الحربية

التى تنذر بالشر والدمار ، وأن هذا الموقف لا يحله حضور مندوب عثمانى عدته المظاهر الفارغة التى يحاط بها ، ولا يهمه قبل كل شيء الا الرشا والأموال التى يتطلع اليها ، كل ما فعلته تركيا اذن تجاه حضور الاسطولين الانجليزى والفرنسى ان اوفدت درويش باشا المذكور ، ثم ارسلت قبل وصوله الى مصر برقية فى ٥ يونية بأن وزارة الخارجية البريطانية ابلغت السفارة التركية فى لندن بأن الجنود المصرية تجرى التجهيزات والترميمات فى حصون الاسكندرية على نية تهديد الاسطولين الانجليزى والفرنسى ، وان الباب العالى يطلب منعها اذا كانت جارية ، ثم اردف ببرقية اخرى فى اليوم التالى يستعجل الرد .

وكان هذا البلاغ من وزارة الخارجية البريطانية بداية التحرش بالسلطات المصرية ، اذ بنى على مازعمه الاميرال سيمور من ان السلطات المصرية تحصن القلاع المواجهة للاسطول ، فكان ذلك السبب المنتحل باعثا لتركيا على طلب الكف من هذه التجهيزات ، ورأى عرابى ازاء هذا الالحاح ان يأمر بالكف عنها ، وارسل الى الخديو كتابا بذلك فى ٥ يونيه سنة ١٨٨٢ خلاصته ان هذه التجهيزات انما هى ترميمات اعتيادية لا يمكن الاستغناء عنها فى أى وقت ، وانها لم تكن لقصد سوء ، بل هى ضرورة لبقاء الاستحكامات الواجب حفظها وتعهدها بدوام الترميم والاصلاح ، ونوه فى النهاية الى ان استمرار وجود تلك الترميمات هو السبب الوحيد لتسكين روع الامة المصرية وازالة القلق والاضطراب المستولى على القلوب من وجود الاسطول الانجليزى فى المياه المصرية واجرائه حركات ومناورات حربية داخل الميناء وخارجه ، واتخاذه مقاسات

اعماق المياه واقتراب السفن الانجليزية من الشواطىء امام الاستحكامات ، وان هـذه الاجــراءات هى التى تعتبر تهديدات حقيقية ، وهى التى هيجت افكار الامة المصرية واحدثت الاضطراب ، ومع ذلك فانه حين يوقف الترميمات المذكورة « رجاء عودة الدونانمة « الاسطول » الانجليزية » ، فقد وقفت فعلا اعمال الترميم من ذلك الحين .

وانك لترى فى موقف تركيا حيــال مصر احـراجا ظاهرا لها ، فان كل الدلائل تدل على نية التحرش من جانب الانجليز ، ومع ذلك فان الحكومة التركية لم تتحـرك الا لتطلب من السلطات المصرية الكف عن اجـراء الترميمــات بالحصون ، وكان هذا الطـلب تأييـدا ظاهــرا للسياسة الانجليزية ، ولم يكن ايفاد درويش باشــا فى هــذا الموقف العصيب الا عملا عقيما لم تفد مصر منه شيئا .

وصل درويش باشا الى الاسكندرية يوم ٧ يولية سـنة ١٨٨٢ على ظهر اليخت السلطانى « عز الدين » يصحبه ابنه ومعه الشيخ احمد اسعد احد المقـربين الى السـلطان عبد الحميد ووكيل الفراشة بالمدينة المنورة ، وبعض الضباط والمامورين وبلغ عدد الوفد وحاشيته ٥٨ شخصا ، وقد كان كلا الفريقين يعمل على اجتذابه الى ناحيته ، وبدا هذا التزاحم منذ وصل الوفد الى الاسكندرية ، فقد اوفد الخديو ذو الفقار باشا السر تشريفاتى يصحبه حسن حلمى باشا من اعضاء مجلس الاحكام وطه لطفى باشا من الياوران لاستقباله على ظهر اليخت .

وارسل عرابي من ناحيته يعقوب سامي باشا وكيل وزارة الحربية ، ووقع الخلاف بين الرسولين في الناء المقابلة ، ولكن درويش باشا استقبل كليهما بالبشاشة ، ونزل وصحبه بسراى رأس التين ، وفي اليوم التالي ركبوا قطارا خاصا أقلهم الى العاصمة ، وقد عرجوا في الطريق بمدينة طنطا حيث زاروا مقام السيد احمد البدوى ، يتبركون بزيارته ، ثم استأنفوا السفر الى أن بلغوا العاصمة ، ونزلوا بسراى الجزيرة التى اعدت لاقامتهم ، حتى تنتهى مهمتهم ، وبعد أن اخذوا راحتهم ذهبوا الى سراى الاسماعيلية ، فقابلهم الخديو بالترحاب ورد الزيارة للمندوب العثماني بسراى الجزيرة ، على أن الخديو لم يكتم عن درويش باشا استياءه من حسن مقابلته لمندوب عرابي ومن لهجته في الخطاب حين قابله بسراى الاسماعيلية ، فتظاهر درويش باشا بانه جاء لتثبيت سلطة الخديو .

وكانت خطة الوفد ان يتظاهر لكلا الفريقين المتخاصمين (الخديو والعرابيين) أنه معهم ، فمن مظاهر تأييده للعرابيين أنه طلب من حكومته نحو مائتي نيشان لضباط الجيش مكافأة لهم على ولائهم واخلاصهم « للذات الشاهانية » ، وطلب لعرابي النيشان المجيدى من الطبقة الاولى ، فكان هذا علامة على رضاء الاستانة عنه ، على أن درويش باشا قد انتهى الى الانضمام علانية للخديو ! وذلك بتأثير الرشوة ، فقد منحه كوفيق رشوة قيمتها خمسون الف جنيه .

وظهر تحول درويش باشا الى جانب الخديو من نصحه لعرابي بالذهاب الى الاستانة ليقابل السلطان ، واكد له انه سيلقى منه كل رعاية واكرام ، وقد فطن عرابي الى عواقب هذه النصيحة ، وأنه قد لا يعود من الاستانة اذا هو ذهب اليها ، فاعتذر للمشير العثماني بأن الامة لا تسمح له بمغادرة

البلاد ، والنصيحة وان كانت فى ذاتها ليست صادرة عن نية حسنة . فاننا نعتقد ان رحيل عرابى فى تلك الآونة كان خيراً من بقائه فى مصر ، ومهما تكن عواقب رحيله عنها فانها تهون الى جانب ما حل بمصر وبعرابى ذاته من الكوارث بعد ذلك »

ولكى تقدر مبلغ ما كان لحضور درويش باشا من الأثر ومبلغ عجزه عن معالجة الموقف ، يكفى ان نذكر انه لم يكد يمضى على حضوره بضعة أيام حتى وقعت مذبحة الاسكندرية المشئومة وذلك فى ١١ يونية سنة ١٨٨٢ ، فكانت اعلانا رهيبا باخفاق مهمة المندوب العثمانى ، وقد حضر ضرب الاسكندرية يوم ١١ يوليه ، ثم انقلب الى الاستانة فى ١٩ يوليه سنة ١٨٨٢ ، دون أن يعمل أى عمل لمنع وقوع هذه الكوارث »

الحالة بعد استقالة البارودى

كانت الحالة فى أشد الاضطراب بعد استقالة وزارة البارودى ، فالوطنيون من جهة توقعوا شرا مستطيرا من مجىء الاسطولين الانجليزى والفرنسى ، واخذوا يترقبون الحرب والقتال من ساعة الى اخرى ، والاجانب من جهة اخرى علموا أن البلاد قادمة على حرب ، فكانوا يخشون على حياتهم أن تستهدف للخطر اذا قامت الحرب المنتظرة ، فمصدر الاضطراب هو فى مجىء الأسطولين ، لا فى استقالة وزارة البارودى ذاتها ، لأن هذه الاستقالة ما كانت لتحدث فى البلاد حدثا لو وقعت فى ظروف عادية .

فلو ان وزارة البارودى استقالت دون أن يكون الاسطولان مرابطين فى الاسكندرية ، لامكن حل الازمة الوزارية بغير عناء كبير ، اما باعادة وزارة البارودى ذاتها ، أو بتأليف وزارة اخرى تضطلع بأعباء الحكم وتعمل على تهدئة الخواطر ، ولكن

وجود الأسطولين قد أوجد حالة غير طبيعية ، اذ كان مجيئهما مظهرا للتهديد والوعيد ، فبقيت مناصب الوزارة شاغرة منذ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ ، وتولى الخديو سلطة الحكم مؤقتا ، ثم اضطر أن يعيد عرابي الى وزارة الحربية خوفا من انتقاض الجيش على الحكومة ، وبقيت الوزارات الأخرى شاغرة .

وأخذ الاجانب يهاجرون من القاهرة والاقاليم الى الاسكندرية ، ليكونوا تحت رعاية الاسطولين وعلى مقربة منهما ، فغصت مدينة الاسكندرية بالاجانب من سكانها ومن القادمين اليها من الاقاليم ، وكان احتشادهم فيها من الاسباب الباعثة على تفاقم الهياج ، لأن احاديثهم كانت تدور حول اقتراب وقوع القتال وما يستهدفون له من غضب الأهلين اذا نشبت الحرب بل قبل نشوبها ، لأن مجرد وجود الأسطولين في مياه الاسكندرية وتقديم بلاغ الدولتين الى الحكومة المصرية واصرارهما على اجابة مطالبهما ، كل ذلك كان رمزا لاعتداء الدولتين الاوروبيتين على البلاد واهاجة الخواطر .

الفصل الثامن

مذبحة الاسكندرية

١١ يونية سنة ١٨٨٢

في هذا الجو من اضطراب الخواطر ، وقعت الحادثة المعروفة بمذبحة الاسكندرية ، ففي يوم الاحد ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ ، في نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، وقع شجار بين احد المالطيين من رعايا الانجليز واحد الاهلين يدعى « السيد العجان » ، كان المالطي هو البادىء فيه بالعدوان ، فقد كان الوطني صاحب حمار ركبه المالطي واخذ يطوف به من صبيحة النهار متنقلا من قهوة الى اخرى ، وانتهى طوافه الى حانة « خمارة » قريبة من « قهوة القزاز » بالقرب من مخفر اللبان بآخر شارع « السبع بنات » ، فطالبه الوطني باجرة ركوبه فلم يدفع له سوى قرش صاغ واحد . فجادله في قلة الاجر ، فما كان من المالطي الا ان شهر سكينا طعنه بها عدة طعنات دامية مات على أثرها .

وقع هذا الحادث في الزقاق الكائن خلف « قهوة القزاز » ، فهرع رفاق القتيل الى ذلك المكان ، يريدون ان يمسكوا بالقاتل ولكنه فر الى احد المنازل المجاورة ، واخذ المالطيون واليونانيون الساكنون بالقرب من مكان الحادث يطلقون النار على الاهلين من الابواب والنوافذ ، فسقط كثير منهم بين قتيل وجريح ،

فثارت نفوس الجماهير تطلب الانتقام لمواطنيهم ، وتحركت طبقة من الجمهور للاعتداء على الاوروبيين عامة ، فاخذوا يهجمون على كل من يلقونه منهم فى الطرقات أو الدكاكين ويوسعونهم ضربا ، وكان سلاحهم فى هذه المعركة العصى والهراوات ليس غير .

وانبث الدهماء فى المدينة يستنفرون الناس للقتال ، ويقتلون من يلقونه من الافرنج ضربا بالعصى والهراوات ، ونهبوا دكاكين شارع السبع بنات ، وامتد الهياج من هذا الشارع الى الشارع الابراهيمى والى شارع المماميل وشارع المحمودية وجهة الجمرك والمنشية وشارع الضبطية « وراس التين » وغيرها من الشوارع التى كان يقطنها الاوروبيون أو يمرون منها ، وقد قتل كثير منهم امام الضبطية اذ كانوا قادمين من الترسانة ، عائدين من زيارتهم للبوارج الانجليزية والفرنسية ! وكان الاوربيون من ناحيتهم يطلقون الرصاص من النوافذ على الاهلين ، فقتل من الجانبين خلق كثير

واذ كان البادىء بالعدوان احد الرعايا « المالطيين » وقد شاهده بعض الحاضرين يلوذ بالفرار الى منزل يسكنه مواطنوه فقد أرسل قسم البان الى المستر كوكسن قنصل انجلترا فى الثغر لإيفاد احد موظفى القنصلية لكى يخرج المعتدى من ذلك المنزل ، فحضر المستر كوكسن بنفسه اثناء اشتداد الهياج ، فأصيب بضربة حجر وعصا جرح بسببها جرحا بليغا ، وجرح أيضا فى ذلك اليوم قنصل اليونان ، وقنصل ايطاليا ، فكانت اصابة القناصل من مظاهر خطورة الحالة

وكان عمر باشا لطفى محافظ المدينة حين بدأت الحادثة يتولى رياسة قومسيون تحقيق الجمرك بدار المحافظة ، فأبلغه أحد موظفى الضبطية نبأ الشجار الذى وقع بين الوطنى والمالطى ، وكان ذلك فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر ،

قاوند حسين بك فهمى وكيل المحافظة الى مكان الواقعة لفض الخلاف ، ثم جاء بعد ربع ساعة نبأ باستفحال الفتنة وتجسمها، وأن السيد بك قنديل مأمور الضبطية مريض فى منزله ، فذهب بنفسه الى جهة الواقعة بشارع السبع بنات .

وهنالك ادرك خطورة الفتنة ، ورأى ازدحام الشوارع بالمتجمهرين ، فطلب من اسماعيل باشا كامل قومندان الجنود بالاسكندرية ارسال المدد من الجند لوقف الهياج ، فتباطأ الاميرالاى مصطفى عبد الرحيم قائد الآلاى الخامس الذى كان مرابطا براس التين والقائمقام سليمان سامى داود قائد الآلاى السادس الذى كان بباب شرقى فى ارسال الجند ، ولم يحضروا الا فى الساعة الخامسة مساء قبل الغروب بساعة ، وحين جاء الجند فرقوا المتجمهرين بغير صعوبة ، وانتهت الفتنة فى مغرب الشمس ، فساد المدينة سكون رهيب ، اذ لزم الناس بيوتهم ، وخلت الطرقات من المارة ، وانقضى الليل والناس فى وجل وفزع .

وبلغ عدد القتلى فى هذه الحادثة ٤٩ ، منهم ٣٨ من الاجانب . والباقون من الاهليين .

اجتماع القناصل بالاسكندرية

اجتمع القناصل مساء يوم الحادثة ، وكان من بينهم الكابتن مولينو Mollino من ضباط البارجة الانجليزية « انفنسبل » Invincible وقد عهد اليه الاميرال سيمور أن ينوب عن المستر كوكسن فى ادارة القنصلية عقب اصابته فى الحادثة ، وحضر الاجتماع محافظ المدينة ، وتداولوا فيما يجب اتخاذه لاعادة النظام وتهدئة الخواطر ، فصرح كبار ضباط الجيش بالاسكندرية انهم مكلفون بحفظ

الامن ؟ على الا يتدخل الاسطولان في الامر ، تطلب القناصل من قائدى الاسطولين الا يتخذا تدابير ظاهرة ، ولكن بعض الزوارق الانجليزية شوهدت في منتصف الليل قادمة من احدى بوارج الاسطول ترسو على شاطيء الميناء الشرقي .

وكان مجيئها تنفيذا لتعليمات الاميرال سيمور الذى أصدر امره بان تخرج البارجة « سوبرب Superb » من الميناء الغربي وترسو خارج الميناء ، وان ترسل بعض الزوارق الى البر بحجة نقل النساء والاطفال الى البارجة ، فاعترض الضباط على هذه الوسيلة ، اذ راوا في حضور الزوارق الانجليزية الى البر ما يدعو الى هياج الجمهور والجند ، فوعد نائب القنصل البريطاني بابعاد الزوارق من البر ، وانفض الاجتماع الاول على ذلك .

وقع النبأ في العاصمة

كان عرابي بالقاهرة حين وقعت الحادثة ، وقد علم بها برقيا قبل الساعة الخامسة مساء ، فاسف لها اسفا عظيما ، ولما ذاعت اخبارها في العاصمة مساء ١١ يونيه قوبلت بالاستياء والاستنكار في الدوائر الوطنية ، لما توقعه العارفون من عواقبها الوخيمة ، وكانت ضربة موجهة الى العرابيين ، لان اقل ما تدل عليه ان زمام الامن قد افلت من ايديهم ، وانها تتخذ حجة ضدهم على انهم غير قادرين على ضبط الامن وصيانة الارواح ، وبخاصة بعد ان اعيد عرابي الى وزارة الحربية وتعهد بكفالة الامن والنظام .

وكانت هذه المذبحة نذيرا للعرابيين بان البلاد قادمة على خطر كبير ، اذ لم يكن خافيا ان السياسة الانجليزية قد دبرت الوسائل لوقوعها تحقيقا لاغراضها الاستعمارية في مصر ،

ولكن العرابيين لم يقدروا العواقب حق قدرها ، وقد اتخذ القناصل هذه الحادثة ذريعة لمخاطبة ولاة الامور فى العاصمة بلهجة شديدة طالبين حماية الاجانب وأموالهم فى البلاد ؟ وقررت الحكومة مساء ١١ يونيه ايفاد لجنة الى الاسكندرية للنظر فى امر تلك الحادثة والكشف عن أسبابها والتحقيق مع المتهمين فيها .

وعقد الخديو اجتماعا فى سراى عابدين صبيحة يوم الاثنين ١٢ يونيه ، حضره محمد شريف باشا ، ودرويش باشا المندوب العثمانى ، وقناصل فرنسا وانجلترا والنمسا والمانيا وايطاليا والروسيا الذين جاءوا يطلبون تامين رعاياهم على ارواحهم واموالهم ، فجرت المباحثة فى هذا الاجتماع فيما يجب اتخاذه حيال حوادث الاسكندرية ، فاستقر الرأى على اعطاء وكلاء الدول السياسيين الضمانات الوثيقة التى تكفل اعادة الامن الى نصابه ، وصيانة ارواح الاجانب واموالهم .

ومن أهم هذه الضمانات امتثال عرابى لأوامر الخديو ، فدعى عرابى الى حضور الاجتماع ، وخوطب فى الأمر فأجاب بالقبول ، وزاد ان تعهد للمجتمعين بمنع ما من شأنه اثارة الخواطر ، كالاجتماعات العامة وانعقاد الجمعيات والقاء الخطب ونشر المقالات المهيجة ، وابان ان فى مقدوره بمساعدة جنوده تأييد الامن واقرار الراحة والطمانينة ، وتعهد الخديو باصدار الأوامر الكفيلة بتهدئة الخواطر ، وقال درويش باشا انه يأخذ على عاتقه تنفيذ الأوامر الخديوية بأن يشترك مع عرابى فى انفاذها ويشاركه المسئولية فى هذا الصدد ، فاكتفى وكلاء الدول ظاهرا بهذه العهود ، وانفض الاجتماع .

وانفاذا لهذه العهود أصدر الخديو أمرا الى عرابى بالتنبيه على قواد الجيش وضباطه وجنوده بالقاهرة والاسكندرية والاقاليم بزيادة الدقة والسهر على الأمن العام .

وأصدر الخديو أمرا بهذا المعنى الى المحافظين والمديرين ، ونشر عرابي في ذلك اليوم اعلانا بدعوة الجمهور الى الاخلاد الى السكينة والطمانينة ، واذاع أمرا آخر وجهه الى قواد الجيش وضباطه وغيرهم يدعوهم الى بذل أقصى جهودهم لاقرار الأمن والراحة والنظام ، وزادت الحكومة قوات الجيش في الاسكندرية لتكون كافية لقمع كل فتنة تحصل بين الاجانب والاهلين ، فانفذت اليها الآلاي الثانى والآلاي الرابع ، وعهدت بقيادتهما الى طلبة باشا عصمت الذي صار منذ ذلك الحين قومندانا عاما لقوات الجيش في الثغر .

نزوح الاجانب عن البلاد

وكانت الانباء التي يتناقلها الاجانب مجمعة على أن الحرب لا محالة ناشبة في مصر ، وكانوا يتوقعون من آن لآخر أن تطلق البوارج الانجليزية والفرنسية قنابلها على المدينة ، وأن قوات الدولتين لا تلبث أن تهاجم البلاد ، وفي هذه الحالة لا يأمنون على انفسهم اذا نشبت الحرب أن يستهدفوا لانتقام الاهلين ، ومن هنا جاءت فكرة نزوح الاجانب عن البلاد ، فأخذ القاطنون منهم بالاسكندرية يهاجرون عنها بحرا ، والاجانب في القاهرة والاقاليم يفدون الى الاسكندرية للاقلاع منها الى الخارج ، وبدأ رحيل الاوروبيين عن البلاد في اليوم التالي للمذبحة الاسكندرية ، وكثرت جموعهم النازحة في الايام التالية ، ونزل المهاجرون منهم الى السفن التي كانت راسية في الميناء ينتظرون أن تقلع بهم .

وبلغ عدد الراحلين منهم يوم ١٢ يونيه سنة ١٨٨٢ أكثر من عشرة آلاف مهاجر ، نزلوا الى البحر متفرقين في البواخر والسفن الشراعية ، ولم تعارض ادارة جوازات السفر ولا

الجمارك أحدا منهم فى النزول الى البحر . فكثرت جموع المهاجرين يحملون أموالهم وامتعتهم ، وامتلأت الميناء بالسفن المقلة لهم ، وظلت الهجرة مستمرة فى الايام التالية حتى بلغ عدد الراحلين لغاية يوم ١٨ يونيه ٣٢,٠٠٠ مهاجر ، وبلـغ عددهم ستين الفا قبيل ضرب الاسكندرية ، فكان هذا السيل المتدفق نذيرا بما يتمخض عنه الجو من الاحداث الجسيمة .

ومما ساعد على تعاظم سيل الهجرة أن قناصل الدول رغبوا الى رعاياهم الرحيل عن البلاد ، وأفضوا اليهم بأنهم يتوقعون حوادث أشد هولا من مذبحة ١١ يونيه ، وان الحرب وشـيكة الوقوع ، فسارعوا الى الهجرة ، وأعدت كل دولة سفنا لنقل رعاياها ، فهرع الفقراء والمعوزون الى النزول اليها ، أخذ الموسرون منهم أماكنهم فى البواخر المعتادة ، وتسلل الاوربيون من كل ناحية فى القطر المصرى قاصدين الميناء ، حتى خيل لمن يرى جموعهم الراحلة انه لم يبق منهم فى البلاد الا نفر قليل .

وزاد الناس شعورا بخطر الموقف انتقال الخديو فجأة من العاصمة الى الاسكندرية ، فقد اعتزم السفر اليها عقب حادثة ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ ، وحجته تهدئة الخواطر فيها ، وسافر اليها يوم الثلاثاء ١٣ يونية ، وودعه على المحطة عرابى وزير الحربية ، وقبل ان يتحرك القطار عهد الى عرابى مراقبة أحوال القاهرة والسهر على الأمن العام فيها واتخاذ الاحتياطات الكفيلة بمنع وقوع اي حادث . وصحبه فى سفره درويش باشا المندوب العثمانى .

من المسئول عن المذبحة

لا شك أن حضور الاسطولين الانجليزى والفرنسى هـو السبب الاول لحوادث ١١ يونيه سـنة ١٨٨٢ ، فقد هاج

بتقدورهما الخواطر واوغر صدور المصريين على الاوروبيين عامة ، لما في مجيئهما من معنى التحدي والعدوان ، كما انه أغرى الاوروبيين بالوطنيين لشعورهم بان الاسطولين انما جاءا لحمايتهم ولاذلال المصريين ».

كتب الشيخ محمد عبده (الاستاذ الامام) في هذا الصدد يقول : « ان الحكومة الانجليزية على عادتها في اختلاق العلل وارتجال المساعات قلب متوجوه المسائل ، واستدبرت طالع الحق ، واستقبلت وجه مطمعها ، واتخذت مجرد التغيير في بعض نظامات الحكومة الخديوية سببا للمناوأة ، واندفعت لتسيير مراكبها الى مياه الاسكندرية تهديدا لحكومة الخديو وعدوانا عليه ، ثم نفخ بعض رجالها في انوف ضعفة العقول من الاجانب المقيمين بالثغر حتى أوقدوا فتنة هلك فيها المساكين قضاء لشهوة انجليزية ، وأقامت منها حكومة انكلترا حجة في العدوان على الاراضي الخديوية ، ولو ان بصيرا نظر الى احوال القطر المصري بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلل في ذلك القطر من يوم ورود المراكب الانكليزية لثغر الإسكندرية ، ولا نسبة بين ماكان قبل ذلك من عموم الامن ورواج الاعمال وانتظام المصالح وبين ماكان بعده »

فالمسئولية العامة تقع على كاهل السياسة البريطانية والفرنسية ، أما المسئولية الخاصة في وقوع المذبحة بالذات فتستطيع ان تتبينها من ان اول من أشعل الفتنة مالطي من رعايا بريطانيا وأخ لخادم القنصل البريطاني ، ولا يمكن ان يكون هذا من قبيل المصادفات ، والسياسة البريطانية هي التي استغلت الحادثة وهولت فيها وجسمتها لتتذرع بها الى التدخل المسلح في شئون البلاد ، وقد وصفها المسيو دي فريسينيه رئيس وزارة فرنسا في ذلك الحين وصفا لا مبالغة فيه ولا تهويل، اذ قال بانها من الحوادث العارضة التي تقع

أحيانا في الثغور التي يسكنها عدة أجناس ، وشبهها بالفتنة التي حصلت قبل عام في مرسيليا بين العمال الايطاليين والفرنسيين .

تأليف وزارة اسماعيل راغب

٢٠ يونية سنة ١٨٨٢

بقيت البلاد بلا وزارة منذ استقالة البارودي أي من يوم ٢٧ مايو ١٨٨٢ ، فلما وقعت حوادث ١١ يونيه اتجهت الانظار الى وجوب تأليف وزارة تضطلع بأعباء الحكم وتضع حدا للفوضى التي استهدفت لها البلاد .

وكان الخديو قد بارح القاهرة ووصل الى الاسكندرية عقب مذبحة ١١ يونيه كما اسلفنا ، فسعى قنصلا المانيا والنمسا لديه باتفاقهما مع مندوب تركيا للتقريب بين الخديو وعرابي وترغيبه في تأليف وزارة جديدة يبقى فيها عرابي وزيرا للحربية ، فأخذ الخديو يستشير بعض رجال الدولة في امر تأليف الوزارة الجديدة ، فاستدعى شريف ثم مصطفى فهمي ثم عمر لطفي وغيرهم ، وكلف كلا منهم بتأليف الوزارة فأبوا جميعا لما كان بينهم وبين عرابي من الجفاء ، وتدخل قنصلا المانيا والنمسا ومندوب تركيا من جديد ، واتصلوا بعرابي وتفاوضوا معه في هذا الشأن ، واستقر رأيهم بعد استطلاع رأيه على النصح للخديو باختيار اسماعيل راغب لتشكيل الوزارة ، وعلى ذلك الف راغب باشا الوزارة في ٢٠ يونيه سنة ١٨٨٢ وفيها عرابي وزيرا الحربية كما كان .

ولو حسنت نيات انجلترا لامكن لوزارة راغب باشا أن تعيد الأمور الى نصابها وتزيل الآثار السيئة التي نجمت عن

حوادث ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ ، فان هذه الحوادث قد وقع مثلها فى بعض ثغور البلاد الاوروبية دون ان يترتب عليهـا سلب استقلالها وانتهاك حقوقها ، ولكن انجلترا التى دبرت مذبحة الاسكندرية أبت الا أن تستغلها دون نزاهة ولا هوادة حتى تصل الى احتلال مصر ، وكان من تدابيرها الا تمكن وزارة راغب باشا من تهدئة الخواطر واقرار الامن فى نصابه .

واغلب الظن انها لم تكن تبغى تاليف الوزارة لكى تبدو البلاد فى حالة غير عادية وتتخذ من ذلك ذريعة الى التدخل فى شئون البلاد ، فلما تألفت قابلتها السياسة الانجليزية بالجفاء وعدم الثقة والغض من قدرتها على اعادة الامن الى نصابه ، واخذت تخلق لها العقبات والعراقيل ، وبارح السير ادوار ماليت Edward Malet قنصل بريطانيا العـام الاسكندرية يوم ٢٧ يونيـه واناب عنـه المستر كارترايت Cart wright الذى شهد ضرب الاسكندرية ، وغادر المدينة ايضا المستر كوكسن القنصل البريطانى ، واوعـزت الحكومة البريطانية الى السير اوكلن كولفن الرقيب المالى الانجليزى بالامتناع عن حضور جلسـات مجلس الوزراء ، وهذه علائم ونذر تنبىء عما كانت تبيته السياسة الانجليزية من اثارة الحرب والقتال .

مؤتمر الاستانة

للنظر فى المسالة المصرية

دعا المسيو دى فريسينيه رئيس الوزارة الفرنسية الدول الاوروبية الكبرى الى عقد مؤتمر للنظر فى المسالة المصرية ، فلبى هذه الدعوة كل من انجلترا والمانيا والروسيا وايطاليا

والنمسا ؛ اما تركيا فانها رفضت الفكرة بحجة ان ايفاد مندوبها درويش باشا الى مصر كاف لحل مشكلتها ! وقد اعتزمت ايفاده الى مصر فى الوقت الذى علمت فيه باقتراح عقد المؤتمر ، اى انها عارضت المؤتمر بارسال مندوب سام الى مصر واتخذت من ارساله وسيلة لرفض عقد المؤتمر ؛ واحتجت ايضا بان الاحوال فى مصر لا تستدعى عقد مؤتمر بعد تاليف وزارة راغب باشا واضطلاعها باعباء الحكم واعادتها الامن الى نصابه ، فلم يبق شيء يمكن ان يتفاوض فيه المؤتمر .

وقد ابلغ وزير خارجية تركيا سفراء الدول الاوروبية بالاستانة هذا القرار ، ولكن الدول لم تعبأ به واعتزمت عقد المؤتمر ، وبقيت تركيا على امتناعها ورفضت الاشتراك فيه حتى ضرب الاسكندرية ، فكان من الهازل السياسية ان يجتمع مؤتمر دولى فى الاستانة للنظر فى المسألة المصرية ؛ دون ان تشترك فيه حكومة الاستانة ذاتها ، ودون ان تشترك فيه مصر ، وكان واجبا على كلتيهما ان تشتركا فيه .

وليس هذا المظهر وحده هو الذى يدل على اضطراب السياسة العثمانية فى المسألة المصرية ، بل ان مسلكها كله كان مجموعة متناقضات واضطرابات ، فبينما كانت تتظاهر بتأييد سلطة الخديو اذا بالسلطان عبد الحميد يعلن عطفه على عرابى ويمنحه نيشانا رفيع الشأن ، ثم اذا جد الجد ونشبت الحرب بينه وبين الانجليز طعنه فى الصميم باعلانه عصيانه ، فكان هذا الاعلان من اكبر اسباب هزيمته وخذلانه ، فهذا التناقض والاضطراب ، مضافا اليه قصر نظر تركيا وسوء نيتها نحو مصر ، ورغبتها فى انتقاص استقلالها ، ثم ما جبلت عليه من الدس والوقيعة ، وتأثر وزرائها بالمال والرشا ، جعل من السياسة التركية عامل فساد استخدمته بريطانيا لتحقيق اطماعها فى مصر .

اجتمع المؤتمر بدار السفارة الايطالية فى « ترابيـة » بضواحى الاستانة على شاطىء البوسفور يوم ٢٣ يونيه سنة ١٨٨٢ ، وكان اعضاؤه سفراء الدول العظمى الست : بريطانيا وفرنسا والمانيا والنمسا والروسيا وايطاليا ، والسفير البريطانى هو اللورد دفرين Dufferin

ميثاق النزاهة

ثم اجتمع للمرة الثانية يوم ٢٥ يونيه ، وقبل البدء فى مداولاته ابرم العهد المشهور بميثاق النزاهة Protocole de Désintéressement وقد وضعه المسيو دى فريسينيه فى ٤ يونيه وعرضته على اللورد جرانفيل فقبله ، وهذا نصه :

« تتعهد الحكومات التى يوقع مندوبوها على هذا القرار بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال اى جزء من أراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعايا الحكومات الأخرى » .

وقد وقع عليه اعضاء المؤتمر جميعا .

هذا هو العهد الذى ارتبطت به الدول وفى مقدمتها انجلترا فى مؤتمر الاستانة ، ولكن انجلترا حين ابرمته كانت تنوى نقضه ، كما نقضت سائر عهودها فى المسألة المصرية ، والدليل القاطع على ذلك أنها فى الوقت الذى ابرمته — ٢٥ يونيه سنة ١٨٨٢ — كانت تعد معدات الحرب والقتال وتجهز جيوشها لاحتلال مصر ، ولم يمض على هذا العهد ستة عشر يوما حتى ضرب أسطولها مدينة الاسكندرية بمدافعه يوم ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ .

واجتمع المؤتمر فى جلسته الثالثة يوم ٢٧ يونيه ، واخذ اعضاؤه يتداولون فى المسألة المصرية ، واخذ اللورد دفرين يلقى بيانه عن الحالة فى مصر ، ذهب فيه الى ان الفوضى قد تمكنت من مصر وادت الى اختلال الادارة وارتباك الاحوال ووقوف حركة التجارة وفقدان الثقة وعجز الاهلين عن سداد الضرائب وعجز الحكومة عن الوفاء بتعهداتها المالية حيال الدائنين الاجانب ، ثم تعريض حياة الأوربيين للخطر .

ويؤخذ من بيان اللورد دفرين أن انجلترا كانت تقصد من الاشتراك فى المؤتمر اعلان أن الحالة فى مصر تستدعى التدخل فى شئونها ، وأن هذا التدخل يجب أن يكون حربيا لقمع الثورة واعادة سلطة الخديو ، وكانت ترمى الى أن يكون هذا التدخل انجليزيا ، ولكنها تظاهرت على لسان اللورد دفرين بأنها تبغى أن يكون تركيا ، وهى عالمة بأن الحكومة التركية طفت من الضعف والتردد بحيث لا تقدم على هذه المهمة ، ولو أنها تدخلت بجيشها لكان من المحتمل أن يكون ذلك انقاذا للموقف وتفاديا من الاحتلال ، لأن الدول الأوروبية ما كانت لتقبل بقاء جيش عثمانى فى مصر الى ما شاء الله ، وفى الحق أن الحالة لم تكن تستدعى ارسال جيش عثمانى أو غير عثمانى ، فان وزارة راغب باشا كانت تستطيع اعادة الأمن والنظام الى نصابه لو لم تبادرها السياسة الانجليزية بالعقبات والعراقيل .

كانت انجلترا واثقة من جمود السياسة التركية وضعفها ، مطمئنة الى انقسام الدول الأوروبية فى الرأى وعدم اتخاذها قرارا معينا فى المسألة المصرية ، فانتهزت هذه الفرصة واخذت قبل انعقاد المؤتمر وخلال انعقاده تعد معدات الحرب والقتال لتنتهك باسطولها وجيشها حرمة العهود والمواثيق ، وتحتل مصر تحت سمع المؤتمر وبصره .

وقد بلغت منها نية الخداع جلية فى مفاوضاتها بالمؤتمر ؟ فقد اقترح السفير الايطالى على الأعضاء بجلسة ٢٧ يونيه أن تقرر الدول الامتناع عن التدخل المنفرد فى مصر مادام المؤتمر منعقدا ، ولو كانت انجلترا حسنة النية لوافق مندوبها على هذا القرار ، ولكن الواقع كما أسلفنا أنها كانت تجهز معدات الحرب لاحتلال مصر ، فأخذ اللورد دفرين يلح فى ضرورة وضع تحفظ لهذا القرار حتى قرر المؤتمر اضافته وهو « فيما عدا الاحوال القهرية » ، فنم بذلك على ما كانت تضمره انجلترا من مخادعة المؤتمر ، وما كانت تبيته من نية الشر والعدوان ، ونقض العهد والميثاق ، وقد اطمأنت بعد وضع هذا التحفظ ، وتركت المؤتمر يجتمع ويقرر ما يشاء ، اذ كانت هذه الكلمة كافية لتجعل قراراته عديمة القيمة .

ومن الغريب ان المركيزدى نواى De Noailles سفير فرنسا قد ايد اللورد دفرين Dufferin فى اقتراحه اضافة هذه الحاشية ، فعدل بذلك على مبلغ تخبط السياسة الفرنسية ، وقد اغتبط اللورد دفرين لهذه الاضافة ، وارسل فى اليوم التالى الى اللورد جرانفيل رسالة يقول فيها : « اننا فى الواقع منذ أن تم تعديل اقتراح السفير الايطالى هذا التعديل الهام لم نعد نعتبر للاقتراح قيمة كبيرة » .

قرر المؤتمر فى جلسته الثالثة وجوب التدخل فى مصر لاخماد الثورة ، وأن يعهد الى تركيا بهذه المهمة بان ترسل الى مصر قوة كافية من الجند لاعادة الأمن والنظام اليها ! واخذ يتداول فى الجلسات التالية فى شروط هذا التدخل وحدوده ، واستفادت انجلترا من هذا البطء لاتمام تدابيرها وانفاذ خطتها فى تدخلها المنفرد ، ووضع المؤتمر فى جلسته السابعة — يوم ٦ يوليه سنة ١٨٨٢ — قواعد هذا التدخل وهى : أن يحترم الجيش الذى ترسله تركيا مركز مصر وامتيازاتها التى نالتها

بموجب الفرمانات والمعاهدات ، وان يخمد الثورة العسكرية ويعيد الى الخديو سلطته ، ثم يشرع في اصلاح النظم العسكرية في مصر ، وان تكون مدة اقامته في مصر ثلاثة اشهر الا اذا طلب الخديو مدها الى المدة التي تتفق عليها الحكومة المصرية مع تركيا والدول الاوروبية العظمى ، ويعين قواد هذا الجيش بالاتفاق مع الخديو ، وتكون نفقاته على حساب مصر ويعين مقدارها بالاتفاق مع مصر وتركيا والدول الست العظمى الاوروبية .

وقد صدر هذا القرار على أن يعرض على الحكومة التركية والحكومات الاوروبية الست التي لها ممثلون في المؤتمر ؛ وارسل نص القرار الى هذه الدول فاقرته ، ووافقت على تقديمه الى الحكومة التركية ، فارسل اليها ولكنها لم تقره ؛ ووقفت موقف الاحجام والتردد ، شأن السياسة التركية في ذلك العهد ، واعتمدت في رفضها التدخل على تقارير درويش باشا الذي يقول فيها انه ليس في مصر ما يوجب تدخلها ؛ وقد وافقت انجلترا على دعوة تركيا الى التدخل في هذا الوقت الذي كانت تعد فيه معدات القتال لتتدخل هي بمفردها ، ذلك لأنها كانت مطمئنة الى بطء السياسة التركية وترددها ، وانها تستطيع خلق (الحالة القهرية) التي نوه اليها اللورد دفرين ، فتتذرع بها الى التدخل الحربي من جانبها ، ضاربة صفحا عن قرار المؤتمر ، وقد انفذت خطتها ؛ اذ ضرب الاسطول الانجليزي مدينة الاسكندرية يوم ١١ يوليه قبل أن تتقدم الدول الى تركيا بقرار المؤتمر ، وقبل ان يتبين موقف تركيا حيال هذا القرار .

أما التدخل في ذاته فلم يكن ثمة موجب له ؛ لأن الحالة في مصر كانت طبيعية بعد تأليف وزارة راغب باشا ، ومن الوقائع الثابتة أن انجلترا اخذت تجهز معدات القتال قبل

انعقاد المؤتمر » فقد أصدرت وزارة البحرية الانجليزية فى ١٥ يونيه سنة ١٨٨٢ تعليماتها الى بواخر النقل بالاستعداد للسفر الى مصر مقلة كتائب الجنود فى ذلك الحين لارسالها الى الديار المصرية »

وقد كانت آخر جلسة عقدها المؤتمر قبل ضرب الاسكندرية ـ وهى الجلسة السابعة ـ يوم ٦ يوليه سنة ١٨٨٢ ، فلما وقع الضرب ظهر أن المؤتمر لم يكن الا مهزلة اتخذتها انجلترا وسيلة لشغل الناس عما تضمره من نياتها العدائية ، واجتمع المؤتمر مع ذلك بعد الضرب يوم ١٥ يوليه ، واخذ يستأنف النظر فى تدخل تركيا الحربى !

الفصـــل التاســع

ضرب الاسكندرية بقنابل الأسطول الانجليزى

١١ يوليه سنة ١٨٨٢

كانت انجلترا تستعد للحرب قبل انعقاد مؤتمر الاستانة وخلال اجتماعه ، وقبل ان يقر قراره بدعوة تركيا الى ارسال جيش لها الى مصر ، واخذت تدبر الاسباب والذرائع للتعجيل بضرب الاسكندرية ، لكى تضع المؤتمر أمام الأمر الواقع .

فاوعزت الى الاميرال سيمور قائد الاسطول البريطانى ان يخلق اية وسيلة للتحرش بمصر لاثارة الحرب عليها ، اى أنها أخذت تخلق « الحالة القهرية » التى أشـار اليهـا اللورد دفرين Dufferin فى مؤتمر الاسـتانة واشـترطه اضافتها الى قرار الامتناع عن التدخل المنفرد فى مصر ، فاخذ الاميرال يتأهب للعدوان ، وكان يستعين بـراى الجاليـة البريطانية فى خلق اسبابه ، ووجد على الأخص من السـير اكلن كولفن الرقيب المالى الانجليزى عونا كبيرا له فى ذلك ، اذ كان من اشد غلاة الاستعمار ومن الداعين الى احتلال مصر ، وكان بعد رحيل السير ادوار مالت المثل الفعلى لبريطانيا فى مصر ، فلا غرو ان كان على اتصال دائم بالاسطول .

ولم يكن اسهل على القوة الغشوم من ان تخترع الوسيلة لاثارة القتال ، فقد أرسل الأميرال سيمور فى أول يوليه سنة

١٨٨٢ الى مجلس الأميرالية الامبراطورية ينبئها انه اكتشف بعض ترميمات تقوم بها المصريون فى حصون الاسكندرية ، وانهم يركبون بطاريات جديدة تجاه بوارجه ، وان الاستعدادات الحربية قائمة فى البلاد ، وان عرابى معتزم سد بوغاز الاسكندرية لحصر البوارج الانجليزية التى كانت راسية فى الميناء .

وبديهى أن هذا الاكتشاف انما كان وسيلة مختلقة لتسويغ الشر والاعتداء ، فان اية ترميمات تجرى ـ الحصون لا يمكن أن تكون وسيلة مشروعة لاثارة الحرب والقتال ، اذ كل دولة حرة فى أن تقوى معدات الدفاع فى بلادها ، بل واجب عليها ان تفعل ذلك فى كل وقت ، وخاصة فى مثل تلك الظروف العصيبة التى كانت تجتازها مصر ، فان مجرد حضور الاسطول البريطانى فيه معنى التهديد بالتدخل المسلح ، على أنه لم يكن ثمة ترميمات جدية تخيف الاسطول الانجليزى وتشغل باله .

وقد أجابت الاميرالية الانجليزية فى ٣ يولية على برقية الاميرال سيمور بان يمنع كل محاولة لسد بوغاز الاسكندرية ، ورخصت له بان يطلب وقف الاعمال الجارية فى الحصون ، وفى حالة الرفض فليدمرها بمدافعه .

سبق الإصرار

وتدل الدلائل والبينات على ان الحكومة البريطانية كانت مبيتة نيتها على ضرب الاسكندرية واحتلال البلاد مهما كانت الاسباب والملابسات ، وذلك قبل اختلاق حكاية ترميم الحصون وأنا ذاكرون هذه الشواهد فيما يلى :

اولا ـ فى ٢٣ يونية سنة ١٨٨٢ عرض سفير انجلترا فى باريس على الحكومة الفرنسية الاشتراك فى اتخاذ وسائل حاجلة بقصد حماية قناة السويس ، فأجابه المسيو دى فريسينيه رئيس وزارة فرنسا ان لا خطر يتهدد القناة وان شركة القناة ذاتها لا تخشى من شيء سوى تلك الحماية التى يراد فرضها عليها ، لان احتلال القناة قد يؤدى الى قطع ترعة الاسماعيلية واستهداف القناة البحرية ذاتها لاعمال عدائية ، وختم دى فريسينيه جوابه بأن احتلالها عمل لا مسوغ له .

ثانيا ـ يقول المستر بلنت Blunt صديق مصر والمصريين ان وزارتى الحربية والبحرية فى انجلترا عقدتا النية منذ اوائل سنة ١٨٨٢ على مهاجمة مصر من ناحية قناة السويس ، وشاهد بنفسه الاستعدادات الحربية فى انجلترا فى شهر يونية سنة ١٨٨٢ ، وكان يعتقد ان الغرض منها تقوية مركز انجلترا فى مؤتمر الاستانة ، ولكن تبين له فيما بعد أن الغرض منها مهاجمة مصر .

ثالثا ـ موقف انجلترا فى مؤتمر الاستانة واصرار اللورد دفرين على وجوب التدخل الحربى فى شئون مصر لقمع الثورة ، واضافته كلمة (الحالة القهرية) الى قرار الامتناع عن التدخل المنفرد كما اسلفنا بيانه ، كل ذلك يدل على ماكانت تضمره من التدخل بمفردها .

رابعا ـ منذ أن جاء الاسطول البريطانى فى مايو منع تجار الاطعمة على توريد المؤونة اللازمة للاسطول لمدة ثلاثة أشهر ، وليس هذا عمل أسطول جاء لوقت محدود بقصد حماية ارواح الاجانب كما قال الانجليز عند حضوره .

خامسا ـ ارسل المسيو سنكفكس قنصل فرنسا العام الى المسيو دى فريسينيه رئيس وزراء فرنسا برقية من الاسكندرية فى ٢٨ يونية سنة ١٨٨٢ يقول فيها « ان هجرة

الاوروبيين مستمرة والشعور العام هنا أن التدخل الانجليزى أصبح وشيك الوقوع ولم يبق فى القنصلية الانجليزية إلا كاتبان يسجلان أسماء الانجليز الذين يرغبون البقاء فى مصر » .

سادسا - أرسل المسيو دى فورج De. Vorges قنصل فرنسا العام الى المسيو دى فريسينيه برقية من الاسكندرية يوم ٤ يوليه يقول فيها : « كل الدلائل تدل على أنه سيقع عمل حربى عاجل من الانجليز سواء باشتراكنا أو بدونه » .

سابعا - اعترف الاميرال سيمور فى يوم ٦ يوليه سنة ١٨٨٢ بأن أعمال الترميم التى زعم أنها كانت جارية بها لغاية ٥ يوليه أوقفت ، ومع ذلك أصر على الضرب .

ثامنا - تدبير مذبحة الاسكندرية من الأدلة على تبييت انجلترا النية على الاحتلال .

تاسعا - عهدت وزارة الحربية البريطانية الى المستشرق الأستاذ بالمر Palmer بالمجيء الى مصر وارتياد صحراء سيناء لرشوة القبائل البدوية بين قناة السويس وغزة قبل نشوب الحرب ، وقد حضر ، وقابله المسيو جون نينيه عميد الجالية السويسرية فى مصر فى الاسكندرية عرضا فقال له الأستاذ بالمر :

« انصحك بمغادرة القطر المصرى لأن الاسكندرية ستضرب بالقنابل عما قريب وستكون عرضة لأن يقتلك الاهلون »

وقد قام الأستاذ بالمر بمهمته ، ولكن قتله البدو هو وصحبه ، وحوكم قتلتهم عقب الاحتلال فحكم عليهم بالاعدام !

كل هذه الشواهد والنيات تدل على سبق اصرار انجلترا على ضرب الاسكندرية واحتلالها مهما كانت الأحوال ، أو اختلفت الأسباب .

التحفز للضرب

في ٥ يوليه ارسل الاميرال سيمور الى طلبة عصمت قومندان موقع الاسكندرية بلاغا اول بالكف عن اعمال التحصين الجارية في الحصون ، فأجابه طلبة في اليوم ذاته بأنه لم يوضع أى مدفع جديد في الحصون ولم يجر فيها اى عمل جديد ، وقد ذاع بلاغ الأميرال سيمور في المدينة وتناقله الناس ، فأيقن العارفون بحقائق الأمور أنه نذير الشر ، وان الحرب واقعة لا محالة ، واوعز قنصلا انجلترا وفرنسا الى رعاياهما الباقين بالمدينة بالمبادرة الى الرحيل عنها ، فتسابقوا الى الهجرة والنزول الى السفن التي بالميناء ، وبلغ عدد المهاجرين الأوروبيين منذ حوادث يونيه الى ما قبل الضرب نحو ٩٩ في المائة من عددهم الأصلي ، وهاجر كثير من سراة المدينة الى داخل البلاد ، على أن معظم الأهلين بقوا بها .

لم يقتنع الأميرال سيمور بجواب طلبة باشا ، وهيهات ان يقتنع ، لأنه انما يبغى من جوابه أن يختلق سببا مكذوبا ليتذرع به الى الضرب .

واممانا في التحرش بعث الأميرال الى طلبة باشا عصمت بلاغا آخر يمهد به الى الانذار النهائي . هذه ترجمته :

« البارجة انفسيبل في ٦ يوليه سنة ١٨٨٢ » .

« صاحب السعادة ... أتشرف باخباركم أنى علمت من طريق رسمي أنه قد صار بالبارحة تركيب مدفعين جديدين او اكثر في خطوط الدفاع القائمة على البحر ، ولن بعض استعدادات حربية قد عملت في واجهة الاسكندرية الشمالية تحديا للاسطول الذي تحت قيادتي ، فيجب على والحالة هذه ان أنبه عليكم بوقف هذه الأعمال ، فان لم تقف وتجددت يكون واجبا على تدمير المعدات الجاري العمل فيها » .

ترد عليه طلبة عصمت بالجواب الآتى :

« عزيزى الاميرال الانجليزى

« اتشرف بان انبئكم بوصول خطابكم المؤرخ ٦ يوليه الذى تخبروننى فيه انه اتصل بكم تركيب مدفعين وأن أعمالا أخرى جارية على شاطىء البحر ، فردا على ذلك أود أن أؤكد لكم ان الاخبار المذكورة لا حقيقة لها ، وان هذه الاخبار مثل خبر التهديد بسد مدخل البوغاز الذى اتصل بكم وتحققتم كذبه .

« هذا واني لمعتمد على عواطفكم المتشبعة بروح الانسانية ، وارجو قبول احتراماتي » .

ولم يكتف الاميرال سيمور بطلب منع التحصينات ، بل طلب ان تسلم له الحصون التى يزعم انها تهدد الاسطول !

الانذار النهائى

وفى صبيحة ١٠ يوليه أرسل الى طلبة عصمت انذارا نهائيا يطلب فيه تسليم البطاريات المنصوبة فى الحصون القائمة بشبه جزيرة رأس التين وعلى ساحل ميناء الاسكندرية الجنوبى ، والا ضرب الحصون فى صبيحة الغد — ١١ يوليه — ومعنى ذلك تسليم الحصون ذاتها .

وهذا نص الانذار النهائى :

« أتشرف باخبار سعادتكم انه نظرا لأن الاستعدادات العدائية الموجهة ضد الاسطول الذى اتولى قيادته آخذة فى الازدياد طول يوم أمس فى طوابى صالح وقايتباى والسلسلة فقد عقدت العزم على أن انفذ غدا — ١١ الجارى — عند شروق

الشمس العمل الذي أعربت لكم عنه في خطابي المؤرخ يوم ١٠ الجاري ان لم تسلموا الى حالا قبل هذه الساعة البطاريات المنصوبة في شبه جزيرة رأس التين وعلى شاطيء ميناء الاسكندرية الجنوبي لتجريدها من السلاح » .

وعقد الخديو بسراي رأس التين مجلسا عاما دعا اليه الوزراء وكبار رجال الدولة ليستشيرهم في الموقف وفيما يجب أن يكون عليه جواب الحكومة على الانذار النهائي ؟ فاستقر رأي المجلس على رفض مطالب الاميرال .

وفي المساء حرر الوزراء الرد على الانذار النهائي طبقا لقرار المجلس وهذا نصه :

« لم تعمل مصر شيئا يقضي بارسال هذه الأساطيل المتجمعة، ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية اى عمل يسوغ مطالب الأميرال الا بعض اصلاحات اضطرارية في ابنية قديمة ، والطوابي الآن على الحالة التي كانت عليها عند وصول الأساطيل ، ونحن هنا في وطننا وبيتنا ، فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع اسباب الصلات السلمية التي تقول الحكومة الانجليزية أنها باقية بيننا ، ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لا تستطيع أن تسلم اى مدفع ولا اى طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح ، فهي لذلك تحتج على بلاغكم الذي وجهتموه اليوم وتوقع مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التي تنجم .اما عن هجوم الأساطيل اوعن اطلاق المدافع ، على الأمة التي تقبلت في وسط السلام القنبلة الاولى على الاسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لأحكام وحقوق الانسان ولقوانين الحرب » .

يتضح من البيانات والمراسلات المتقدمة ان الانجليز كانوا مصممين على احتلال الاسكندرية سواء ضربوها أو لم

يضربوها ، وسواء قبلت طلباتهم فى الانذار النهائى أو لم تقبل ، ولم تكن الوسائل السلمية كافية مجدية فى منعهم من تنفيذ ماعزموا عليه ، فالمجلس العام الذى اجتمع برئاسة الخديو وقرر رفض الانذار كان على حق فى قراره ، ولو انه قرر التسليم بمطالب الاميرال سيمور لما كان تسليمه ليحول بين الانجليز واحتلالهم المدينة ، وكل ما كان يؤدى اليه التسليم أن يقع الاحتلال دون مقاومة من جانب مصر ، ولم يكن هذا موقفا مشرفا ، فليس الخطأ فى رفض مطالب الاميرال ، بل الخطأ فى الانقسام الذى كان واقعا بين الخديو والعرابيين ، وكان عليهم ان يتلافوا ذلك الانقسام الذى أضعف الجبهة المصرية فى ساعة الخطر ، ولكن كلا الفريقين لم يبذل سعيا جديا فى تلافيه ، وكلاهما مخطىء من هذه الناحية .

الموازنة بين القوتين المتحاربتين : الحصون والأسطول

يجمل بنا قبل أن نتكلم عن وقائع الضرب أن نقابل بين القوتين المتحاربتين ، لأن من هذا البيان يتضح من كان مقدرا له الفوز والنصر .

كان بالأسكندرية فى ذلك الحين عدة حصون تسمى « طوابى » جمع طابية ، وهذا الاسم متداول حتى اليوم بين سكان الثغر ، ولايزال بعض هذه الحصون (الطوابى) قائما حتى اليوم تبدو عليه آثار الخراب وبعضها لم يبق له وجود .

وهذه الحصون كانت تمتد على شاطىء البحر ، من ناحية العجمى غربا الى ابو قير شرقا ، فاولها من الغرب طابية « العجمى » وهى قائمة فى جزيرة العجمى التى يسميها الافرنج جزيرة المرابط — أو مارابوت كما يكتبونها — ولذلك يسمونها قلعة المرابط ، واسمها الصحيح قلعة أو طابية

العجمى » وتسمى أيضا طابية العجمى البحرية تمييزا لها عن طابية العجمى القبلية التى سيرد الكلام عنها .

وكانت طابية العجمى البحرية من أمنع حصون الاسكندرية ، ويوجد تجاهها على اليابسة طابية أخرى تسمى طابية العجمى القبلية ، وتعرف أيضا بطابية « المنانة » ، وهذه التسمية معروفة بين أهل هذه الجهة وواردة كذلك فى خريطة مصلحة المساحة ، ولم تكن لها أهمية حربية ، بل لم تشترك فى الضرب اذ لم يكن تم انشاؤها ، ويلى هذه الطابية شرقا طابية « الدخيلة » ، ثم قلعة « المكس » وكانت من أمنع القلاع ، ومهمتها الدفاع عن مدخل الميناء « البوغاز » .

ويلى قلعة « المكس » على طول الشاطىء الجنوبى للميناء عدة حصون واستحكامات ، وهى البرج نمرة ١٥ ، فطابية « القمرية » ، فطابية « أم قبيبة » ، ثم برج مستدير فيه مدفعان ، ثم طابية « صالح » .

وعند « باب العرب » طابية تسمى طابية باب العرب تعادل طابية المكس فى تسليحها ، وتقفل لسان الأرض الواقع بين البحر وبحيرة مريوط ، وهى واقعة الى ماوراء القطع القديم الذى خرقه الانجليز عام ١٨٠١ قبل خروجهم من مصر ليدخلوا به مياه البحر الى بحيرة مريوط ، فاغرقت يومئذ القرى كثيرة وتحولت به صحراء واسعة يابسة الى مستنقع ردىء .

وفى شبه جزيرة رأس التين عدة حصون تحمى الميناء من الجهة الشمالية ، وهى طابية « الفنار » التى تحيط بفنار الاسكندرية وتشرف على الميناء ، فطابية «رأس التين» الواقعة شمالى سراى رأس التين ، فطابية الاسبتالية .

ويلي هذه الحصون شرقا طابية « الأطة » ، وهي كلمة تركية بنطق اضه وتعني الجزيرة ، وتسمى في الاسكندريه طابيـــة القضا ـ الواقعة شرقي حمام الانفوشي ـ ثم طابية « الهلالية » ثم طابية « قايتباي » التي يسميها الاوروبيون حصن « فاروس » ومهمتها حماية المدينة من الجهة الشمالية الشرقية ، وحماية الميناء الشرقي ، يقابلها من الطرف الشرقي لهذه الميناء طابية « السلسلة » .

ويلي طابية « السلسلة » شرقا قلاع ابو قير ، وهذه لم تشترك في القتال لبعدها عن ميدانه ، وبداخل المدينة طابية « كوم الناضورة » وطابية « كوم الدكة » وتعرف أيضا بكوم الدماس .

وكان يحيط بالمدينة من جهة اليابسة سور قديم يسمى السور العربي الذى كان باقيا منه الى عهد قريب بعض آثاره بجهة باب رشيد « باب شرقي » ، وهو سور حصين به أبراج للمدافع .

وهذه الحصون منشأة من عهد محمد على ما عـــدا كوم الناضورة وكوم الدكة فانهما منشآن من عهد الحملة الفرنسية ، وقلعة « قايتباي » المنشأة في القرن الخامس عشر ، وكانت الحصون سنة ١٨٨٢ بحالتها التي كانت عليها في عهد محمد على وابراهيم وعباس ، وقد أجرى فيهـــا اسماعيل بعض الترميم وجلب لبعضها المدافع الضخمة من طراز ارمسترنج ، وهي التي كانت تضاهي مدافع الاسطول البريطاني ، وكان عددها ٤٩ مدفعا ، اما المدافع الاخرى فلم يكن يعتمد عليها في الضرب لقدمها وضعفها وقـــرب مرماها ، ولم تكن لها اية قيمة حربيـــة في سنة ١٨٨٢ ، وهي معظم مدافع الحصون اذ كان عـــــددها ٢٢٩ مدفعا ومدافع الاهوان وعددها أربعون .

وكانت حامية الحصون مؤلفة من آلاى طوبجية السواحل ومجموع قوته الرسمية ١٧٦٢ مقاتلا بين جنود وضباط وصف ضباط بقيادة الاميرالاى اسماعيل بك صبرى ، ولكن عددهم الحقيقى كان دون ذلك ، ويقول عرابى فى مذكراته انه لم يزد على سبعمائة يوم الضرب .

ويقول المسيو جون نينيه الذى شهد ضرب الاسكندرية ان نصف رماة القنابل « الطوبجية » كانوا متغيبين فى قراهم بحجة الاقتصاد والتوفير ، وهذا يفسر نقصان عددهم يوم الضرب ، وقال ان الاميرال سيمور كان موقنا قبل الضرب انه لن يلقى فى ميدان القتال سوى هيكل محارب قديم كان شاكى السلاح بالامس ثم صار شبحا لا حراك فيه .

وقال فى موضع آخر يصف اهمال حالة الحصون : « ان معظم المدافع القصيرة المرمى لم تتحرك من موضعها منذ نحو ثمان وثلاثين سنة حين ركبها لاول مرة جاليس بك Galice bey مفتش الاستحكامات فى عهد محمد على .

اما المائة مدفع وواحد من مدافع ارمسترنج من عيار تسع الى عشر بوصات ، فكان منها ٦٤ فقط مركبة فى مواضعها والسبعة والثلاثون الاخرى كانت ملقاة خارج مواضعها ، واما ذخائرها فانها لم تنقل من مخازنها بالترسانة » .

يتخلص مما تقدم بيانه ان الدفاع عن المدينة كان ضعيفا متخاذلا ، وان القوة التى واجهت الضرب لم تتجاوز ٧٠٠ مقاتل ، اما حامية المدينة فلم تشترك فى القتال ، وكانت مؤلفة من اربعة الايات ، اثنان منها كانا مرابطين اصلا فى المدينة ، وهما الالاى الخامس من المشاة بقيادة الميرالاى مصطفى بك عبد الرحيم براس التين ، والالاى السادس بقيادة الميرالاى سليمان بك سامى داود .

ويتالف من هذين الالايين اللواء الثالث بقيادة خورشد بك ظاهر ، والجميع بقيـــادة الفريق اسماعيل باشا كامل ، وقد زيد عليهما الايان بعد مذبحة الاسكندرية ، وهما الالاى الثانى بقيادة خليل بك كامل ، والرابع بقيادة عيد بك محمد ، ويتالف من هذين الالايين اللواء الثـانى بقيـادة طلبه باشا عصمـــت الذى جعـله عرابى قائدا لموقـــع الاسكندرية وحاميتها .

ويقول عرابى ان كل آلاى من المشاة كان مؤلفا من ٣٠٠٠ مقاتل ، فيكون مجمـــوع الجنـــد يوم ضرب الاسكندرية ١٢٠٠٠ من البيادة « المشاة » و ٧٠٠ من الطوبجية .

الاسطول البريطاني

اما الاسطول البريطانى فكان مؤلفا من ثمانى مدرعات كبيرة ، وخمس سفن مدفعية وسفينة للطوربيد ، واخـرى كشافة .

ومعظم مدافع هذا الاسطول من طراز ارمستـــرنج وعددها ٧٧ مدفعا ، والاسطول من هذه الناحية كان اقوى سلاحا من الحصون ، وكان يفوقها فى سرعة تحـــركه وابتعاده عن الهدف ، على حين ان الحصون كانت مستقرة سهل على الاسطول رميها بمدافعه فيصيبهـــا ، وكانت لخطته فى الضرب ان تجتمع عدة بوارج فتصوب نيرانهـا نحو حصن واحد ، فتدمره أو تسكته ، ثم تتحـــول الى الحصن الذى يليه ، وهـكذا تستطيع ان تدمر الحصـــون حصنا بعد حصن ، بينما الحصون لا تستطيع ان تنجـد بعضها بعضا ، فهذه الخطة وحدها تنبىء مبدئيا بمصير

الضرب وتدلّ على ان كفة الاسطول البريطانى كانت ارجح بكثير من كفة الحصون المصرية .

أصدر الاميرال سيمور يوم ١٠ يوليو سنة ١٨٨٢ تعليمات الى بوارجه لكى تأخذ مواقفها يوم الضرب على الترتيب الذى وضعه .

واتخذت البوارج موقفها على هذا النحو ليلة الضرب، أما عن الاستعداد للضرب من ناحية الحصون ، فقد استدعى عرابى فى تلك الليلة الاميرالاى اسماعيل صبرى قومندان حصون الاسكندرية ، وكان عرابى وقتئذ « بالترسانة » يصحبه محمود باشا فهمى وطلبة باشا عصمت ومحمد باشا كامل وكيل نظارة البحرية ، وأصدر اليه تعليماته ، فانصرف اسماعيل بك صبرى والتقى بضباط الحصون ووزع كلا منهم فى مركز عمله .

واصدر أيضا تعليماته بتوزيع جنود الحامية على خطوط الاستحكامات من برج السلسلة شرقا الى قلعة العجمى غربا .

وفى ليلة ١١ يوليه كانت البوارج الانجليزية على أهبة القتال أما الاسطول الفرنسى فقد انسحب الى بورسعيد تنفيذا لتعليمات حكومته ، ولم يترك سوى سفينتين لم تعملا عملا ما ، وهكذا ترك الفرنسيون الانجليز وحدهم ينفردون بالضرب والقتال ، ولو اشتركوا معهم لتغير وجه المسالة المصرية ولما استطاع الاحتلال الانجليزى أن يثبت اقدامه فى البلاد .»

مأساة الضرب

في الساعة السابعة من صبيحة يوم الثلاثاء ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ اعطى الاميرال سيمور اشارة الضرب فاطلقت البارجة « الكسندرا » أول قنبلة على طابية الاسبتالية ، وتلتها البوارج الاخرى ، فاخذت تطلق قنابلها المدمرة على حصون المدينة وعلى المدينة ذاتها ، اما القلاع فلم تجب على الضرب الا بعد الطلقة الثالثة بعد خمس دقائق من ابتداء الضرب ،كان الضرب من جانب الاسطول الانجليزى شديدا مروعا ، فكانت قنابله محكمة المرمى شديدة الفتك ، اما مدافع القلاع فكانت ضعيفة متراخية وسقط كثير منها فى البحر دون أن يصل الى البوارج الانجليزية .

وكانت البوارج اثناء الضرب تتحرك فى سيرها ، يحجبها عن الاعين دخان كثيف فلا يستطيع الرماة المصريون احكام المرمى واصابة الهدف منها ، وكل بارجة تحيط بها شبكة من الفولاذ اذا أصابتها قنبلة من قنابل الحصون صدت قوتها بحيث تضعف اذا نفذت الى البارجة ذاتها ، وقد ساعد على احكام المرمى من جانب الاسطول أن الاستعداد الحربى من ناحية الانجليز اقوى واعظم منه من جانب القلاع المصرية ، اذ كانوا مطلعين على دقائق الاستحكامات ومبلغ ما بها من المدافع والميرة والذخيرة ومخازن القنابل فيها ، بخلاف العرابيين فان معلوماتهم عن قوات الانجليز كانت مشوشة ضئيلة ، وكانوا يظنون أن البوارج الانجليزية لا تقوى على هدم القلاع ولا تقف امام مرمى قنابلها ، وقد اتضح عكس ما يظنون ، فان البوارج قد دكت الحصون وعطلت مدافعها ، فى حين أن الاسطول الانجليزى لم يصب بضرر يذكر .

استمر الضرب من الساعة السابعة الى الساعة الحادية عشرة على اقصى ما يكون من الهول والشدة ، وقنابل الاسطول تقذف الخراب وتحصد الارواح ، ثم سكتت قليلا ، واستؤنف الضرب بعد هنيهة حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، ثم توقف هنيهة أخرى ، ثم استؤنف بعد ذلك الى منتصف الساعة السادسة مساء قبل الغروب بساعة .

وقد تهدمت حصون الفنار ورأس التين والاسبتالية في منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر ، حيث اجتمعت عليها المدرعات الكسندرا Alexandra وسلطان وسوبرب Supero ، ولما اسكتتها صوبت قنابلها الى قلعة « الاطة » وعاونتها في ضربها المدرعتان انفلكسيبل وتمرير ، فقذفت المدرعات الخمس نيرانها على تلك القلعة فدمرتها بعد ان نسفت مستودع البارود فيها ، ثم تحولت الى قلعة « قايتباى » وظلت تقذفها بقنابلها الى الساعة الخامسة مساء فخربتها .

وفي المنطقة الجنوبية من الساحل ضربت المدرعات انفنسبل Invincible وبنلوب Panelope ومونارك وانفلكسيبل وتمرير Inflexible, Temer ere حصون المكس وام قبيبة والدخيلة فاسكتتها في منتصف الساعة الثانية عشرة واتجهت السفينة كوندور Condor الى قلعة العجمي فضربتها بالقنابل حتى اسكتتها .

وفي نحو الساعة الاولى بعد الظهر شاهد الاميرال سيمور ان هذه الحصون قد اخلاها الجنود فارسل عشرين بحارا الى البر دخلوا قلعة « المكس » واتلفوا مدافعها ثم عادوا الى سفنهم آمنين .

وفي منتصف الساعة الرابعة شوهدت مدافع طابية « القمرية » تتاهب للضرب ، وعاد الجنود الى قلعة « المكس »

لصوبت البارجتان « بنلوب » و « موناركه » مدافعهما الى الحصن المذكور واخذتا فى ضربه حتى منتصف الســـاعة الســادسة مساء حيث امر الاميرال سيمور بالكف عن القتال، توقف الضرب بعد ان استمر عشر ساعات متوالية .

وقد دافعت الحاميات عن الحصون دفاع المستميت ، وقام رجالها بواجبهم قدر ما استطاعوا ، ولكن قوة الاسطول ومدافعه كانت لها الغلبة فى هذا اليوم المشئوم ، فتهدم معظم الحصون ، واصابت قنابل الاسطول كثيرا من مساكن الاهلين فدمرتها وأحرقتها ، كما أحرقت جناح الحـــرم بسراى راس التين .

وتفانى الاهلون فى الدفاع عن المدينة ، على الرغم من أن الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج ، فتدلوا كل مافى استطاعتهم من تضحية واقدام .

وقتل من المصريين خلال هذه الفظائع نحو الفين ، ولم تزد خسائر الانجليز على خمسة من القتلى وتسعة عشر جريحا .

وصف الحرب ، كما رواه شاهد عيان

شهد المسيو جون نينيه John Ninet عميد الجالية السويسرية فى مصر سنة ١٨٨٢ حرب الاسكندرية ووصف هذه المأساة فى كتابه (عرابى باشا) قال :

« اجابت بطاريات الحصون على ضرب الاسطول بعـــد الطلقة الخامسة ، وكان رماة المدافع يطلقون قنابلها بحماسة واحكام ادهشا خصومهم الذين استمر عملهم الجهنمى عشر ساعات ونصفا متوالية دون أن يســتطيعوا المباهاة بنصر حاسم ، وقد غطيت المدينة اثناء الضرب بطبقات كثيفة من

الدخان والغبار ، وكان قصف المدافع يصم الاذان ، وحينما كانت الريح تبدد سحب الدخان والغبار كنا نشاهد كرات المدافع المصرية تسقط في البحر في منتصف المسافة بينها وبين بوارج الاسطول ، ومع ان مدافع ارمسترنج المصرية كانت اقل عيارا من المدافع الانجليزية ، فان رماتها قد ادوا واجبهم على اكمل وجه بحيث ان سبع مدرعات انجليزية أصيبت بعطوب بعضها جسيم وبعضها خفيف ، وكانت بوارج الاسطول تمرح في رميها ومدافعها تطلق قنابلها على مرمى بعيد وتصيب بطاريات الشواطىء ولا تستهدف هي للخطر ، وكل قنبلة منها يبلغ طولها مترا و ٣٠ سنتي وزنتها ٤٨٠ رطلا وحشوها ٢٧٠ رطلا من البارود ، وثمن الواحدة سبعون جنيها ، وقد سقطت اولى هذه القنابل الهائلة في طابية رأس التين دون ان تنفجر ، فاستوقف مشهدها نظر الجنود والضباط ، وقال ملازم ثان وهو يشاهدها : « أيها الاخوان تعالوا وانظروا مثلا من انسانية الانجليز » ، قالها بلهجة تشف عن الذكاء الساخر ، فضحك السامعون جميعا وواجهوا الضرب وهي باسمون .

« وكانت مهمة أسطول السير بوشان سيمور سهلة إذ لم تستهدف بوارجه لخطر حقيقي كما تدل على ذلك قلة عدد القتلى والجرحى ، وكانت البوارج تتقدم نحو الضرب ، مثنى مثنى ، في بطء وروعة ، ثم تصطف في عوادة تجاه كل طابية وتصب عليها قنابلها حتى تدكها دكا ، وعندئذ تقترب منها تدريجيا وتنسف البطاريات والمدافع التي تكون قد انقلبت عن موضعها تحت تأثير قنابل الاسطول ، ثم تنثني على الرماة فتحصدهم حصدا بقنابل التراليوزات المركبة على ساريات البوارج ، يجب أن نعترف بأن هذه

متحيزة همجية لا ضرورة لها ولم يكن لها اى مسوغ ، وليس الباعث عليها سوى الشهوة الوحشية المتعطشة الى القتل وسفك الدماء ، ولقد كان يودى ان أسائل اولئك الضباط الذين كانوا يباشرون الضرب ويقذفون قنابل المتراليوزات ، هل يستطيعون حينما يعودون الى بلادهم ويجلسون حول موائد الشاى فى بيوتهم ان يتحدثوا الى ذويهم عن آثار الفتك والتدمير التى خلفتها تلك المجازر البشرية ؟ انى اشك فى ذلك ، فليت شعرى اى اهانة لحقت الامة البريطانية حتى تثأر لنفسها بهذه الفظائع ».

« ومع ذلك فما كان أبدع هذا المنظر منظر الرماة المصريين الذين كانوا قائمين على مدافعهم وهى مكشوفة فى العراء وكأنما هم فى استعراض حربى لا يرهبون الموت الذى يكتنفهم اذ لم يكن لهم دوارع واقية ولا متاريس ، وكانت معظم الحصون بلا ساتر ، ومع ذلك فهؤلاء الشجعان من ابناء النيل أكنا نلمحهم وسط الدخان الكثيف كانهم ارواح الابطال الذين سقطوا فى حومة الوغى ثم بعثوا ليكافحوا العدو من جديد ويستهدفوا لنيران مدافعه ، وكان الأئمة يزورون الحصون ويشجعون المقاومة ، وقام الجميع بواجبهم من جند ورجال ونساء وضعفاء وكبار ، ولم يكن ثمة أوسمة ولا مكافآت تستحث اولئك الفلاحين على اداء واجبهم ، بل ان عاطفة الوطنية والثورة على الفظائع التى استهدفوا لها كانت تستثير الحماسة فى صدورهم وهم هم اولئك الشجعان المجهولون الذين لم يفكر احد فى الامهم » .

« وقد بدأت منذ الساعة العاشرة صباحا عملية نقل جثث القتلى ، فظلت عربات النقل حتى الليل تحمل الجثث من الحصون وتخترق المدينة الى شارع محطة الرمل ، حيث

المستشفى العسكري ، وهناك كانت تعاين ثم يؤمر بدفنها في المقابر المجاورة للمستشفى بدون احتفال » .

أما الجرحى فكانوا أيضا ينقلون الى المستشفى على عربات النقل ، وقد كان مؤلما حقا مشهد تلك العربات تقل الواحدة عشرين أو ثلاثين قتيلا من الجنود أو الاهلين مشدودين بالحبال على ألواح من الخشب ممدودة فوق العربات والدماء تقطر من أجسامهم ، ومن بينهم بعض الامهات محتضنات ابنائهن في آخر رمق من الحياة ، وجموع النساء يعدون خلف العربات صائحات نادبات ، لاعنات من كانوا السبب في هذه المجازر ، ولقد كنت واقفا عند منعرج « الاجيسيان بار » ومرت أمامي عربتان تقلان جثث القتلى » وعندما لمحتني النساء هناك صاحوا مولولين واستنزلوا على اللعنات اذ كانوا يلعنون كل انجليزي وكل اوروبي ، ونادوا « تقتلون اخواننا وتأتون للفرجة على جثثهم اقتلوه ، اقتلوه . » وكاد يحاط بي لولا أن رآني أحد رجال الضبط فعرفني وانقذني وعاد بي الى داري ، وقد قل رجال الحفظ ولم اعد أرى اوروبيا واحدا في الشوارع والطرقات ، فهذه الشوارع التي كانت فيما مضى عامرة بالناس زاخرة بالاعمال أصبحت وقد خيم عليها السكون الرهيب كأنما هي شوارع مدينة محقها الوباء .

واقفلت الدكاكين والنوافذ والابواب والبيوت في المدينة كلها ، وخيل الى أنني في بلدة قضى عليها بالخراب النهائي . وكانت قنابل الاسطول الضخمة تنهال على المدينة وتخترق أحياءها في كل جهة وتدور فوق رؤوسنا وهي تدوى دويها المفزع ، فكانت تدمر المنازل في ناحية ، وتشعل النار في ناحية أخرى ، وترسل الموت في كل مكان ، وقد مرت فوقا برأسي خمس قذائف من « رسائل الانسانية الغربية » على

تحت تعبير احد الضباط ، على سطح المنزل الذى كنت أقيم فيه تجاه حمامات (كارتونى) بالقرب من محطة الرمل ، فاصابت احداها مدرسة فدمرتها ، واصابت ثلاث اخرى بعض المنازل من قصور الاغنياء بالقرب من شارع باب شرقى فخربتها ، والخامسة قتلت احد عشر شخصا وجوادين باول شارع محرم بك ، ولم يكن لهذه القذائف القتالة التى اصابت قلب المدينة ما يقابلها من جانب المصريين ، فان عرابى قد ارتأى منعا للدمار ان لا تشترك قلعتا كوم الناضورة وكوم الدكة فى الضرب لوجودهما وسط المدينة .

وقد اصابت ثلاث قنابل أخرى من حجم القنابل السابقة عدة منازل فى الحى المجاور لمسكنى ، واحدثت احداهـــا انشقاقا فى الواجهة الشمالية لوكالة (الدهان) التى كان يجرى بناؤها فى ذلك الحين احدثت هذه القنابل كل هاتيك الاثار رغم انها لم تنفجر ، ولم تكن قذائف الانجليز فى الجمـــلة مصوبة باحكام ، وقد تحققت من ذلك فى احدى اللحظات بل اخلت منظارى بيدى ورأيت بعينى أن عددا غير قليل من هذه القذائف التى كانت تدوى فى الجو لم تصب أى هدف ، وكنت ارى تجاه نوافذ منزلى على بعد ألف وثمانمائة متر على الاكثر طابية قايتباى (قلعة فاروس) قائمة فى اقصى حاجز الامواج الابيض بالميناء الشرقى ، كانت هذه القلعة تبـــدو للناظر رائعة فى بنائها الضخم ، بارزة فى البساط الازرق للبحر المتوسط بشكل يجتذب المشاعر ، قائمة على صخرة تكتنفها امواج البحر ومخاطره ، يزينها مسجد بنى منذ سنة ١٤٥٠ ميلادية . تعلوه منارة جميلة هى تحفة من بدائع الفن العربى مزدانة بالنقوش العربية الجميلة التى يعرفها ويقدرها هواة الفنون ، كانت هذه القلعة هدفا لضرب شديد استمر منذ شروق الشمس . فتهدمت بين الساعة الحادية عشرة

والظهر . ولم تكن مسلحة تسليحا كافيا وكانت مخابىء المدافع بها مبنية بناء رديئا فاضرت بالدفاع عن القلعة » .

« وكم كانت دهشتى حين رأيت فى نحو الساعة الرابعة مساء بارجتين شامختين من البوارج الانجليزية ترابط قربى القلعة وتصب نيرانها من جديد على هذا البناء الذى تخربت معظم مدافعه وانقلبت على الارض . ولكن الانجليز الذين كانوا يعملون على هدم طابية برج السلسلة وقلعـة (كوم الدكة) (١) مع انهما لم يشتركا فى الدفاع ــ قد ارادوا على ما يظهر هدم هذا المسجد الجميل . على أن المصريين لم يسكتوا ازاء هذه الوحشية فاطلقوا بعض القذائف مـــن مدفعين كانا لا يزالان قائمين من الجهة الغربية الشماليـــة من القلعة ولكن قذائفهم لم تجد شيئا اذ انهارت عليهـــم القنابل من البوارج الانجليزية . وقد احصيت بنفسى اثنتين وثلاثين قنبلة من هذه القذائف صوبت الى هذا البناء الجميل الاعزل ولم يصب نصفها الهدف تماما . وكانت غالبيـــة القذائف تصيب الصخور فتنسفها وتذريها فى الهواء ثم تنطلق فى الماء داخل الميناء الشرقى وتخرج ثانية فى دوى هائـــل فتثير فى الهواء عمودا من الماء كأنه اعصار بحـــرى لا يقـــل ارتفاعه عن ٦٠ قدما . فما أشد روعة هذا المنظر . واخيرا فى منتصف الساعة السادسة مساء تهدم هـــذا المســجد الصغير المسكين عن آخره ودفن تحت أنقاضه اثنا عشر جنديا من الجرحى كانوا يأوون اليه » .

« وقد شاهدت بمنظارى المكبر أولئك الجنود التعســاء وهم يأوون الى هذا المسجد ثم ماتوا لعدم امكان نقلهم الى المستشفى العسكرى تجاه برج السلسلة اذ كانت قذائف

المترالبوزات المعدة للاجهاز على الجرحى لا تنفك تنصب كالمطر وتمنع منذ الصباح كل اتصال بين القلعــــة والارض اليابسة عن طريق الرصيف الضيق الذي يصلها بالمدينة .

وبعد الظهر بقليل انفجر مخزن البارود في قلعة الاطه . فسكتت مدافع هذه القلعة التي دافعت دفاعا مجيدا ، وفي نحو الساعة السادسة مساء وقف الضرب من جانب الاسطول، وتبين أن الاميرال سيمور الذي تعهد بأن لا يضرب الا القلاع قد تناسى عهده ونشر الموت والخراب في كل انحاء المدينة ، ورأيت الحرائق شبت في عدة جهات دون ان يستطيع احد اخمادها » .

تطوع الاهلين

تفانى الاهلون في الدفاع عن المدينة ، رغم أن الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج ، فبذلوا كل ما في استطاعتهم من تضحية واقدام ، قال الشيخ محمد عبده في هــذا الصدد : « فكان الرجال والنساء تحت مطر الكلل ونيران المدافع ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض بقايا الطوبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يغنون بلعن الاميرال سيمور ومن أرسله » وقال عرابي في ذلك : « وفي اثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء في خدمة المجاهدين ومساعدتهم في تقديم الذخائر واعطائهم الماء وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم الى المستشفيات » .

وقال محمود باشا فهمي في كتاب البحر الزاخر « ورأيت في ذلك الوقت بعيني ما حصـــــل من غيرة الاهالي بجهة رأس التين وأم قبيبة وطوابي باب العرب وهمتهم في مساعدة عساكر الطوبجيــــة من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم والبعض من الاهلين صار يعمر المدفع ويضربها على الاسطول » .

الانسحاب

وقد استيقن العرابيون يوم ١٢ يوليه ان الانجليز لابــد محتلون الاسكندرية بعد ان دكوا حصونها ، فاستقر عزمهم على الانسحاب من المدينة ليستعدوا للمقاومة في الداخل وكان الاحكم أن يقاوموا نزول الجنود الانجليزية الى البر بأن يوزعوا جزءا من قواتهم للمرابطة على الشواطيء ومنـع رسو القوارب المقلة للجنود الانجليزية ، فانهم بذلك يعطلون نزولها مدة طويلة ، وبخاصة لان الاسطول الانجليزي لم يكن قد تلقى المدد من جنود البر ، وكانت قوته مقصورة الى ذلك الحين على جنود البحارة ، ولم يكن عددهم يزيد على ٥٧٠٠ مقاتل ، وهؤلاء لم يكن في استطاعتهم ان يتغلبوا على حامية الاسكندرية .

حريق الاسكندرية

وكان في مقدور الحامية أن تصدهم عن النزول الى البر وتقاتلهم لو حاولوا النزول ، ولكن العرابيين لم يفعلوا شيئا من ذلك لانهم لم تكن لديهم قيادة صالحـــة تدبر الخطط المحكمة للقتال ، فآثروا الانسحاب من الاسكندرية ، ورأوا أن

يتذرعوا بكل وسيلة لتعطيل احتلال الانجليز للمدينــــة واستقرارهم فيها ، فأمر سليمان سامي داود قائد الالاى السادس جنوده باضرام النار فى المدينة لكى يحول الحريق دون نزول الانجليز بها واتخاذها قاعدة حربية لزحفهم، فشبت الحرائق الهائلة يوم الاربعاء ١٢ يوليه سنة ١٨٨٢ ، وبدأ اضرام النار فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، واخـــذ يمتد حتى صارت الاسكندرية شعلة من النار مساء ذلك اليوم ، واستمرت النار تضطرم فيها الى اليوم التالى .

كان هذا الحريق من الوجهة العسكرية عملا عقيما لانـــه لم يعطل نزول الجنود الانجليزية الى البر ، فقد نزلوا فى صبيحة اليوم التالى ، واشترك فى الحريق بعض الاوروبيين وبخاصة من الاروام والمالطيين الذين بقوا فى المدينــة بعــد هجـــرة معظمهم ، وكانوا يقصدون من ذلك المطالبــــة بالتعويضات بعد انتهاء الحرب ، كما اشتركوا ايضا فى النهب .

ويقول جون نينيه عميد الجالية السويسرية وكان شاهد عيان لهذه الحوادث ان الحرائق الاولى شبت فى الاحيــاء الاهلية من قنابل الاسطول الانجليزى يوم الضرب ، وكان الحريق الذى أمر به سليمان سامي داود على غير راى عرابى والوزراء ، فانفرد باحداثه سليمان داود قائد الالاى السادس الذى كان مشهورا بالتهور والحمق ، وكان يعتبر نفســـه عرابى آخر بالاسكندرية ، وقد صمم على الا ينسحب الجيش من الاسكندرية الا بعد أن يجعلها خرابا ، وهذا يدلك عـلى تشعب آراء العرابيين وعدم وجود وحدة فى قيادتهم ، لان عملا خطيرا كحريق الاسكندرية ما كان يجب ان يحدث الااذا صدرت به الاوامر مجمعة من قيادة الجيش ، ولكن الواقع أن عرابى لم يكن له دخل فيه ، ولما وقـــع لم يستطع أن يمنعــــه .

واستقر رأى عرابى وصحبه على الانسحاب من الاسكندرية ثانى يوم الضرب ، فأخذ الجيش يخليها يوم الاربعاء ١٢ يوليه . وفى مساء ذلك اليوم غادرها عرابى ووصـــل الى « حجر النواتية » على ترعة المحمودية بعد الغروب . وقضى الليلة هناك . وفى الصباح ركب رفاصا سار به فى الترعة حتى وصل به الى « عزبة خورشد » ومنها الى « كنج عثمان » بالقرب من كفر الدوار . وهناك أمر بانشاء الاستحكامات ، وهى التى اتخذها الجيش المصرى معسكرا له . وعرفت بمعسكر كفر الدوار . واتخذ عرابى عزبة « كنج عثمان » مقرا لقيادة الجيش . وفى صباح يوم ١٣ يولية تحقـــق الاميرال سيمور انسحاب العرابيين وأنه لم يبق منهـــم احد فى المدينة فانزل كتيبة من جنوده البحارة . واحتلوا سراى رأس التين وشبه جزيرة رأس التين .

أوروبا وضرب الاسكندرية

انسحبت فرنسا من الميدان ، وأمرت اميرال أسطولهـــا بمغادرة الاسكندرية قبل الضرب ، فبارحها مساء ١٠ يوليه سنة ١٨٨٢ ، ومعنى ذلك أن الحكومة الفرنسية تركت انجلترا تفعل ما تشاء وتعتدى ذلك الاعتداء الغشوم على المدينة فتدك حصونها وتهدم مبانيها وتحصد أرواح أهلها دون أن تبدى حراكا ، قابلت فرنسا هذا الاعتداء الوحشى بالجمود ، ولو أرادت منعه لكان لها من مركزها الممتاز فى المسألة المصرية ما يحول دون وقوعه ، وكذلك فعلت دول أوروبا العظمى ؛ فانها ظلت جامدة لا تحرك ساكنا أمام هذه المأساة ، ولو وقع مثل هذا الاعتداء على أمة أوروبية كاليونان أو الجبل الاسود أو بلغاريا لاهتزت الحكومات الاوروبية وتوعـــدت وأنذرت المعتدى بالضرب على يده .

ولعلك تذكر موقفها حيال مصر ذاتها حين لبت نداء تركيا في محاربة الثوار اليونانيين وما فعلته اوروبا اذ ائتمرت باسطولها فاحرقته غدرا وخيانة في « نافارين » سنة ١٨٢٧ ، ولا تنس ما فعلته مع مصر فقد حرمتها ثمرة انتصاراتها على الترك في عهد محمد على وائتمرت بها وانقصت المزايا التى نالتها بحد السيف ، اما في سنة ١٨٨٢ فقد تركتها لبطش الانجليز دون أن تحرك ساكنا !.

وليس من العسير علينا ان نفهم سبب هذا التباين في المعاملة ، فاوروبا لا تنظر الى مصر بالعين التى تنظر بها الى الامم الغربية ، ولا تراها جديرة بالعطف الذى حبت به أمثال اليونان وبلغاريا ، ومما يدلك على مشاركة اوروبا لانجلترا في مسئولية حوادث سنة ١٨٨٢ انه لم يكد الجيش الانجليزى ينتصر على العرابيين في واقعة التل الكبير حتى بادر المسيو تيسو Tissot سفير فرنسا بلندن الى مقابلة اللورد جرانفيل Granville وزير خارجية انجلترا وهنأه باسم الحكومة الفرنسية على هذا الانتصار ، وكان جواب جرانفيل على تهنئته : « ان واقعة التل الكبير هى انتصار اوروبى ، ولو انهزم الجيش الانجليزى لكان ذلك كارثة على كل الدول التى تحسب حسابا للتعصب الاسلامى » !

وقد هنأ المسيو دكلرك Duclerc رئيس وزارة فرنسا السفير البريطانى في باريس بهذه الواقعة قائلا : « ان انتصار الانجليز على العرب في مصر ينتج ثمرة طيبة لفرنسا في تونس والجزائر » ! .

وقوبل نبأ الضرب في « مؤتمر الاستانة » بالفتور والجمود ولم يكن المؤتمر قد انفض بعد ، ولو كانت الدول الاوروبية حريصة على الدفاع عن حقوق مصر بل عن الحقوق عامة ، لكان لضرب الاسكندرية صدى عاجل في المؤتمر يحفزه الى

وفتح حتا لهذا الاعتداء ، ولكنه على العكس قابله بالصمت والبرود ، ولم يبد اى اعتراض على انجلترا في نقضهـا عهودها ، وخاصة عهودها في ذلك المؤتمر بالذات ، ولم يكن لهذا الاعتداء اى اثر فعلى في نفوس المؤتمرين وهم سفراء الدول الاوروبية الكبرى في الاستانة ، وكل ما فعله مندوب روسيا أن نفض يده من المؤتمر وامتنع مؤقتا عن حضور جلساته ، وهو عمل سلبى لا يمنع الاعتداء ولا يحول دون استمراره .

وفي ١٥ يوليه سنة ١٨٨٢ اجتمع المؤتمر لاول مرة عقب ضرب الاسكندرية ، وتحرك الى دعوة تركيا لارسال جيش عثماني الى مصر تنفيذا لقراره الذى اصـدره في جلستة السابقة - ٦ يوليه - ولم يكن قد ابلغه اليها من قبل،ورفع السلطان - اخيرا ايضا - بالاشتراك في المؤتمر للمباحثة في اقرار الوسائل الكفيلة باعادة الامور الى نصابها .

بدات اذن تركيا تشترك في المؤتمر بعد ان أصبح لا عمل له ! وارسلت وزارة الخارجية العثمانية في ١٩ يولية تبلغه انها تقبل الاشتراك فيه ، وعينت مندوبيها به وهما سعيد باشا وزير الخارجية وعاصم باشا وزير الاوقاف ، فحضرا جلسة ٢٤ يوليه - الجلسة العاشرة - وتولى سعيد باشا رياسة المؤتمر بصفته وزير خارجية الدولة التى انعقد المؤتمر في عاصمتها ، وصرح بان الحكومة العثمانية قبلت مبـدأ ارسال جنود الى مصر ، وبعد ١٧ اغسطس اعلن ان حكومته قبلت شروط التدخل التي قررها المؤتمر في ١٥ يولية .

وكانت هذه الاقوال مهزلة اخرى ، اذ لم تكن تركيا قد اعدت جيشا ما ، وابطأت في انفاذ عزمها حتى انتهت الحرب

بهزيمة العرابيين ودخول الانجليز القاهرة قبل أن يتحرك الجيش العثماني الى مصر !

مؤتمر الاستانة وقناة السويس

وكل ما عنى به المؤتمر أنه بحث بجلسته التاسعة يوم ١٩ يوليه سنة ١٨٨٢ في حماية قناة السويس من ان تصيبها الحرب بسوء ، وذلك بناء على ما تظاهرت به انجلترا من الخوف على القناة أن يسدها العرابيون بعد ضرب الاسكندرية ، وكان هذا الخوف مع الاسف لا محل له لان عرابي لم يفكر جديا في سد القناة ، الا بعد احتلال الانجليز الاسماعيلية اى في ٢٠ أغسطس ، ولكن انجلترا بادرت بمبادلة الدول تخوفها من هذه الناحية لكى تنتحل لنفسها حق حماية القناة اذا لم تتفق الدول على حمايتها دوليا .

وقد عرض سفيرا انجلترا وفرنسا في المؤتمر بجلسة ١٩ يوليه رأى حكومتيهما في أن يكل المؤتمر الى من يختار من الدول حماية القناة اذا أصابها اعتداء ، ولم يلق هذا الاقتراح قبولا من المؤتمر ، فاتفقت انجلترا وفرنسا على أن يصرح سفيراهما في المؤتمر بأنهما مستعدان عند الحاجة الى حماية القناة ، وقد صرح السفيران بذلك في جلسة المؤتمر الحادية عشرة التي انعقدت يوم ٢٦ يوليه ، فلم يعترض المؤتمر ولم يبد احتجاجا .

وابلغ الباب العالى اعضاء المؤتمر في ٢٢ يوليه ثم في ٢٧ منه أن جنوده على أهبة السفر الى مصر وانه مستعد للتدخل فيها ، ولكن بلاغه لم يقترن بأى عمل ، وعرفت

وزارة المسيو دى فريسينيه على البرلمان الفرنسى فتسمح اعتماد لاعداد القوات الكفيلة بجعل القناة فى مأمن من كل اعتداء وحماية السفن المارة فيها ، ولكن البرلمان قرر فى ٢٩ يوليه رفض الاعتماد المطلوب ، مما أدى الى استقالة وزارة دى فريسينيه واضطرار الوزارة التى خلفتهـا ـ وزارة دكلرك ـ الى أن تنفض يدها من المسألة المصرية نزولا على قرار البرلمان ، فكان هذا القرار من فرنسا اعلانا بنفض يدها بل بافلاس سياستها فى المسألة المصرية ، والسبب الذى حدا بالبرلمان الفرنسى الى رفض الاعتماد هو الخوف من توزيع قوات فرنسا فى وقت كانت تخشى فيه علـى كيانها فى القارة الاوروبية من تحفز ألمانيا ، فهو نفس السبب الذى حـدا بالوزارة الفرنسية الى الاحجام عن مشاركة بريطانيا فى تدخلها الحربى حين عرضت عليها ذلك فى يوليه سنة ١٨٨٢ قبل ضرب الاسكندرية .

وفى الوقت الذى اصدر البرلمان الفرنسى هذا القرار قرر البرلمان البريطانى فى ٢٧ يوليه الاعتماد المطلوب مـن الحكومة الانجليزية للحملة على مصر ، وذلك بأغلبية ٢٧٧ صوتا ضد ١٢ صوتا ، اى بأغلبية تشبه الاجماع ، وبلـغ الاعتماد الذى قرره ٢٫٣٠٠٫٠٠٠ جنيه .

يتضح مما تقدم ان المؤتمر لم يكن يعنيه رد الاعتداء عن مصر ، بل كل ما همه وشغل باله امر قناة السويس ، وقد انتهى من مباحثاته العقيمة الى ترك الانجليز يتصرفون كما تهوى اطماعهم الاستعمارية .

اجتمع المؤتمر للمرة الاخيرة يوم ١٤ اغسطس سـنة ١٨٨٢ ، وكانت الجنود البريطانية قد زحفت فى داخـل البلاد وظهرت بوادر انتصارها على العرابيين ، فلم يجد

المؤتمر عملا يشغله سوى تاجيل انعقاده الى أجل غير مسمى ، ولم يجتمع بعدها اذ كانت قوات الانجليز قد تغلبت مع الاسف على العرابيين ، وبذلك انطوت صفحة المؤتمر بدون أن يعمل عملا ما لصون حقوق مصر ، ورد عادية الانجليز عنها ، وأخفق اخفاقا جعله مضرب الامثال في المهازل السياسية الخالية من روح النزاهة والصراحة والاخلاص .

الفصل العاشر

القتال والمعارك فى الحرب العرابية

عرابى والخديو توفيق

تربص الانجليز فى الاسكندرية حتى يعدوا العدة للزحف ، ويتلقوا الامدادات التى جاءتهم بعد ذلك من انجلترا ، واخذوا فى الايام الاولى ينظمون الاحتلال مستعينين بالخديو ونفوذه الشرعى ، واذاع الاميرال سيمور يوم ١٧ يوليه منشورا بالمحافظة على الامن علق فى شوارع المدينة ، وهو اول منشور أعلن الانجليز فيه انهم مكلفون من جانب الخديو بالمحافظة على النظام .

واستكتب الاميرال سيمور راغب باشا رئيس مجلس الوزراء خطابا بتاريخ ١٧ يوليه سنة ١٨٨٢ يبلغ فيه الاميرال مخالفة عرابى لاوامر الخديو فيما يقوم به من وسائل الدفاع ، وعزم الخديو على عزله من منصبه ، وهذا الخطاب يبدو غريبا من راغب باشا الذى كان حتى ضرب الاسكندرية يعضد العرابيين ويؤيدهم ، ويقاوم التدخل البريطانى ، والخطاب يناقض ايضا قرار مجلس الوزراء الذى اشترك راغب باشا فى وضعه بوصفه رئيسا للنظار والذى لا قيمة على انذار الاميرال سيمور قبيل ضرب الاسكندرية .

وارسل الخديو من سراى رأس التين يوم ١٧ يوليـه ـيـــة الى عرابى بكفر الدوار يأمره فيهـا بالـكف عن الاستعدادات الحربيـــة ويحمله تبعة ضرب الاسكندرية ، ويدافع فيها عن حسن مقاصد الانجليز ويأمــره بالحضور الى سراى رأس التين ليتلقى منه تعليمــاله ، ومن يومئــذ ظهــرت خيــانة توفيق .

فاجاب عرابى على هذه الرسالة ببرقية شرح فيهـا وجهة نظره ، وابان الاسباب التى توجب استمرار الدفاع ، وهى طلبــات الاميرال سيمور ، وقـــرار مجلس الوزراء برياسة الخديو برفضها ولو ادى ذلك الى القتال ، واعتذر عن الحضور الى الاسكندرية لان الانجليز يحتلونها ، وطلب الى الخديو أن يوفد اليــــه الوزراء أو رئيسهم فى مركـز الجيش بكفر الدوار للمداولة فى الموقف ، ولما تحقق عرابى انحياز الخديو الى جانب الانجليز خشى أن يصدر من الاوامر ما يشل حركة الاستعدادات الحربية ، فارسل عرابى الى جميع المديريات والمحافظات برقيات شديدة اللهجة اتهم فيها الخديو بممالأة الانجليز وحـذر الجميع من اتبـــاع أوامره التى تخالف حالة الحرب .

وارسل الى يعقوب سامى وكيــل وزارة الحربيـــة بالقاهرة كتابا بتاريخ ١٧ يوليـــه سنة ١٨٨٢ ، دعا فيه الى وجوب عقــد جمعيــة عمومية من الذوات والأعيــان والعلماء يعرض عليها الموقف ، ويطلب منها اصدار قرار فى شأن الخديو وفيما يجب عمله لصالح الامة « وصـلاحية

مشـــل هـــذا الوالى عليهـا » ، وختم كتابه بالمثابرة على التجهيزات الحربية وانه تحرر منــــه بذلك الى جميــع حكام البــلاد ».

واذاع منشورا أرسله الى جميع المديريات والدواوين كافة باعـلان انضمام الخـديو الى جانب الانجـليز وخلع طاعتـــــه .

كان يعقوب سامى من الموالين لعرابى ، كما كان في خاصة نفسه يرى بحق وجـوب الدفاع عن البـلاد ازاء عدوان الانجليز ، فلما جاءته برقيـة عرابى اجتمـــع يوم ورودها مع خاصته المناصرين له فى وزارة الحربية « قصر النيـــــل » ، واستقر رأيهم على عقد مجلس بديوان وزارة الداخلية فى مساء ذلك اليـــــوم مؤلف من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط والموظفين .

فاجتمع المجلس المذكور ، وقرر دعوة العلماء والاعيان والرؤساء الروحانيين والوجهاء وكبـار موظفى الحـكومة بديوان الداخلية ليلا فى هيئة جمعية عمومية لاتخاذ ما يلزم من القرارات بالنيابة عن الامة ، واخذ هذا المجلس يتولى سلطة الحكم ، وظل كذلك خلال الحـرب ، وقـد سمى فى الوقائع المصرية « المجلس العرفى » ، وسنجرى على هـذه التسمية الاخيرة فى سياق الحديث .

وفى مساءالاثنين ١٧ يوليـــة سنة ١٨٨٢ اجتمــــع المدعوون الى حضور الجمعية العمومية بوزارة الداخلية ، وبلغ عددهم أربعمائة عضـــــو ، منهم الامراء الموجـودون بالعاصمة ، وشيخ الاسلام ، وقاضى قضاة مصر ، ومفتى الديار المصرية ، وكبار العلمـــاء ، والرؤساء الروحانيون

والنواب ووكلاء الدواوين والمديرون والقضـــاة والتجـار والاعيــان ».

وعرضت عليهم الرسائل التى تبودلت بين الخـديو وعـرابى ، وبين عـرابى ووكيـل الحربية ، وتداولوا فى الموقف ، فاجمعـوا على وجـوب مداومة الاسـتعدادات الحربية ما دامت بوارج الانجليز فى السواحل وجنودهم فى الاســكندرية ، وعلى اسـتدعاء الوزراء من الاسكندرية للاستفهام منهم عن حقيقـة الأمر ، واصــدروا قـرارا بهــذا المعنى .

وعلى اثر اطلاع الخديو على قرار الجمعية العمومية أصـدر امراً فى ٢٠ يوليـه سنة ١٨٨٢ بعزل عرابى من وزارة الحـربية ، واسنادها الى عمـر باشا لطفى محــافظ الاسكندرية ، وبنى أمر العزل على مخالفة عرابى لاوامره ومداومته على الاستعدادات الحربية » وقـد صـدر هذا الأمر بناء على قرار من مجلس الوزراء « وكان بعضهم مخالفا لفكرة العزل ، ولكن الخديو أصر عليها : وأبلغ عرابى هـذا الأمر فى كتاب بعث به اليه .

وأذاع الخـديو فى الوقت نفسـه منشورا اعلن فى شوارع الاسكندرية فصل فيــه الأسباب التى دعت الى عزل عرابى من منصبه ، واخـذ فيـه على عرابى اخـلاء الاسكندرية دون مقاومة ، ثم دافع عن نيــات الانجليز واحتلالهم الاسكندرية وسوغه بأن الغرض منه المحافظة على الأمن . !

وكان عرابى مرابطا فى معسكره بكفـر الدوار حـين أبلغه الخديو أمره بعـزله من منصبه ، فلم يكترث له واستمر يعد عدة الدفاع ليصد تقـدم الانجليز ، وارسل

الى يعقوب سامى يدعوه الى عقد الجمعية العمومية ثانية للنظر فى أمر العزل ، فقرر المجلس العرفى دعوة الجمعية العمومية الى الانعقاد ، واجتمعت بوزارة الداخلية يوم السبت ٢٢ يولية سنة ١٨٨٢ ، وهذه هى المرة الثانيـة لاجتماعها ، ولم تجتمع بعد ذلك ، وكان الحاضرون فى المرة الثانية اكثر عددا من المرة الاولى ، اذ حضرها نحو خمسمائة من الاعضاء ، منهم ثلاثة من الامراء ، وشيخ الأزهر وقاضى مصر ومفتيها ونقيب الاشراف وبطريرك الاقباط الأرثوذكس وحاخام اليهود ، والنواب والقضاة والمفتشون ومـديرو المديريات والاعيان ، وكثير من العمد ومشايخ البلاد ، فلما اجتمعت الجمعية تليت عليها الاوامر الصادرة من الخديو ، والمنشورات التى أصدرها عرابى ، وتولى هذه التـلاوة الشيخ محمد عبده (الاستاذ الامام) بناء على أمر حسين باشا الدرملى وكيل الداخليـة ، والقى على باشا الروبى خطبة تناول فيها الخديو بالطعن والقدح ، وتليت فتوى شرعية من الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العـدوى والشيخ محمد ابو العلا الخلفاوى بمروق الخديو من الدين لانحيازه الى الجيش المحارب البـلاد ، وتداول الاعضـاء فى الموقف الحربى وفيما يجب عمله ، فاتفقت آراؤهم على عدم قبول عزل عرابى ، وبعد أن صدر هـذا القرار قال يعقوب سامى وكيل وزارة الحربية : « حيث قرر هـذا المجلس المحترم عدم عزل عرابى باشا من نظارة الجهادية والبحرية ورأى لزوم بقائه فى الوظيفة ، فارجو من المجلس أن يرى رأيه فى أوامر الخديو التى تصدر الى من جنابه ، وكذلك ما يصدر من حضرات نظاره القيمين معه هل يلزمنى قبولها وتنفيذها أم لا ؟ » فتداولت الجمعية العمومية فى هذه المسألة ، واصـدرت قرارها بوقف اوامر الخـديو ونظاره وعدم تنفيذها .

الحرب بين المصريين والانجليز

عسكر عرابى بجيشه فى كفر الدوار ، وأقام بهـا الاستحكامات المنيعة ، واخذت طلائع العرابيين تناوش الانجليز فى ضواحى الاسكندرية ، ولم يكن الجيش الانجليزى قد أمن بعد على مركزه فى الثغر ، بل كان يتوقع أن يهاجمه العرابيون بعد أن يلموا شعثهم عقب الهزيمة الاولى ، فأخذ الانجليز يحصنون استحكامات المدينة ووضعوا الحراس على مداخلها .

وكانت طلائع المصريين ترابط فى الرمل وتستعد لمناوشة الاعداء ، واستمر الانجليز يلزمون خطة الدفاع فى الاسكندرية وينتظرون وصول الامداد ، وفى ١٧ يوليه جاءهم مدد من ٢٧٠٠ مقاتل ، وجاء الاسكندرية الجنرال اليزون Alison فتولى قيادة الجيش البريطانى فى المدينة حتى يحضر القائد العام الجنرال ولسلى ، وكان عدد الجيش البريطانى فى الاسكندرية ٣٦٨٦ مقاتلا - عدا جنود الاسطول - ثم جاءهم مدد آخر عدده ١١٠٨ من مالطة وجبل طارق ، فاحتل الانجليز الرمل فى ٢٣ يوليه : ثم اخذ المدد الاكبر يتحرك من ميناء ولوتش Woolwich بانجلترا فى أواخر يوليه قاصدا مصر ، وأصدرت الملكة فكتوريا أمرا فى ٢١ يوليه سنة ١٨٨٢ بتعيين الجنرال جارنت ولسلى Garnet Wolsley قائدا عاما لجيش الحملة على مصر ، ولم يصل الى الاسكندرية الا فى منتصف اغسطس .

وكان المظنون لدى عرابى وصحبه ان لا يتخذ الانجليز قناة السويس ميدانا للزحف أو للحركات الحربية ، احتراما

لحيدة القناة ! ولكن العارفين بالحقائق كانوا على يقين من انهم لا يرعون حرمة ، كما لم يرعوا حرمة المعاهدات فى ضربهم الاسكندرية ، فكانت خطتهم أن يهاجموا مصر من ناحية الاسماعيلية متجهين من طريق الزقازيق الى القاهرة »

خطة العرابيين فى القتال

عين عرابى محمود باشا فهمى رئيسا لأركان حرب الجيش المصرى عقب ضرب الاسكندرية ، فوضع خطة سديدة للدفاع عن البلاد لو اتبعت باحكام لصدت تقدم الانجليز وانقذت مصر من غائرتهم ، وكان محمود فهمى من أكفأ المهندسين الحربيين ، وخلاصة خطته انه عين خمسة مواقع رئيسية للدفاع : الاول فى كفر الدوار ، والثانى فى رشيد ، والثالث بين رشيد وبحيرة البرلس ، والرابع فى دمياط ، والخامس فى الصالحية والتل الكبير لصد الهجوم من ناحية قناة السويس ، وقد أشار فى بداية الحرب بسد ترعة الاسماعيلية لمنع وصول المياه العذبة الى بورسعيد والاسماعيلية والسويس ، وسد قناة السويس ذاتها لمنع الانجليز من اتخاذها قاعدة عسكرية »

ولو سدت قناة السويس فى بداية القتال لامتنع الاتصال بين القوات الانجليزية الآتية من البحر المتوسط والقوات الآتية من الهند ، واستحال عليها الوصول الى الاسماعيلية من طريق القناة ، وفى هذه الحالة يضطر الجنرال ولسلى الى المغامرة بجيشه فى الصحراء الشرقية حيث لا ماء ولا كلأ ، أو يهاجم مصر من طريق الدلتا فتعوق

الترع والجسور زحفه وخاصة فى ايام الفيضان (اغسطس ـ سبتمبر) ، ولكن عرابي لم يستمع لنصيحة محمود فهمي وخشي عواقبها ، وظن أن الانجليز يحترمون حياد القناة فلا يتخذونها قاعدة للزحف ، فكان هذا الخطأ أكبر عامل فى اخفاق خطة الدفاع التى وضعها محمود فهمي ، واكتفى عرابي باقامة معسكر فى التل الكبير على بعد نحو خمسين كيلومترا من الاسماعيلية و ١١٠ كيلومترات من القاهرة حشد فيه جانبا من الجيش ، ولكنه وزع معظم قواته فى كفر الدوار وعلى سواحل البحر المتوسط ، فكان الجنود السودانيون وهم من خيرة الجنود مرابطين فى دمياط بقيادة عبد العال حلمي ، ورابط فى رشيد قيلق كبير ، واستقر معظم الجيش بقيادة طلبة عصمت فى كفر الدوار ، ومع أن الانجليز استعجلوا الحركات العدائية فى قناة السويس وكانت هذه الحركات نذيرا كافيا لعرابي بما اعتزموه من خرق حياد القناة ، فان عرابي احجم عن العمل بنصيحة محمود فهمي فى سدها .

ولقد بكر الانجليز فى خرق حرمة قناة السويس ، واتخاذها ميدانا للحركات العدائية ، وتدل الظروف والملابسات على انهم كانوا مصرين على اختلاق الذرائع لاحتلالها ، كما اختلقوها لضرب الاسكندرية ، فقد تعللوا بأن ثمة ترميمات تجرى فى طابية « الجميل » على مدخل بحيرة المنزلة غربي بورسعيد ، واصدرت الحكومة البريطانية فى ٢٢ يوليه سنة ١٨٨٢ تعليماتها الى الاميرال سيمور باحتلال بورسعيد والاسماعيلية ، وفى ٢٦ يوليه سنة ١٨٨٢ اقتحمت السفينة الحربية الانجليزية « اوريون » Orion بقيادة الكابتن « فيتزروى » Vitzroy القناة عند بورسعيد ، والقت مراسيها يوم ٢٧ منه فى بحيرة التمساح

على بعد ثمانمائة متر من الاسماعيلية ، ولم يكد يمضى على دخولها القناة يومان حتى وصـــلت الاميرال « هـويت » Hoe wot الى السويس والاميرال « هـــوبكنس » Hopkins الى بورسعيد ، واستقر كل منهما في موقفه ينتظر التعليمات الخاصة باحتلال القناة .»

وهذه الحركات الحربية المبكرة في ناحيـــة القنـاة كانت تنم عما اعتزمه الانجليز في بداية القتال من الزحف من طريق قناة السويس ، ولكن عرابى مع ذلك ظل غافلا عن هذه النية ! »

واحتل الانجليز مدينـــة السويس في ٢ أغسطس ؟ وظل عرابى برغم احتلالها يعتقد حرمة قناة السويس بحجة ان القناة انما تبتدىء من « بورتوفيق » ضاحية السويس ـ والتى لا تبعد عنها الا ثلاثة كيلومترات ــ وكان احتلال السويس نذيرا آخر باتخاذ الانجليز لها قاعدة للزحف على العاصمة ، وقـد تحـرك المدد من الهنـد بعـد سبعة ايام من احتـلالها »

وقائع الميدان الغربى

نقصد بالميــــدان الغربى ما بين الاسـكندرية وكفر الدوار ، تمييزا له عن الميدان الشرقى من الاسماعيلية الى التل الكبير »

لقد وجه عرابى كل عناية الى تحصين مواقعه فى ــ الميدان الغربى ، واهمل الميدان الشرقى اهمالا تاما ، مما

فكان السبب الاكبر فى الهزيمة ، فانشأ الاستحكامات المنيعة فى مواقع الدفاع مما يلى الرمل جنـــوبا الى كفر الدوار بين بحيرة ابو قير وملاحة مريوط ، ووضع محمـــود فهمى تصميم هذه المواقع بمعاونة الاميرالاى محمـــد بك شكرى وهو من اكفأ ضباط اركان حرب الجيش المصرى ، فكانت مؤلفة من ثلاثة خطوط للدفاع يبعد كل واحد عمـا يليـه اربعة او خمسة كيلومترات ، وامام كل خط خندق عمقه خمس عشرة قدما ، واقيمت المعاقل على جميع المرتفعات والآكام ،وركبت فيها المدافع وعددها خمسون مدفعا ».

واقعة الرمل ــ ٥ اغسطس سنة ١٨٨٢

تحرك الانجليز يوم ٥ اغسطس سنة ١٨٨٢ يريدون التقدم من جهة « الرمل » ، فهجم المصريون على الانجليز هجوما شديدا واضطروهم الى التقهقر اذ ولوا الادبار منهزمين بعد أن دام القتال ثلاث ساعات ونصفا .

ويقول الكولونل « سبتان » Septans عن هذه المعركة ان الجنرال « اليزون » Alison كان يقود الانجليز فيها وان عددهم كان ألفى مقـاتل وان الجنرال « اليزون » كان لا يفتأ يناوش العرابيين حول الاسكندرية كل يوم لـكى يوهمهم أن الجيش البريطانى قـد اتخـذ الاسكندرية قاعدة للزحف ، فى حين ان خطته الحقيقيـة هى الزحف من ناحية الاسماعيلية ، وبذلك يشـغلهم عن تحصين التل الكبير ومواقع الدفاع فى الشرق .

واقعة عزبة خورشيد — ٧ اغسطس سنة ١٨٨٢

وهاجم الانجليز مقدمة الجيش المصرى فى كفر الدوار يوم ٧ اغسطس سنة ١٨٨٢ ، اذ تقدم جناحهم الايسر من الرمل على جسر ترعة المحمودية ، وتقدم الجناح الايمن بطريق السكة الحديد من القبارى ، وجاء القلب من طريق كوبرى المحمودية ، فلما التقوا بالمصريين صمدوا لقتالهم ودافعوا دفاعا مجيدا .

واستمرت المعركة نحو أربع ساعات انتهت بتقهقر الانجليز منهزمين ، وسار المصريون على أثرهم حتى حجبهم الظلام عنهم .

الاستعداد للمعارك الكبرى

وبعد وقوع معركتى ٥ و ٧ اغسطس سنة ١٨٨٢ المتقدم ذكرهما ، استمر ورود الامداد الى الانجليز فى الاسكندرية آتية من مالطة وقبرص وجبل طارق وانجلترا ، فاجتمع للانجليز حوالى ٩ اغسطس سنة ١٨٨٢ قبيل معركة التل الكبير ٥٠,٦٠٠ مقاتل .

اما الجيش المصرى النظامى فلم يكن يزيد على ١٩,٠٠٠ مقاتل موزعين بين مختلف المواقع ، منهم ٨٠٠٠ فى كفر الدوار ، و ٣٥٠٠ بأبو قير ، و ٢٥٠٠ فى رشيد و ٥٠٠٠ فى دمياط .

ويقول عرابى فى مذكراته : « أن الجيش المصرى عند ابتداء القتال كان مؤلفا من ثمانية الايات من المشاة ، وثلاثة الايات من الفرسان ، والايين من الطوبجية البرية ،

ثلاثة آلايات من طوبجية السواحل المنــوط بها حماية الثغور ، وفرقة من رجال الهندسة ، وان مجموع ذلك في حالة استكمال الفرق والالايات ٣٦٠٠٠ ، وهو احصاء نظرى لا يمكن التعويل عليه لأن الفرق والالايات لم تستكمل قط عددها ، بل كان بعضها لا يبلغ نصف عدده الرسمى .

والظاهر ان عرابى كان يميل بعد هزيمة التل الكبير وفي خلال محاكمته الى المبالغة فى عدد الجيش المصرى لكى يتخذ الدفاع عنه من ذلك دليلا على رغبتــه فى حقن الدماء مع وجود العدد الوافر لديهمن الجند لاستمرار القتال ، وقال عرابى فى مذكراته أنه كان بالقاهرة قبل ابتداء القتال مصنع للاسلحة ، ومعمل للبارود ، وآخر فى بولاق لصب المدافع ، ودار صناعة عظيمة لعمل البنادق والمدافع انشئت فى طرة ، ولكنها لم تكمل قبل نشوب الحرب .

يتضح لك من هذا البيان أن عددالجيش الانجليزى كان يزيد على ضعف عدد الجيش المصرى ، وهذا وحده كان نذيرا بسوء العاقبة ، وقد جعل الفــــريق راشد باشا حسنى قائدا لخطوط الدفاع فى الشرق ، وخورشيد باشا طاهـــــر على رشـــــيد وأبو قير ، وعلى باشا الروبى على مريوط ، وعبد العال باشا حلمى على دمياط ، ومحمــود باشا البارودى قائدا لمواقع الصالحية ، وطلبة باشا عصمت قائدا لفرقة كفر الدوار تحت امرة عرابى .

واعتزم عرابى زيادة عــدد الجيش فرأى أن أقــرب الوسائل الى هذه الزيادة تجنيد الخفراء فى سائر المديريات لرانهم على الحركات العسكرية من قبل ، فأصدر منشورا فى ١٢ اغسطس سنة ١٨٨٢ بتجنيد ٢٥ الفا يؤخــذون من الخفراء ويحل محلهم غيرهم فى المحافظة على الأمن ، ووزع

هذا العدد على المديريات كافة ، وارسل الى المديرين يستحثهم على سرعة تجنيد هذا العدد ، ويبين حاجة الدفاع الى ذلك .

ولا شك في أنه لو كان لدى مصر الوقت الكافى لجندت هذا العدد وأكثر منه ، ولكن الوقت لم يكن يتسع لتجنيد الخمسة والعشرين ألفا ولا غيرهم ، ويقول نينيه : « انه كان يمكن لعرابى بعد ثمانية أشهر أو عشرة حشد خمسين الف مقاتل أو ستين الفا ، فقد كان يشرف على حركة التجنيد يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية وكان كفؤا فى الادارة ، ولكن الوقت لم يتسع لهذا العمل » .

ولما شبت الحرب لم يكن فى خزانة الحكومة مال ، لأن السير كلفن المراقب المالى الانجليزى اخذ الاموال الموجودة فى خزانة المالية وانزلها بالاسطول الانجليزى ، قبل اعلان الحرب بأيام ، وكذلك الاموال الموجودة بصندوق الدين حملها أعضاء القومسيون الى السفن الحربية بالاسكندرية ، فارسل عرابى الى المديرين يدعوهم الى جمع الاموال والاعانات من مديرياتهم للجيش ، وحرر من المجلس العرفى للمديريات بتحصيل أموال من الاهالى بنسبة عشرة قروش عن كل فدان على أن تحسب الاموال لمن يدفعونها من ضرائب الاطيان التى تستحق عليهم فى المستقبل .

وتطوع الكثيرون فى الجيش جنودا مقاتلين يجودون بأرواحهم فى سبيل الدفاع عن الوطن ، وبدأت حركة التطوع فى القاهرة والاقاليم عقب ضرب الاسكندرية .

والحق أن الاهلين قد تطوعوا لامداد الجيش بكل ما يستطيعون من نفس ومال وغلال وعتاد ومؤونة وميرة

وخيول وماشية ، وجادوابكل ما فى مقدورهم معتقدين بحق ان هذا واجب تفرضه عليهم الوطنية والدين .

قلنا ان الحكومة البريطانية عهدت بقيادة جيش الحملة على مصر الى الجنرال السير « جارنت ولسلى » أحد القواد الارلنديين فى الجيش البريطانى ، فوصل الى الاسكندرية يوم ١٥ أغسطس سنة ١٨٨٢

لم يكن الجنرال ولسلى من القواد الذين اشتهروا بالكفاية العالية فى القيادة ، ولا ممن امتازوا فى معارك سابقة بالنبوغ فى الفنون الحربية ، بل كل ما عرف عنه انه اشترك من قبل فى حروب القرم وفى بعض الحملات الاستعمارية الانجليزية ، وكان لم يزل برتبة قائم مقام جنرال حين تولى قيادة الحملة على مصر سنة ١٨٨٢ ، فلما انتهت بهزيمة العرابيين فى التل الكبير واحتلال العاصمة انهالت عليه القاب الشرف والتكريم ، فنال لقب لورد « فيكونت » ولسلى أوف كيرو « القاهرة » ورتبة جنرال وغير ذلك من دلائل التقدير ، على أنه تولى فيما بعد — سنة ١٨٨٤ — قيادة الحملة على قوات المهدى فى دنقلة ، فانتهت باخفاقها ومقتل غردون باشا ، وتولى سنة ١٩٠٣ قيادة الجيش الانجليزى فى حرب البويربالترنسفال ، فبـاء بالهزيمة والخسران ، وعدته حكومته مسئولا عن النكبة التى حلت بالجيش الانجليزى ، فنحته عن قيادته وعينت بدله الجنرال اللورد روبرتس .

من هذا البيان يتضح لك أن قيادة الجيش الانجليزى وذات الجيش الانجليزى الذى هاجم مصر سنة ١٨٨٢ لم يكونا كافيين للظفر بها واحتلالها ، لولا الانقسام الذى أضعف قوة الدفاع عنها وخيانة الخديو توفيق ، فانسل

الانجليز مع الاسف فى ارض معبدة ، ولم يلقوا المقاومة التى لقيها الجنرال « فريزر » حين نزل الاسكندرية سنة ١٨٠٧ على رأس جيش بريطانى اراد احتلال مصر فباء بالخيبة والخسران .

ولم يكد يستقر بالجنرال ولسلى المقام فى الاسكندرية حتى أذاع الاعلان الآتى فى المدينة :

« بأمر الحضرة الخديوية — اعلان للمصريين — يعلن الجنرال قائد الجيوش الانجليزية بان مقاصد الدولة البريطانية فى ارسالها تجريدة عسكرية الى القطر المصرى ليست الا لتأييد سلطة الحضرة الخديوية ، وعساكرنا يحاربون فقط حاملى السلاح ضد سموه ، فعموم الاهالى الذين فى سلم وسكينة تصير معاملتهم بكل تودد وانسانية ولا يحصل لهم أدنى ضرر بل يحترم دينهم وجوامعهم وعائلاتهم، والاشياء التى تلزم الجيش يصير دفع ثمنها ، وعليه ندعو الاهالى لتقديم ذلك . وان الجنرال قائد الجيش يسر جدا من زيارة مشايخ البلاد وخلافهم الذين يودون المساعدة لردع العصيان الذى هو ضد الحضرة الخديوية الحاكم والوالى الشرعى على القطر المصرى المعين من لدن الذات الشاهانية » .

تجدد القتال

وارتداد الانجليز فى الميدان الغربى

علمت أن الحركات الحربية بين الاسكندرية وكفر الدوار بدأت عقب احتلال الاسكندرية (كما تقدم بيانه) ثم تجددت عقب حضور الجنرال ولسلى ،

معركة ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٢

ففي يوم السبت ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٢ تحركت قوة كبيرة من الانجليز جاء جانب منهم بالقطارات المسلحة من جهة القباري وجانب آخر من جهـــة الرمل ومحطـــة السيوف وحجر النواتية ، فلما وصلت القطـــارات الى مقدمة الجيش المصري اطلق اليوزباشي احمد فضلي مدفعا فكان ذلك ايذانا ببدء القتال .

ودارت معركة شديدة بينهم وبين المصريين ، فصدهم المصريون عن التقدم بعد أن كبدوهم خسائر جمة ، ودام القتال ثلاث ساعات حتى غروب الشمس ، وكان يتـــولى قيادة الجيش في هذه المعركة طلبة باشا عصمت قومندان فرقة كفـــر الدوار وانتهت المعـــركة بارتداد الانجليز الى الاسكندرية .

مناوشات كفر الدوار

٢٠ و ٢١ و ٢٢ اغسطس سنة ١٨٨٢

وفي ايام ٢٠ و٢١ و ٢٢ اغسطس هـاجم الانجـليز مواقع الجيش المصري في كفر الدوار ، فدافع عنها المصريون خير دفاع ، وانجلت هـــذه المعـــارك عن ارتداد الجيش الانجليزي .

وتعتبر معارك الميدان الغـــربي في جملتهـــا فوزا للعـــرابيين ، لأن الانجليز ارتدوا عن خطـــوط الدفاع في كفر الدوار .

فى الميدان الشرقى

تقدم القول بأن عرابى اهمل الدفاع عـ البـلاد من ناحية الشرق اعتمادا على احترام الإنجليز لحيدة قنـاة السويس ، فلما جاء الجنرال ولسلى الاسكندرية كان اول عمل حربى له هو تدبير الزحف على العاصمة من ناحيـة قنــاة السويس .

احجام عرابى عن سد القناة

ولو ان عرابى بادر عنـدما نشبت الحـرب الى سد القناة لعجز الجنرال ولسلى عن الوصـول بجيشه الى الاسماعيلية واتخاذها قاعدة للزحف ، ولـكنه لم يفعل ، فكان احجامه وبالا على مصر ، وقد لعب فرديناند دلسبس فى هـذه المسألة دور الخداع والتغرير لـكى يفوت على العرابيين سد القناة .

فقد عقد عرابى مجلسا عسكريا فى اواخر يوليـة سنة ١٨٨٢ للنظر فى أمر القناة ، فأجمع راى المجلس على وجوب تعطيلهـا بحيث لا يستطيع الجيش الانجليزى اجتيازها والوصول الى الشاطىء الغربى منها ، وخاصـة الاسماعيلية ، فلما علم بذلك فرديناند دلسبس ارسل الى عرابى أن يمتنـع عن قطع القنـاة ، واكد له كـتابيا فى برقيته «ان الانجليز يستحيل ان يدخلوا القنـاة ... يستحيل » ، فانخدع عرابى بهذا التلغراف رغم تحذير اخوانه اياه ونصحهم له بألا يصغى الى نصيحة دلسبس ، اذ ليس فى امكانه ان يمنع دخول الانجليز القناة او ان يمن

بوعده ، ولا هو صادق في نصحه ، وانما كان غرضه صيانة القناة من التعطيل ، ولو ضحى في سبيل ذلك بمصالح مصر وسلامتها .

وقد استمر على خداعه حتى وصلت البوارج الانجليزية الى بورسعيد لاحتلال القناة ، فارسل الى عرابى برقية اخرى يقول فيها : « لا تعمل عملا ما لسد قناتى .. فانى هنا ولا تخش شيئا من هذه الناحية اذ لا ينزل جندى انجليزى واحد الا ويصحبه جندى فرنسى ، وانا المسئول عن كل ذلك » ، وهنالك فقط شرع عرابى في سد القناة ، ومع ذلك كان امره في هذا الصدد الى الفريق راشد باشا حسنى منطويا على التردد والابهام فقد قال اليه : «وما لعله الانجليز يبيح لنا سد الترعة الحلوة عن السويس واذا تهدد القنال زيادة على ذلك باعمال حربية داخلية ابيح لنا ردمه وسده لتعدى الانجليز على حيادته ، كالاتحاد سعادتكم مع سعادة رئيس عموم أركان حرب يجرى ما فيه صالحنا » .

ولم يكد يصل هذا الامر المبهم الى راشد باشا حسنى قومندان خط الشرق حتى كان الانجليز قد اقتحموا القناة ، وكان الحزم والحكمة يقتضيان بأن يبادر عرابى الى سد القناة قبل أن تبدأ حركات الانجليز العدائية من ناحية الشرق ، لأن الانجليز الذين خرقوا حرمة المعاهدات الدولية ونقضوا عهودهم في مؤتمر الاستانة منذ ابتداء القتال بضربهم الاسكندرية ثم احتلالهم اياها لم يكن من المنتظر أن يحترموا حياد القناة في قتالهم .

ومن عجبه أن يصر عرابى على رأيه الخاطىء مع انه انما يقول جون نينيه كان مقتنعا كل الاقتناع قبل نشوب

الحرب بضرورة منع المرور من القنـــاة وانه قطع براية [؟]
هذا الصدد اذ صرح المستر كاميرون Cameroun
مراسل جريدة الستاندارد Standard بحضور
المسيو نينيه قبل ضرب الاسكندرية بقوله : « اننا سنحترم القناة مادام العدو يحترم استقلال بلادنا ، ولكن اذا نشبت الحرب فاننا عند أول طلقة مدفع سنهدم القناة مؤقتا ، وسافعل ذلك آسفا لانى عالم بأن القنـــاة طريق تجـــارى محـــايد » .

وقد كان هذا هو الوقت المناسب لسد القناة ، فليت شعرى ما الذى جعله يعدل عن هذا الرأى الصواب ويمتنع عن سدها حتى احتلها الانجليز !

احتلال بورسعيد والأسماعيلية

٢٠ اغسطس سنة ١٨٨٢

كان اول عمل حربى للجنرال ولسلى عند وصوله الى الاسكندرية هو تدبير الزحف على العاصمة من طريق قنـــاة السويس ، ففى ظهــــر يوم ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٢ اقلع الاسطول البريطانى من الاسكندرية بقيادة الاميرال سيمور مؤلفا من ثمانى مدرعات وثمانى عشرة باخرة من بواخر النقل تقل معظم الجيش الانجليزى بقيادة الجنرال ولسلى قاصـــدا بورسعيد ، فبلغها صباح يوم ٢٠ اغسطس ، واخذت السفن الحربية تقتحم القناة ، ونزلت كتيبـــة من جنود الاسطول الى بورسعيدواحتلوا المدينة دون مقـــاومة من الحامية ، وكذلك احتل الانجليز القنطرة والاسماعيلية

في هذا اليوم ، ومنعت البوارج الانجليزية مرور البواخر التجارية فى القناة ، ومنع الاميرال هويت
من ناحيـة السويس دخول اية سفينة الى القناة ابتـداء من ١٩ اغسطس ، ووضع فى مدخل القناة بارجة حربيـة تنفيذا لهذا المنع ، وقد احتجت شركة القناة على خرق حرمة القناة ، فذهب احتجاجها سدى ، وفى ٢٠ اغسطس احتل الاميرال هويت « شلوفة » شـمال السويس على القنـاة .

وكانت طلائع العرابيين وعددهم نحو الفين ترابط فى « نفيشة » غربى الاسماعيلية وعلى بعد ثلاثة كيلومترات منها ، فاطلقت البوارج البريطـانية قنابلهـا عليهم ، وكان هذا الضرب نذيرا بزحف الانجليز من هذه الناحية .

ووصل الجنرال ولسلى الى الاسماعيليـة يوم ٢١ اغسطس لتدبير حركات القتال فى الميدان الشرقى ، وكان يصحبه الاميرال سيمور والاميرال هوبكنس ، ووصلت على اثره بقية البواخـر المقـلة للجيش البريطانى ، فنزلوا الاسماعيلية ، كما وصل المدد من الهند الى السويس ، وبذلك انكشفت الجبهـة المصرية من ناحيـة القنـاة ، فى حين انه لو سدت القناة فى بداية القتال لما استطاع الجنرال ولسلى ان يصل بجنوده الى الاسماعيلية ويتخذها قاعدة للزحف ، ولقضى عدة اشهر قبل ان يهاجم خطوط الدفاع فى الدلتـا .

وفى يوم ٢٢ اغسطس سنـة ١٨٨٢ وضع الانجليز ايديهم على السكة الحـديدية بين الاسماعيلية والسويس وعلى ترعة المياه العذبة بين المدينتين .

ولما تم للانجليز احتلال القناة زخصوا لشركة القناة بادارة اعمالها السابقة وعادت السفن التجـــارية تجتـاز القناة ، ويتبـين من ذلك أن اعتراض الشركة على خـرق الانجليز حيدة القنـــاة لم يكن سوى اعتراض شكلى كان الغرض منه منع العرابيين من سد القنـــاة حتى لا يتعطل انتفاع الشركة منها .

وهكذا جعل الانجليز من القناة قاعدة حربية سهلت لهم مهمة الزحف على مصر ، ولولاها لما استطاعوا أن يصلوا الى الاسماعيلية بحرا وان يزحفوا منها على العاصمة من طريق التل الكبير والزقازيق ، فوصول البوارج الانجليزية الى الاسماعيلية واتخـــاذهم اياها قاعدة زحفهم ما كان ليحدث لو لم تكن قناة السويس موجودة ، وكذلك كانت القناة شؤما على مصر فى ادوارها السابقة .

احتلال نفيشة ـ ٢٣ اغسطس سنة ١٨٨٢

واحتل الانجليز نفيشة بعد احتلالهم الاسماعيلية ، ولهذا الاحتلال اهميته ، لأن نفيشة هى أول محطة غربى الاسماعيلية ، ومنها تتفرع ترعة الاسماعيلية الى فرعين احدهما الذاهب الى بورسعيد والثانى الى السويس .

احتلال المجفر ـ ٢٤ اغسطس سنة ١٨٨٢

وقد سد العرابيون ترعة الاسماعيليـــة فى نقطـــة « المجفر » غربى الاسماعيلية ليمنعوا ورود المياه العـذبة

الى الجيش البريطانى ، فهاجم الجنرال ولسلى « المحقر » يوم ٢٤ اغسطس واحتلها بجنوده .

معركة المسخوطة ـ ٢٥ اغسطس سنة ١٨٨٢

وتابع الانجليز زحفهم فاستولوا على « المسخوطة » يوم ٢٥ اغسطس بعد معــركة عنيفــة دارت بينهم وبين العرابيين . وكان يقــود الجيش المصرى فيها الفــريق راشد باشا حسنى .

ووقع محمود باشا فهمى رئيس اركان حــرب الجيش المصرى اســيرا فى يد الانجــليز ، فكان اسره اكبــر ضربة اصابت الدفاع الوطنى .

الاستيلاء على المحسمة ـ ٢٥ اغسطس سنة ١٨٨٢

واستولى الانجليز على المحسمة يوم ٢٥ اغسطس ، وهى محطة تبعد عن نفيشة قربا باثنين وعشرين كيلومترا ، وصارت المسافة بينهم وبين التل الكبير لا تتجــاوز اربعــة وعشرين كيلومترا ، وقــد استولوا فى المحسمة على سبعة مدافع كروب وكمية كبيرة من البنادق ، وعلى قطار من الذخيرة .

وكان الاستيلاء على المحسمة عملا حربيا على جانب كبير من الخطر ، لانه الخطوة الاولى التى اتخذها الانجليز للوصول الى معسكر العرابيين فى التل الكبير ، ثم احتــل

الانجليز القصاصين يوم ٢٦ اغسطس دون مقاومة تذكر، ة
فصاروا على مسافة خمسة عشر كيلومترا من التل الكبير .

عرابي في الميـــدان الشرقي

كان لأسر محمود باشا فهمي واحتلال « المحسمة »
وانكشاف نية الانجليز في الزحف على العاصمة من ناحية
الشرق وقع شديد في صفوف العرابيين ، فبادر عرابي الى
الانتقال الى معسكر التل الكبير ، وسار بالقطار من كفر
الدوار ومعه جماعة من الضباط وطائفـــة من الحرس ،
وكان يصحبه السيد عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية ،
فلما وصل القطار الى الزقازيق خف لقـــائه جمع حاشـــد
من العمد والاعيان وارباب الطرق والموظفين ، ونزل هنيهة
بالمحطة ، وجلس بكشك هناك ، فاحتشد الناس للهتاف
له وصاروا ينادون : « الله ينصرك يا عرابي يا مولانا يا عزيز
.. أهلك عساكر الانجليز » . وبعد أن جلس هنيهة قام
الكشك وركب القطـــار وصار ينادي ويقول : « أنا لهــا
أنا لهـــا » .

وسار القطار الى التل الكبير بين هتاف المجتمعـــين
وصياحهم ، ولما وصل الى التل الكبير تشاور واصـــحابه
فيما يجب عمله ، وجاء علي باشا فهمي من القاهرة يقود
الآلاي الاول من المشاة مددا للجيش ، ووضـــعوا خطـــة
القتال التي استدعاها تبدل الموقف ، فاتفقوا على مهـــاجمة
مواقع الانجليز في القصاصين ، وارسلوا الى طلبـــة باشا
عصمت في كفر الدوار لكي يرســـل لهم المدد من الرجـــال
والعتاد ، فجاءهم عيد بك محمـــد بالايه ، واحمـــد بك

عبد الغفار وعبـــد الرحمن بك حسنى بالابات الفرسان ، وجاءهم من دمياط خضر بك خضر ومعه اورطتـــان من العساكر السودانية ، فاستـعد الجيش المصرى لاتخـــاذ خطة الهجوم ، وكانت قوات الانجـــليز موزعة كالآتى : الجنرال جراهـــام Graham فى القصـــاصين ، والجنرال درورى لو Drury lowe قائد الفرسان فى المحسمة ، والجنرال ويليس فى المسخوطة .

واقعة القصاصين الاولى ــ ٢٨ اغسطس سنة ١٨٨٢

هاجم المصريون مواقع الانجليز فى القصاصين يوم ٢٨ اغسطس سنة ١٨٨٢ بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ، وكان هجوما شديدا ، فاستـــولوا على المواقع الاماميـــة للانجليز ، ولكن الفرسان البريطــــانيين بقيـــادة الجنرال « درورى » ما لبثوا أن كروا على المصريين فاجــلوهم عن هذه المواقع ، وخسر الانجليز فى هذه الوقعة ٨ قتلى منهم ضابط و ٦١ جريحا منهم عشرة من الضباط وامتد فيهـا القتـال الى الليـل .

موقف تركيـــا

قدمنا ان موقف تركيا منذ شبت الثورة العرابية كان منطويا على سوء النية والخطل فى الراى ، فقد ارادت ان تتخذ من هذه الثورة فرصة لاسترداد امتيازات الاستقلال الذى نالته مصر ، فاخذت تغرى الفريقين المتخاصـــمين احدهما بالآخر ، فتتظاهر تارة بتاييد الخديو ، وطــورا

بتأييد العرابيين ، لتكسب من وراء هــذا الاغراء نفوذا وسلطانا ، ولكنها في الواقع لم تكسب شيئا وانما استفادت انجلترا من هذه السياسة الخرقاء .

وبينما كان الانجليز يتقدمون في داخل البــلاد كانت المفاوضات ما زالت مستمرة بين اللورد فرين سفير انجلترا في الاستانة والباب العالي للاتفاق على خطة ارسال الجيش العثماني الى مصر ! وكانت انجـلترا تقصــد من هــذه المفاوضات اطالة الوقت وتعطيل ارسال جيش من تركيـا حتى تقمع الثورة بجيشــها فلا يبقى محــل لمجيء ذلك الجيش ، وقد تذرعت الى اطالة المفاوضات باشتراطها عدة شروط وهي :

١ ـ تحديد عدد الجيش العثماني المزمع ارساله الى مصر بحيث لا يتجاوز خمسة او ستة آلاف جندي .

٢ ـ منعه من دخول مصر بطريق البر او النزول الى الاسكندرية .

٣ ـ عرض خططه الحربية على القيادة الانجليزية .

٤ ـ التعهد بسحب هذا الجيش حين جلاء الجيش الانجليزي عن مصر ، وقد رفضت الحكومة التركية هذه الشروط ، فكان ذلك سببا في تعطيل ارسال جيشها ، ولو رضيت بأي شروط تضعها انجــلترا وبادرت بارســال جيشها لكان ذلك خيرا واخف ضررا من احجامها عن انفاذه ؛ لأن مجرد وجود جيش تركي او اي جيش آخــر بجــوار الجيش الانجليزي يحول دون استقرار الاخير في البــلاد ويؤدي لا محالة الى اجلاء الجيشين معا ، كما حدث حين ارسلت كل من انجلترا وتركيا جيشا لاجلاء الفرنسيين عن

مصر سنة ١٨٠١ ، لان وجودهما معا أدى الى جلائهما عن البلاد فى ذلك الحين .

وقد أعلنت انجلترا على لسان اللورد فرين أنها لا تقبل اشتراك الجيش العثمانى مع الجيش الانجليزى فى اخماد الثورة الا اذا وقع الباب العالى على الاتفاقية المتضمنة شروط هذا الاشتراك .

وفى غضون مهزلة المفاوضات التى جرت فى هذا الصدد طلب اللورد فرين من سعيد باشا الصدر الأعظم ان يعلن السلطان عصيان عرابى وأن يقترن هذا الاعلان بالاتفاق على اشتراك الجيشين فى مصر ، واخيرا وقع الطرفان على هذا الاتفاق فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وهو يقضى بارسال ثلاثة آلاف جندى عثمانى الى بورسعيد ، وفى الوقت نفسه اعلن السلطان عصيان عرابى فى منشور طويل نشرته صحف الاستانة يوم ٦ سبتمبر سنة ١٨٨٢ .

لم تكن انجلترا تقصد بهذا الاتفاق احترامه وتنفيذه ، فانها عجلت باخماد الثورة قبل أن تتحرك تركيا الى ارسال جيشها ، بل كان غرضها اذاعة اعلان السلطان عصيان عرابى اثناء زحفها ، لتتخذ منه وسيلة لاضعاف قوة المقاومة وايقاع الفرقة والانحلال فى صفوف الجيش المصرى ، وصرف القلوب عن تأييد عرابى فى القتال ، ولو ترك السلطان وشأنه لما فكر فى اصدار هذا الاعلان لأنه فى خاصة نفسه لم يكن يعطف على الخديو توفيق ، ولا كان يميل الى تثبيت سلطته ، ولكن السياسة الانجليزية الحت وتهددت واستخدمت كل الوسائل ومنها الرشوة لدى رجال المابين حتى اصدر السلطان اعلانه المشئوم .

ولما هزم عرابي في واقعة التل الكبير بادر اللورد « دفرين » الى ابلاغ الباب العالي انه بهزيمة العرابيين لم يعد ثمة موجب لارسال جيش عثماني ، لأن الجيش الانجليزي قد انتهى من مهمة اخماد الثورة ».

فاعلان عصيان عرابي والحرب قائمة هو تدبير منطو على المكر والخبث ، وضعته انجلترا لاضعاف قوة المقاومة في مصر ، وتمكين جيشها من احتلال البلاد ، وهى التى طلبت من السلطان ذلك الاعلان كما تقدم بيانه ».

وقد ابتهج به الخديو وعهد الى سلطان باشا توزيع نسخ من جريدة « الجوائب » التى نشرته ، والاتصال بضباط الجيش المصرى لاطلاعهم عليه ، ووزع عليهم منشورات بهذا المعنى ، وتنقل سلطان باشا فى البلاد لدعوة العمد والأعيان الى مساعدة الانجليز ، ولا جرم ان احدثت هذه المنشورات تأثيرا كبيرا فى حالة الضباط المعنوية .

واقعة القصاصين الثانية ـ ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢

فى صبيحة يوم السبت ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وقعت معركة كبيرة بين المصريين والانجليز ، تعد اكبر وقائع الحرب العرابية ، هجم فيها المصريون بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ـ المعروف بأبى شنب فضة ـ على مواقع الانجليز فى القصاصين يريدون استردادها للمرة الثانية ، واحتدم القتال نحو ثلاث ساعات ، ولكن المعركة انتهت بتراجع المصريين بعدما ان كادوا يوقعون بالجيش الانجليزى ».

وتقرر أن يتحرك محمود باشا سامى البارودى من الصالحية ليلا فيصل الى خط القتال عند مطلع الفجر للاحداق بميمنة العدو ، وقد عمل بترتيب الهجوم رسم سلمت منه نسخة لكل أمير من القواد ، وفى الثلث الأخير من ليلة ٩ سبتمبر قام الجيش على هذا الترتيب ، فلما وصل قريبا من العدو أخذ كل مكانه على خط النار .

خيانة خنفس وأثرها فى المعركة

ولكن العدو كان عالما بما استقر عليه الرأى اذ أطلعهم عليه الأميرالاى على يوسف خنفس (الخائن) فبادر الجيش المصرى باطلاق المدافع ، واحتدم القتال بين الجيشين ، اما جيش الصالحية بقيادة البارودى فانه تأخر عن الميعاد المحدد له ، ولما قرب من مكان الواقعة كان العدو متأهبا لقتاله ، فاطلق عليه مدافعه قبل ان يصل الى مكانه ، فتشتت وولى الادبار ، فمنهم من عاد الى الصالحية ومنهم من ذهب الى معسكر رأس الوادى ، وأما راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى ومن معهما من الجيش فقد ثبتوا ثبات الأبطال حتى آخر النهار ، وجرح راشد باشا حسنى برصاصة فى قدمه ، وجرح على باشا فهمى فى ساقه ، وخسر كل من الجيشين خسارة كبرى من ضرب المدافع والبنادق التى كانت مقذوفاتها كالمطر فى الميدان ، وكانت هذه الواقعة أشد حرب نشبت بين العرابيين والانجليز اذ كانت قوة الجيشين عظيمة وثبات المصريين نادر المثيل .

ويقول جون نينيه عن هذه الواقعة « ان اصابة القائدين الباسلين راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى فيهما كانت لخسارة كبرى منى بها الجيش المصرى لا تقل فى فداحتها عن أسر محمود باشا فهمى » .

ويذكر الستر بلنت نقلا عن رواية المصريين له عن المعركة ان الانجليز موجئوا بهجوم الجيش المصرى ، وكاد الفوق اوف كنوت يقع اسيرا ، ولكن حصل نقص فى تنفيذ خطة الهجوم وذلك انه كان على محمود باشا سامى البارودى ان يتحرك من الصالحية فى الفى مقاتل ليلا ويهاجم فى الصباح ميمنة الانجليز ، ولكنه ضل الطريق ، فلم يصل فى الميعاد ولم يشترك فى المعركة ، وثمة نقص آخر ذكره المستر بلنت وهو ان عرابى كان واجبا عليه ان يشترك فى هذه المعركة ولو فى مؤخرة الجيش ان لم يكن فى المقدمة ، ولكنم جمد فى التل الكبير ، ولم تظهر فى الميدان جميع قوة الجيش التى كان يجب استخدامها ، وكان من عوامل الهزيمة خيانة الضابط على يوسف خنفس .

نتائج الواقعة

كانت هزيمة الجيش المصرى فى واقعة القصاصين الثانية ضربة شديدة كشفت الموقف الحربى ودلت على ضعف الجبهة المصرية امام الهجوم الانجليزى ، وقد ظهر الاضطراب على زعماء العرابيين وبخاصة عرابى ومحمود سامى البارودى وبدأ اليأس يتسرب الى قلوبهم ، وادرك عرابى بعد فوات الفرصة انه لو سد قناة السويس عند ابتداء الحركات العدائية لما بلغ الانجليز الاسماعيلية بهذه السرعة ، وما تقدموا فى داخل البلاد بهذه السهولة ، فأخذ بعالج الموقف فى كثير من التردد واليأس ، وبدا بعد واقعة القصاصين فى ارسال الجرحى الى العاصمة اذ اقلتهم القطر الخاصة الى العباسية ، ومنهم القائدان الباسلان راشد باشا حسنى ، وعلى باشا فهمى ، واستدعى على باشا الروبى قومندان موقع مريوط ليتولى قيادة جيش رأس الوادى ، فحضر عصر يوم الثلاثاء

١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ؛ واخذ يتفقد مواقع الجيش فى التل الكبير الذى اصبح بعد واقعة القصاصين هدف الانجليز فى هجومهم .

معركة التل الكبير – ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢

تقع شرقى محطة التل الكبير على الضفة اليسرى لترعة الاسماعيلية هضبة تعلو السكة الحديد بثلاثين مترا وتمتد بانحدار خفيف نحو « الصالحية » ونحو « القصاصين » ؛ وكانت خطوط الدفاع المصرية « فى التل الكبير » تبتدى من السكة الحديدية ، وتمتد بطول ستة كيلو مترات متجهة من الجنوب الى الشمال ، ويحمى معاقل الجند خنادق جافة عرضها من مترين الى ثلاثة وعمقها متر أو متران ، ووراء الخطوط الامامية خطوط أخرى تمتد الى معسكر التل الكبير الواقع على السكة الحديدية ، ولم يكن عرابى قد اتم خطوط الدفاع قبل نشوب المعركة ، ولم تكن هى ذاتها محكمة الوضع ، لأنها اقيمت على عجل ، وليس بها العدد الكافى من الجند لصد هجمات الأعداء .

وكان الجيش المصرى فى التل الكبير كما قدره الجنرال ولسلى مؤلفا من ٢٤ طابورا وثلاثة الايات من الفرسان وستة آلاف من البدو ، وكان عرابى يشرف على حركات القتال ، ولكنه لم يتول القيادة الفعلية التى عهد بها الى على باشا الروبى ، وبلغت مدافع هذا الجيش من ٦٠ الى ٧٠ مدفعا .

ويقول المستر بلنت : « ان جيش عرابى بالتل الكبير لم يكن يزيد على عشرة الاف أو اثنى عشر الف جندى ، والباقون كانوا من المجندين الأحداث الذين لم يسبق لهم اطلاق بندقية واحدة ، اضف الى ذلك ان خيرة الجنود لم يكونوا بالتل

الكبير

الكبير ، بل كانوا في كفر الدوار بقيادة طلبه باشا عصمت ؟ أو في دمياط بقيادة عبد العال باشا حلمي ، وهؤلاء لم يشتركوا قط في المعركة » .

وكان من حسن التدبير أن يستدعى عرابي على الألف الآلاي المرابط في دمياط لأنه كان يحتوى على خيرة الجند المدربين ، ولكنه لم يعمل ، ولم يأت من هذا الآلاي سوى أورطتين مع مسيس الحاجة اليه ، وعهد عرابي بالقيادة في معركة التل الكبير الى على باشا الروبى ، ولم يكن على حظ ما من الكفاية الحربية ، أضف الى ذلك أنه كان الى ما قبل المعركة قائدا لفرقة مريوط واستدعاه عرابي الى التل الكبير بعد اصابة راشد باشا حسنى في القصاصين ، فحضر قبل الواقعة بيوم واحد ، وهو وقت لا يكفى لتعرف مواقع القتال في تلك الناحية ووضع الخطط الصالحة للدفاع .

وزحف الجنرال ولسلى على التل الكبير في أحد عشر الفا من المشاة و ٢٠٠٠ من الفرسان ومعه ستون مدفعا ، وكان الهجوم من الناحية الشمالية للتل الكبير اذ كانت أصلح للزحف من الجهة الجنوبية المكونة من اراض زراعية تخترقها الترع والأقنية وتعوق سير الجنود ، واعتزم الزحف ليلا لكي يوفر على جنوده عناء المسير في شمس النهار المحرقة وسط رمال الصحراء وفي ارض مكشوفة ، وقد رجح عنده الزحف في الظلام مالاحظه حين كان يستطلع مواقع المصريين في التل الكبير من أنهم لا يضعون الطلائع أمام الاستحكامات الا من الساعة الخامسة صباحا ، وهذا نقص كبير في الدفاع ؟ فأراح ولسلى جيشه يوم ١٢ سبتمبر .

وفي مساء هذا اليوم تأهب للزحف ، ولما جن الليل بدأ الجيش الانجليزى يتحرك من القصاصين في منتصف الساعة الثانية صباحا ، وكان الظلام حالكا ، واصدر الجنرال ولسلى

تعليماته بان تطفأ كل الانوار اثناء السير ، حتى لا يشعر العرابيون بزحفه ، وكان يتقدم الجيش بعض ضباط الاسطول الذين لهم دراية بالاسترشاد بالنجوم لمعرفة خط السير في الصحراء ، ولكن هؤلاء لم يكن في استطاعتهم الاهتداء في مسالك الصحراء ، بل كان المرشدون الحقيقيون مع الأسف لفيفا من ضباط اركان حرب المصريين من حزب الخديو توفيق ، وبعض عربان الهنادى ممن اشترى الانجليز ذممهم واتخذوهم عيونا لهم وجواسيس .

ومن العجيب ان يقطع الجيش الانجليزى المسافة بين القصاصين والتل الكبير وهى تبلغ خمسة عشر كيلو مترا ـ دون أن تصادفهم طلائع المصريين ، ولو كان الدفاع محكما لما فات عرابى أن يجعل لجيشه طلائع على مسافات بعيدة ينبئونه بحركات الجيش الانجليزى ، واستمر الانجليز فى زحفهم حتى مطلع الفجر ، وعندئذ صارت كتائبهم على مسافة ١٥٠ ياردة من التل الكبير ، وقد فوجيء المصريون بالهجوم اذ كانوا نائمين بعد أن سهروا فى سماع ذكر ارباب الطرق ، فاستيقظوا على صوت البنادق ، ولم يكد هؤلاء يضربون نفير الحذر حتى امر الجنرال ولسلى جنوده بالهجوم ، فابتدأ فى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحا وكان على شكل نصف دائرة احاطت بمعسكر العرابيين ، فاقتحمت الجنود الانجليزية الاستحكامات الامامية ، واطلق رماتها القنابل والبنادق عليهم ، وقتل منهم فى هذه الهجمة نحو مائتين قبل أن يصلوا الى الخنادق .

ولكن الهجوم كان فجائيا شديدا ، فاستولى الانجليز على الاستحكامات الامامية ، وبعد هنيهة هجموا على خط

الاستحكامات الثانى ، واتجهت فرقة منهم تجوس خلال الاستحكامات ففتكت بنادقهم بالمصريين فتكا ذريعا ، وهجم فرسان الجيش البريطانى بقيادة الجنرال « دزورى لو » على ميسرة العرابيين متجهين صوب محطة التل الكبير ، فاحدقوا بها ؛ واخذ المصريون على غرة فى الميمنة والميسرة ، وصمد للدفاع الآبان من السودانيين بقيادة الاميرالاى محمد عبيد ، وظلوا يدافعون الانجليز حتى استشهد معظمهم وقتل قائدهم البطل محمد عبيد ، واستبسل ايضا فى القتال الاى من البيادة بقيادة احمد بك فرج ، والاى عبد القادر بك عبد الصمد ، وكذلك ابلى اليوزباشى حسن افندى رضوان (الفريق حسن باشا رضوان فيما بعد) بلاء حسنا فى الواقعة اذ كان قومندانا للطوبجية ، فلما فوجىء المصريون بهجوم الجيش الانجليزى اختل نظامهم ، لكن اليوزباشى حسن رضوان صمد للمهاجمين واخذت مدافعه تصلى الانجليز نارا حامية وكبدتهم خسائر جسيمة ، وجرح هو فى تلك الواقعة وقد اعجب الجنرال ولسلى ببسالته وترك له سيفه احتراما له ؛ ولم يزد عدد الجنود الذين اشتركوا فى المعركة على ثلاثة آلاف ، اما الباقون فقد تولاهم الذعر فالقوا اسلحتهم ولاذوا بالفرار ، ولم تدم المعركة اكثر من عشرين دقيقة لم تزد خسائر الانجليز فيها على ٥٧ قتيلا منهم ٩ ضباط و ٤٨ صف ضابط وجنديا و ٤٠٢ جرحى منهم ٢٧ من الضباط ، أما خسائر المصريين فقد تراوحت بين ١٥٠٠ قتيل او ٢٠٠٠ ، وغنم الانجليز مدافع المصريين واستولوا على جميع مهمات الجيش وذخائره ومؤونته

كانت معركة التل الكبير سلسلة لخسائر انتهت بهزيمة الجيش المصرى ، لم يحصل فيها قتال بالمعنى الصحيح الا من ثلاثة آلاف من الجند ، وكانت فيما عدا ذلك اشبه بمهزلة أو

مأساة ، فهي صفحة محزنة من تاريخ مصر الحربي والقومي ، وقد خلت من البطـولة التي كان يمكن أن تغير من مصـير المعركة او تخفف من غضاضة الهزيمة وتقوى روح المقاومة في البلاد .

اسباب الهزيمة

وينسب المسيوجون نينيه الذى كان شاهد عيان لهذه الحوادث هزيمة التل الكبير الى خيانة سلطان باشا ، ويقول المستر بلنت ان الأميرالاى عبد الرحمن حسن الذى كان معهودا اليه حراسة المقدمة غير من مواقع الحرس خصيصا لكي يفتح الطريق للانجليز ، وأن اميرالايا آخر وهو على يوسف خنفس كان على قيادة خطوط الخنـادق المتوسطة فارشـد الانجليز الهاجمين بان وضع المصابيح فى نقطة من الاستحكامات أخلاها من جنودها لكي يهتدى بها الانجليز .

نتائج الهزيمـة

بلغ عرابى العاصمة ظهر يوم الهزيمة ـ الاربعاء ١٣ ستبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وكان اعضاء المجلس العرفى مجتمعين منـذ ساعات طويلة فى « قصر النيل » ينتظرون انباء المعركة وبقى يعقوب باشا سامى ملازما مكتب التلغراف دون ان يكاشف أحدا بما كان يتلقاه من الاخبار الى ان انبأ الحاضرين ان ناظر الجهادية « عرابى» قادم على عجل الى العاصمة ، فايقنوا انها الهزيمة لا محالة .

وبعد قليل جاء عرابى يصحبه على الروبى ، وكان وجهه مكفهرا وعلائم الاضطراب بادية عليه ، فجلس على مقعده وظل صامتا لا يتكلم مدة عشرين دقيقة ، ثم عقد مجلس حافل فى قصر النيل من أعضاء المجلس العرفى وبعض الأمراء والكبراء » واخذ عرابى يشرح لهم أسباب الهزيمة وكيف فوجىء بهجوم الانجليز ، ونسب الى الجند عدم اطاعة اوامره فى القتال » ثم استشار الحاضرين فيما يجب عمله ، وهل يجب الاستمرار فى المقاومة أم ان الصواب فى التسليم ، فاختلفت الاراء » وكثر اللغط ، وتشعبت أفكار القوم ، ثم قام الأمير ابراهيم احمد ابن عم الخديو توفيق وحث على الاستمرار فى المقاومة قائلا : « ان القاهرة غاصة بالجند ومخازن الحربية ملاى بالسلاح والذخيرة والميرة ، ووسائل الدفاع متوافرة » والواجب هو الدفاع مادام فينا بقية ».، فاستحسن الحاضرون قوله ظاهرا ، ولكن نفوسهم كانت قد دب اليها اليأس وجنحت الى التسليم ، واستقر الراى فى هذا الاجتماع على انشاء خط دفاعى فى ضواحى العاصمة .

وانفاذا لهذا الراى ذهب عرابى الى العباسية يصحبه محمد مرعشلى باشا باشمهندس الاستحكامات ومحمد رضا باشا قائد لواء الفرسان واللواء حسن باشا مظهر لاختيار الموقع الملائم لخط الدفاع ، وطلب من محمد مرعشلى باشا وضع تصميم لانشاء خط دفاعى امام المطرية شرقى عين شمس ، ثم ذهبوا الى مركز الطوبجية ».

قال عرابى فى هذا الصدد : « واردنا استعراض العساكر الموجودة هناك فلم نجد الا الف رجل من خفراء البلاد بغير ضباط ، ونحو اربعين نفر سوارى فى مركز عساكر الخيالة مع الميرالاى احمد بك نير ، فقال الميرالاى المذكور انه يقف فى وجه العدو يقاتله برجاله الأربعين حتى يموت معهم »

ولكن ما الفائدة وليس لدينا جيش يقوى على الدفاع ؟ فلما شاهدنا ذلك علمنا ان الاولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من غوائل الحرب والدمار » .

ثم رجع عرابي ومن معه الى المجلس العرفي بقصر النيل وأخبر الحاضرين بما شاهده ، فاستقر رأى الحاضرين على التسليم وكتابة عريضة الى الخديو يلتمسون فيها العفو عنهم ويقدمون له الخضوع ويعتذرون عن أفعالهم الماضية ، فحرروا العريضة وامضاها عرابي ومن معه ، وارسلوها مع وفد مؤلف من محمد رؤوف باشا حكمدار السودان السابق ، وبطرس غالي باشا وكيل الحقانية ، وعلى باشا الروبي ، ويعقوب سامي باشا ، ورؤوف باشا هو الذى تولى فيما بعد رياسة المحكمة العسكرية التي حكمت على عرابي وصحبه بالاعدام .

احتلال الانجليز العاصمة

١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

لم تكد تنتهي معركة التل الكبير بما انتهت اليه حتى امر الجنرال ولسلي فرقة الفرسان بقيادة الجنرال « درورى لو » أن تبادر بالزحف على القاهرة لاحتلالها ، وأمر الجيش الهندى بقيادة الجنرال مكفرسن Mack'ferson باحتلال الزقازيق لمنع الجيش المصرى من استخدامها قاعدة لمواصلات السكك الحديدية ، فسار الفرسان نحو بلبيس واحتلوها ظهر يوم الخميس ١٣ سبتمبر ، وحجز بها الجنرال درورى لو البرقيات التي اعدها عرابي الى مديريات الوجه البحرى بحشد الجنود لمقاومة زحف الجيش البريطانى . واحتل

الجنرال مكفرسن الزقازيق في ذلك اليوم دون مقاومة واستولى فيها على خمسة قطارات مشحونة بالذخيرة والمؤن .

واستأنف الجنرال دروري لو الزحف قاصدا العاصمة يوم الخميس ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ . فتحرك من بلبيس في منتصف الساعة الخامسة صباحا في قوة لا يمكن ان تكفي في الاوقات العادية لاحتلال العاصمة ، ولكن هزيمة التل الكبير قد قضت على روح المقاومة .

بلغ الجنود الانجليز العباسية في نحو الساعة الرابعة مساء وعسكروا في ثكنات الفرسان بها . وارسل الجنرال دروري لو الى محمد رضا باشا قائد الجند بالعباسية يطلب اليه تجريد الجنود المصريين من أسلحتهم . وكان عرابي وصحبه مجتمعين في دار علي باشا فهمي الذي كان لم يزل جريحا ملازما بيته بعد اصابته في معركة القصاصين . فتلقى في نحو الساعة السادسة مساء برقية من قائد العباسية بوصول طلائع الانجليز . فارسل عرابي يأمره بالتسليم للقائد البريطاني .

ولما انفض الاجتماع خرج عرابي بصحبه طلبه باشا عصمت ومحمود سامي باشا البارودي والمسيو جون نينيه . فأشار عليهم المسيو نينيه بأن يسلموا انفسهم كأسرى حرب للقائد البريطاني . فعمل عرابي وطلبه بنصيحته . وتهيأ الاثنان للذهاب الى العباسية لكي يسلما نفسيهما للجنرال دروري لو اما محمود سامي البارودي فلم يقبل هذه النصيحة وقال : « اني ذاهب الى منـزلي فاذا ارادوني فانهم يعرفون أين يجدونني » . وذهب عرابي الى منزله بصحبه طلبه باشا والمسيو نينيه . واخذ يتأهب لتسليم نفسه . فلبس رداءه العسكري واخذ سيفه . وفي نحو الساعة التاسعة مساء

وركب عربة بصحبه طلبه باشا . وامر سائقها بالتوجه الى ثكنات الجيش بالعباسية ، فلما بلغاها جيء بهما الى الجنرال درورى لو . فسلما سيفيهما اليه . فأمر باعتقالهما فى غرفة من غرف الثكنة . وسارت كتيبة من الفرسان البريطانيين ليلا الى القلعة من طريق الجبل واحتلتها ، وسلمت الحامية المصرية .

وتولى تسليم القلعة الاميرالاى على يوسف خنفس ذلك الخائن الذى فتح لهم الطريق فى واقعة التل الكبير .

واحتل الانجليز أيضا قصر النيل وقشلاق عابدين . وسلم الجنود الذين كانوا بهما اسلحتهم . فكان ذلك ايذانا باحتلال العاصمة .

وقد خرج بعض الاهلين من سكان باب الشعرية والحسينية يحملون الهراوات بقصد محاربة الانجليز . ولكن محافظ العاصمة ابراهيم بك فوزى رأى فى هذه الحركة عملا لا يجدى ولا يؤدى الا الى سفك الدماء . فردهم واخذ يراقب حركاتهم منعا لوقوع الاحتكاك بين الانجليز والاهلين .

واحتل الانجليز بعد ذلك مواقع الدفاع الاخرى دون مقاومة ففى كفر الدوار حين علم ضباط الجيش فى مواقع الدفاع الاخرى بسقوط التل الكبير واستسلام عرابى استسلموا مثله . وقد علم طلبه باشا عصمت فى كفر الدوار بالهزيمة يوم وقوعها . فسافر على عجل الى العاصمة فبلغها مساء ١٣ سبتمبر . والتقى بعرابى وسلم نفسه معه الى القائد درورى لو .

ولما علم الجند بسفره تركوا أسلحتهم لضباطهم وتشتتوا ذاهبين الى بلادهم . وكذلك فعل العربان . وحضر السير افلن وود Evelon wood احد قواد الجيش البريطانى

ــ الـذى عين قيمـا بعـد سردارا للجيش المصرى ــ فى ١٦ سبتمبر على رأس كتيبة من الجند الى موقع الحصن المنيـع الذى انشأه عرابى ، وكان اول خطـوط الدفاع . ويعـرف بعزبة « اصلان » فاحتله . وكان يصحبه الى ذلك المكان ضابط من اركان حربه وآخرون من قبل الخديو . وأمـر بنسف الحصن . فنسـف وسلم الضباط المصريون اسلحتهم . واعلنوا طاعتهم للخديو . واستولى الانجليز فى كفر الدوار على ما بها من المدافع والبنادق والذخائر ».

وحين علم محمود سامى باشـا البـارودى قائد موقـع الصالحية بالهزيمة ، تركها ومن معه من الضباط والجنـود وركبوا قطرات السكة الحديدية الى المنصورة ومنها الى طنطا ثم الى ايتاى البارود فكوم حماده فبولاق الدكرور ، وانحل نظام الجند ، وتوجه كل منهم الى بلده ، وأرتأى البارودى وجوب استمرار الدفاع مع اخلاء القاهرة والانسحاب بالجيش الى الصعيد ثم الى السودان اذا اعجزهم الدفاع ، وارسل الى عرابى برقية من المنصورة يطلب منه اغراق مديريتى القليوبية والشرقية لتعطيل زحف الجيش الانجليزى ، ثم الاستيلاء على جميع المراكب فى النيل وشحنها بالـذخيرة وتوجيههـا الى الصعيد مع الجيش ، ولكن عرابى رفض العمل بهذا الرأى وأصر على التسليم ، وسجن البارودى بالقاهرة ضـمن من سجن من العرابيين ».

وتسلم الانجليز حصون رشيد ، وتوقفت حامية أبو قيـر عن التسليم فأرسل اليها الخديو يوسـف شـهدى باشـا فسلمت ، وسلمت كذلك حامية مريوط ، ثم حامية دمياط ثم

تاليف وزارة شريف (الرابعة)

تبين فى غضون الحوادث السابقة أن وزارة اسماعيل راغب لا قبل لها بمواجهة المشاكل التى استهدفت لها البلاد وانها أضعف من ان تقوم بأعباء الحكم وسط هذه العواصف المختلفة؛ فاستقالت لذلك ، واستدعى الخديو رياض من اوروبا فقدم منها فى اواسط شهر اغسطس سنة ١٨٨٢ ، وبعد قدومه عهد الى شريف باشا تأليف الوزارة ، فلبى دعوته والف الوزارة على النحو الآتى :

شريف للرياسة والخارجية . رياض للداخلية . عمر لطفى للحربية والبحرية . على حيدر للمالية . على باشا مبارك للأشغال . احمد خيرى للمعارف . حسين فخرى للحقانية . محمد زكى للأوقاف .

المحاكمة

اعتقل زعماء الثورة العرابية ، واعتقل انصارها كثيرون من الضباط والاعيان ، والقوا فى السجون رهن التحقيق والمحاكمة ، وكثرت السعايات والوشايات ، فاخذ المغرضون يشون بخصومهم بتهمة أنهم كانوا من الخارجين على الخديو ، حتى امتلأت السجون بالمتهمين ، وبلغ عدد المقبوض عليهم أكثر من ٢٩٠٠٠ نفس .

ووضعت الحكومة يدها على جميع زعماء الثورة ، ما عدا السيد عبد الله نديم ، فانه اختفى عن الانظار ولم تستطع عيون الحكومة ان تعرف مقره ، وقبض على كبار الضباط المعروف عنهم التشيع لعرابى أو الذين اشتركوا فى حوادث

الثورة ، وغصت السجون بكبار المعتقلين نذكر منهم : عرابي ومحمود سامي البارودي ومحمود فهمي ويعقوب سامي وطلبة العال حلمي وعلي فهمي وطلبه عصمت (السبعة الزعماء) وحسن باشا الشريعي وزير الأوقاف في وزارتي راغب والبارودي ، وعبد الله باشا فكري وزير المعارف في وزارة البارودي .... الخ

وقد حوكم عرابي وصحبه أمام محكمة عسكرية مصرية بتهمة عصيان الخديو ، واهتم بأمره منذ القبض عليه المستر ولفرد بلنت المستشرق الانجليزي الذي ناصره منذ ابتداء الحركة والمشهور بمناصرته لمصر والمصريين ، وسعى جهده في انقاذ عرابي من الاعدام ، ولم يكن هذا المسعى من صالح عرابي في شيء ، لأن حياته في الواقع لم تكن لها قيمة بعد الهزيمة ، وقد اختار له مستر بلنت مع السلطات الانجليزية اثنين من المحامين الانجليز وهما المستر برودلي Broadley والمستر نابييه Napier للدفاع عنه أمام المحكمة العسكرية .

واستقر رأي الانجليز على أن يقدم عرابي وصحبه أمام المحكمة العسكرية بتهمة عصيان الخديو ، واستبعاد تهمة مذبحة الاسكندرية وتهمة احراقها ، وأن يعترفوا بجرمهم ، وان يستبدل الخديو بحكم الاعدام النفي المؤبد ، وأن يصدر بعد ذلك مرسوم بمصادرة أملاكهم مع عدم المساس بأملاك زوجاتهم ، وان تقرر الحكومة لكل منهم معاشاً يفي بحاجاتهم مع حرمانهم من رتبهم والقابهم ، فارتضى العرابيون هذا المصير ، وعلى ذلك جرت المحاكمة ، وكانت بعد الاتفاق المتقدم ذكره محاكمة صورية عرفت نتائجها قبل انعقاد المحكمة ، ولم تدم سوى يوم واحد ، اذ انعقدت المحكمة العسكرية برئاسة محمد رءوف باشا يوم ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ بوزارة الاشغال بقاعة مجلس الشيوخ السابق ـ الساعة التاسعة ونصف

متـباحا لمحاكمـة عـرابى اولا ، ولم يكن الجمهـور يعـلم بالوعد المحـدد لانعقـادها ، فلم يحضـر الجلسة سوى نحو اربعين من النظارة ، منهم عشرون من مراسلى الصحف ، وكان مقررا أن يتولى الاتهام امام المحكمة العسكرية المسيو بوريللى Borelli رئيس قلم قضايا الحكومة، ولكنه تنحى عن الجلوس فى مركز المدعى العمومى . اذ رأى أن المحاكمة مهزلة متفق عليها من قبل ، فجلس بدله قومندان الحامية الانجليزية فى التحقيق ، واخذ مجلسه قريبـا من المكان الذى اعد لعرابى ، وبعد أن اخذ اعضاء المحكمة مجالسهم مرتدين ملابسهم الرسمية جىء بعرابى من السجن .

وكان قبلَ مجيئه قد وقع على وثيقتين ، الأولى يعتـرف فيها بارتكابه جريمة العصيان ، ويتعهد فى الثانية بان لا يبرح الجهة التى تعينها الحكومة الانجليزية لمنفاه .

دَخَلَ عرابى قاعة الجلسة مرتديا بدلة عادية ، وجلس فى المقعد الذى خصص له ، وجلس محامياه الى جواره ، فتلا عليه رءوف باشا رئيس المحكمة ورقة الاتهام مخاطبا اياه بما يأتى :

« احمد عرابى باشا . أنت متهم أمام هذه المحكمة بناء على طلب لجنة التحقيق بجريمة العصيان ضد الجناب الخديـو مخالفا المادتين ٩٦ من القانون العسكرى العثمانى و ٥٩ من قانون الجنايات العثمانى فهل تقر بالتهمة ام لا ؟ »

فأجاب عرابى : « ان محاميى سيجيبان بالنيابة عنى » .

فتلا المستر برودلى بالفرنسية ورقة أمضاها عرابى و فيها يعترف بجريمة العصيان ، وتلا كاتب الجلسة صـيغتها العربية .

وعندئذ قرر رءوف باشا بان المحكمة ستختلى للمداولة وان الجلسة اوقفت على ان تنعقد فى الساعة الثالثة بعد الظهر .

وانعقدت المحكمة فى الموعد المذكور ، وكان عدد الحاضرين فى هذه المرة كبيرا ، فلما فتحت الجلسة امر رءوف باشا كاتب الجلسة بتلاوة الحكم ، فتلاه ، وهو يقضى على عرابى بالاعدام ، وتلا عقب صدور الحكم الأمر الخديو بابدال الاعدام بالنفى المؤبد . واستغرقت تلاوة الحكم وامر الخديو بتعديله عشر دقائق . ثم انفضت الجلسة .

وحوكم زملاء عرابى الستة وهم : محمود سامى البارودى ، ومحمود فهمى ، ويعقوب سامى ، وعبد العال حلمى ، وعلى فهمى الديب ، وطلبه عصمت بالطريقة التى حوكم هو بها . أى انهم اعترفوا بجريمة العصيان ، وقد رفض على الروبى ان يدافع عن نفسه بواسطة المستر برودلى . ورفض الاقرار الذى كتبه عرابى فلم يحاكم معهم ، وصدر الأمر بنفيه عشرين سنة فى مصوع .

وفى ٧ ديسمبر اجتمعت المحكمة لمحاكمة كل من : طلبه عصمت ، وعبد العال حلمى ، ومحمود سامى البارودى ، وعلى فهمى الديب فحكمت عليهم بالاعدام . وتلا رئيس الجلسة امر الخديو بتعديله الى النفى المؤبد ايضا .

وفى ١٠ ديسمبر حوكم محمود فهمى ، ويعقوب سامى فحكم عليهما ايضا بالاعدام . مع تعديل الحكم الى النفى المؤبد .

واصدر الخديو امرا فى ١٤ ديسمبر بمصادرة املاك الزعماء السبعة المحكوم عليهم واموالهم . وحرمانهم حق امتلاك اى ملك فى الديار المصرية بطريق الارث او الهبة او

البيع او بأي طريقة ما ، مع ترتيب معاش مستوى لهم يقابل الضروري لعيشتهم . وقضى هذا المرسوم ببيع املاكهم ، وما ينتج من هذا البيع من صافي الثمن يخصص لسداد التعويضات التي ستعطى لمن اصيبوا في حوادث الثورة

وفي ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٢ صدر أمر خديوي آخر بتجريد السبعة الزعماء من جميع الرتب والالقاب وعلامات الشرف التي كانوا حائزين لها .»

تنفيذ الحكم في عرابي وزملائه

اختارت الحكومة الانجليزية جزيرة « سيلان » بالهند منفى للزعماء السبعة ، فاجتمعوا في سجن الدائرة السنية يوم ١٣ ديسمبر ليتداولوا في تجهيز معدات الرحيل ، وفي ٢٥ ديسمبر نفذ في الزعماء حكم التجريد من رتبهم والقابهم ، بان جمعوا في الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم في ساحة « قصر النيل » وتلا عليهم علي غالب باشا وكيل وزارة الحربية امر التجريد . واعدت الحكومة لرحيل الزعماء الباخرة « مريوكس » مربوط » وهي باخرة انجليزية حمولتها ٤٠٠٠ طن استاجرتها خصيصا لنقل الزعماء وذويهم وحاشيتهم الى جزيرة سيلان . وانزلتهم فيها بالدرجة الاولى . وعهدت الى الكولونل موريس وهو ضابط انجليزي كان في خدمة الحكومة ان يرافقهم حتى يصلوا الى منفاهم .

ففي مساء ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ اعدت لهم قطارا خاصا في ثكنة قصر النيل لنقلهم الى السويس . فركبوه هم ومن اختاروهم من الاهل والخدم . وودعهم المستر برودلي محاميهم على رصيف القطار . وحضر سفرهم السير شارلس ويلسن مندوب السلطة الانجليزية . وتحرك بهم القطار في الساعة

مباشرة مساء ورافقهم الى السويس المستر نابييه . وكان حرستهم رهط من الجنود المصريين وآخرون من الجنود الانجليز . فبلغوا ميناء السويس الساعة الثامنة من صبيحة يوم ٢٨ ديسمبر وهناك ركبوا الباخرة « مريوتس » واقلعت بهم فى الساعة الواحدة بعد الظهر الى ثغر كولمبو مينـــاء سيلان فوصلوا اليه مساء ٩ يناير سنة ١٨٨٣ ، ونزلوا الى البر فى صبيحة اليوم التالى ».

عودة الخديو الى العاصمة

فى ظل الرماح الانجليزية

أخذ الخديو توفيق بعد واقعة (التل الكبير) يتأهب للعودة الى القاهره ودخولها دخول الظافر المنتصر . والواقع انه لم يكن ثمة ظفر ولا انتصار الا للجيش البريطانى ، وأن الخديو لم يعد الى عاصمة ملكه الا بحماية الانجليـــز ، وفى ظلال سيوفهم ورماحهم ، واذا كان قد تغلب على عرابى وصحبه فانه فى الوقت نفسه قد أفقد العرش بهاءه ومجده .

وقد قضى عشرة ايام بالاسكندرية بعد سقوط التل الكبير ثم اعتزم العودة الى القاهرة ، فجاءها بقطاره الخاص يـــوم الاثنين ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ (١٢ ذى القعدة سنة ١٢٩٩) ، وبعد أن لبث الخديو هنيهة فى المحطة غادرها فى موكبـــه الى سراى الاسماعيلية .

وبدا على هذا الموكب طابع الاحتلال وظواهره المهينة ، فلم يركب مع الخديو فى مركبته سوى الدوق اوف كنوت ، وقد جلس عن يساره ، والجنرال ولسلى والسير ادوار مالت ، وقد جلسا امامهما ، واصطفت الجنود الانجليزية على جانبى

الطريق من المحطة الى شارع فندق شبرد ، ومنه الى قصر عابدين . ومنه غربا الى سراى الأمير محمود شقيق الخديو ، ثم الى سراى الاسماعيلية ، وبلغ عددها نحو خمسة آلاف جندى ، فكان اصطفافهم على هذا النحو وبهذه الكثرة ايذانا بخيانة الخديو اذ دخل عاصمة ملكه فى حماية الجيش الانجليزى او فى اسره ، فلا غرابة ان شبه الوطنيون هذه العودة برجوع الملك لويس الثامن عشر الى فرنسا حين دخل الحلفاء باريس سنة ١٨١٥ ، كما شبهوا ذهابه من قبل الى الاسكندرية فى يونية سنة ١٨٨٢ بفرار لويس السادس عشر الى (فارين) Varennes ابان الثورة الفرنسية .

وسار وراء المركبة الخديوية الدوق أوف تك راكبا جواده ، تتبعه كتيبة من الفرسان الانجليز ، وتبعه الوزراء والامراء والعلماء وكبار المستقبلين ، وسار الموكب على هذا النحو المهين حتى بلغ سراى الاسماعيلية . فأطلقت المدافع ايذانا بوصوله .

وفى اليوم التالى (الثلاثاء ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٨٢) ذهب الى سراى الجزيرة ، وهناك استقبل وفود المهنئين من الوطنيين والاجانب ، وزينت المدينة يوم وصوله واستمرت الزينات ليلتين اخريين ابتهاجا بمقدمه .

مظاهر غير وطنية

ان استعادة الخديو سلطانه بواسطة الجيش الانجليزى واستقراره على العرش برعايتهم قد اوجد فى البلاد جوا نفسيا يتنافى والاخلاق الوطنية ، او بعبارة اخرى ان جوا

فاسدا

من الانحلال الخلقى والوطنى قد بدأ يخيم على البلاد ، وبدت فى افقها مظاهر غير وطنية ، لا نرى بدا من تدوينها مع شديد الاسف ، فبينما كان وجنود جيش اجنبى يحتل العاصمة مما يستثير روح السخط فى نفوس الشعب ، اذا ببعض ذوى الشخصيات البارزة فى المجتمع وقتئذ يتقدمون بهدايا الى قواد الجيش الانجليزى لقاء انتصارهم فى القتال !

١ ـ تقديم هدايا للقواد البريطانيين

وتفصيل ذلك انه فى يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وفد على وزارة الداخلية رهط من الاعيان والعمد ، يتقدمهم محمد سلطان رئيس مجلس النواب وقابلوا رياض (وزير الداخلية) وابلغوه عزمهم على تقديم هدية فاخرة من السلاح الى كل من الاميرال سيمور قائد الاسطول الانجليزى (الذى دمر الاسكندرية بقنابله) والجنرال ولسلى القائد العام للجيش البريطانى والجنرال (دروري لو) الذى كان اول من دخل العاصمة بعد سقوط التل الكبير ، وطلبوا من رياض ان يأذن لهم فى تقديم ماعزموا على اهدائه للقواد المذكورين « شكرا لهم على انقاذ البلاد من غوائل الفئة العاصية » على حد تعبيرهم ، فأذن لهم بذلك ، واعتزم اولئك المنافقون تأليف لجان فى المديريات ، لجمع الاكتتابات لهذا الغرض ، ثم عدلوا عن ذلك وقدموا الهدايا من مالهم الخاص ، وتم اصطناع الهدايا بعد رحيل القواد الثلاثة ، فقدمها وزير الداخلية وقتئذ (اسماعيل ايوب) يوم ٢٢ يناير سنة ١٨٨٣ الى السير ادوار مالت قنصل انجلترا العام ليوصلها الى القواد الثلاثة ، فبعث بها اليهم .

وفى ابريل سنة ١٨٨٣ وصله من الجنرال ولسلى خطابان يرجوه فى أولهما أن يبلغ شكره الى سلطان باشا والى اعضاء

مجلس النواب واعيان القطر على هديتهم . وفى الخطــاب الثانى يخص بالشكر سلطان باشا ومحمد بك الشـــواربى (باشا) وعبد الشهيد افندى بطرس وعبد السلام بك المويلحى (باشا) ومحمود بك سليمان (باشا) واحمد بك السيوفى (باشا) على خطابهم الذى قدموا به هديتهم . فارسل السير ادوار مالت صورة الخطابين الى سلطان باشا . وارسل اليه ايضا خطابا آخر وصله من الجنرال (دروری لو) يتضــمن شكره وزملاءه على هديتهم .

٢ ـ استعراض الخديو للجيش الانجليزي في ميــدان عابدين

وثانى هذه المظاهر المهينة استعراض الخـــديو للجيش الانجليزى فى ميدان عابدين ، ولعل الانجليز ارادوا بهــذا العرض أن يمحوا أثر تظاهر الجيش المصرى فى ذلك الميدان يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ فى ابان الثورة .

ففى يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٢ جرى هذا العــــرض المهين . واعد للخديو وكبار المدعوين كشـــك فى الميــــدان لمشاهدته . واقبل فى الساعة الرابعة مساء بملابسه الرسمية . وكان الجنرال ولسلى والدوق اوف كنوت ممتطيين جواديهما بجانب الكشك الذى جلس به الخديو ، ووقف بعض الياوران والضباط الانجليز تجاه الكشك .

وفى الساعة الخامسة مساء بــدات صــــفوف الجيش الانجليزى تمر امام الكشك الخديوى ومعهــا موســـيقاها

العسكرية . واستمر العرض نحو ساعة ونصف ساعة الى أن تم مرور الجيش الانجليزي بأجمعه . وابدى الخديو سروره من حسن نظام الجند ومهارة قواده وضباطه .

وانتهى العرض حيث آذنت الشمس بالغروب . فكأنما غربت شمس السماء استنكارا لهذه المناظر المخجلة . كما غربت شمس الكرامة والعزة القومية فى نفوس أولئك الذين اجتمعوا لتكريم جيش الاحتلال .

٣ - مأدبة الخديو للضباط الانجليز

واقام الخديو مأدبة كبرى وحفلة ساهرة بسراى الجزيرة ليلة الثلاثاء ٣ اكتوبر تكريما للقوات والضباط الانجليز . وفى مقدمتهم الاميرال سيمور قائد الاسطول البريطانى والجنرال ولسلى قائد الجيوش الانجليزية والدوق اوف كنوت والدوق دى تك وغيرهم .

وانعم على ستين منهم بالنياشين المختلفة .

٤ - مأدبة رياض

واقام رياض (وكان وزيرا للداخلية) مأدبة عشاء فى سراى وزارتى الداخلية والمالية ليلة ١٩ اكتوبر تكريما للجنرال ولسلى والدوق اوف كنوت ورهط من ضباط الجيش الانجليزى . شرب فيها نخب ملكة الانجليز والجيش البريطانى ، كما شرب الدوق اوف كنوت نخب الخديو ورياض وحذا حذوه الجنرال ولسلى والسير ادوار مالت .

٥ ــ مكافأة سلطان باشا

وكافأ الخديو محمد سلطان على خيانته بأن أنعم عليــه بالنيشان المجيدي من الدرجة الأولى . ثم منحه عشرة آلاف جنيه وذلك « لما أظهره من الصداقة لحكومتنا الخديويــة ومعارضته للعصاة في جميع أمورهم وعزائمهم بالمخاطرة على حياته . وما حصل له بسبب ذلك من الضرر والتعدي منهم على شخصه وأقاربه وأتلاف موجوداته ومقـدار جسيم من مزروعاته » . وقـد أعطى له هـذا المبلغ من الاحتيــاطي « تعويضا للتلفيات التي حصلت له ومكافأة لســعادته على صداقته » .

وأنعمت عليه ملكة انجلترا بوسام سان ميشيل وسان جورج الذي خوله لقب (سير) .

وجملة القول أن البلاد شهدت عقب الاحتلال الانجليزي مظاهر مؤلمة من الاستكانة والاذعان ، وفشت فيها روح النفاق والهوان . وغاض معين الاباء والكرامة والاستقلال ، وكانت هذه المظاهر بمثابة الأثر الأول للاحتلال الانجليزي في نفسية الشعب وأخلاقه .

الزعماء في جزيرة سيلان

اقام عرابي وزملاؤه الستة في جزيرة « سيلان » وكانت حياتهم في المنفى حياة ألم وحزن . وبؤس وشــقاء . إذ قطعت صلتهم بالناس . وطال اغترابهم عن الوطن . وبعدت الشقة بينهم وبين اهليهم وذويهم ، ولم يكترث لهم أحــد ، ولم يعطف عليهم أحد .

وجادت قريحة البارودي بشعر مؤثر في الحنين الى الوطن والحزن لفراقه ، مما يعد آية في البلاغة ، ويدلنا على مبلغ ما عاناه المنفيون من الآلام ، وهو وان كان يصور آلام نفسه وما يجيش به صدره ، لكنه في شعره يصور لنا حالة الزعماء المنفيين من العرابيين عامة .

قال يصف الرحيل من أرض الوطن :

محا البين ما أبقت عيون المها مني
فشبت ولم أقض اللبانة من سني

عناء ويأس واشتياق وغربة
ألا شد ما ألقاه في الدهر من غبن

فإن أك فارقت الديار فلي بها
فؤاد أضلته عيون المها عني

بعثت به يوم النوى إثر لحظة
فأوقعه المقدار في شرك الحسن

الى أن قال :

ولما وقفنا للوداع وأسبلت
مدامعنا فوق الترائب كالمزن

أهبت بصبري أن يعود فعزني
وناديت حلمي أن يثوب فلم يغن

وما هي إلا خطرة ثم أقلعت
بنا عن شطوط الحي أجنحة السفن

فكم مهجة من زفرة الشوق في لظى
وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن

وما كنت جربت النوى قبل هذه
فلما دهتني كدت أقضي من الحزن

ولكنني راجعت حلمي وردني
الى الحزم رأي لا يحوم على أفن

ولولا بنيات وشيب عواطل
لما قرعت نفسي على فائت سني

وتعاقبت السنون على عرابي وزملائه في منفاهم بتلك الجزيرة النائية ، فضاقت صدورهم لطول الغربة ، وعدم العمل اطلاقا ، ورداءة المناخ ، وافتقارهم لمن يعطف عليهم او يسأل عنهم ، فساءت لذلك حالتهم المعنوية ، ووقع الخصام بينهم ، واقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وبدأ الخصام اول ما وقع بين عرابي وطلبه وعبد العال .

وفي سنة ۱۸۹۰ انتقل محمود سامي البارودي بعائلته بعد أن تزوج من كريمة يعقوب سامي الى مدينة « كندي » التي تبعد ٧٤ ميلا عن كولومبو ، وترك عرابي وبقية زملائه بكولومبو متنافرين متخاصمين ، وتبعه يعقوب سامي وقطن « كندي » ، وكذلك فعل طلبه عصمت ، وفي سنة ۱۸۹۲ انتقل اليها عرابي ثم علي فهمي .

مصير عرابي وزملائه

توفي عبد العال حلمي يوم ۱۹ مارس سنة ۱۸۹۱ بكولومبو ودفن بها ، وذهب محمود فهمي الى كندي عاصمة الجزيرة لتبديل الهواء ، وهناك ادركته الوفاة ليلة ۱۷ يولية سنة ۱۸۹٤ ودفن بها .

وفي فبراير سنة ۱۹۰۰ رخصت الحكومة المصرية لطلبه عصمت بالعودة الى مصر اذ ساءت صحته وقررت جمعية من الاطباء انه اذا لم يعد الى بلاده فانه لا يعيش أكثر من خمسة أشهر ، وصادق على هذا القرار حاكم الجزيرة ، فعاد الى مصر ، ولكنه لم يعش أكثر من المدة التى توقعها الاطباء ، وتوفي في ذلك العام ودفن في قرافة الإمام الشافعي

وفى شهر اكتوبر سنة ١٩٠٠ توفى يعقوب سامى ودفن بجوار قبر محمود فهمى بكندى . وكان قد صدر العفو عنه ورخص له بالعودة الى مصر . ولكن وافاه القدر قبل ان يبلغه الحاكم امر العودة .

واصيب محمود سامى البارودى بارتشاح فى القرنيتين افقده نور عينيه ، وقررت جمعية الاطباء لزوم عودته الى مصر لمعالجته فى المناخ الذى ولد فيه والفه ، وصادق على ذلك حاكم الجزيرة . فاصدر الخديو عباس حلمى الثانى امراً بعودته الى مصر . فرجع فى شهر سبتمبر سنة ١٩٠٠ ، وعفا عنه الخديو ومنحه حقوقه المدنية ورد اليه املاكه الموقوفة وحصل على متجمد ريعها من ديوان الاوقاف . ولكن لم يعد اليه بصره . وتوفى فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠٤ .

وفى ١١ يونية سنة ١٩٠١ صدر عفو الخديو عباس ايضاً عن عرابى وعلى فهمى . فبارح على فهمى الجزيرة فى شهر اغسطس سنة ١٩٠١ وجاء القاهرة فى اول سبتمبر . وجاءها عرابى فى اول اكتوبر سنة ١٩٠١ والبلاد تغلى سخطاً على الاحتلال وسياسته لما بدا من الحكومة البريطانية من نقض عهودها فى الجلاء ووضع يدها على حكومة البلاد ومرافقها .
وكانت وفاته يرحمه الله يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١ .

الفصل الحادي عشر

السنوات الاولى للاحتلال البريطاني ، واخلاء السودان

احتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ ، وكان الظن ان يكون احتلالا مؤقتا الى ان يطمئن الخديو توفيق على العرش ، كما اعلنت ذلك غير مرة ، ولكن الحوادث التي ترادفت على البلاد بعد اخماد الثورة العرابية ، واستقرار الخديو على عرشه ، دلت على أن انجلترا انما كانت ترمي بتدخلها العسكري سنة ١٨٨٢ الى جعل احتلالها دائما . وبسط سيطرتها الحربية والادارية والمالية على البلاد . فكانت السنوات الأولى للاحتلال هي سنوات رسوخ قدمها في مصر ، واول عمل لها في هذا السبيل الغاء الجيش الوطني بحجة مناصرته للعرابيين ، وانشاء جيش جديد هزيل خلو من الروح الوطنية ومن القوة المادية والمعنوية يرأسه سردار انجليزي ويتولى قيادته ضباط من البريطانيين ، ثم وضعت يدها على البوليس بتعيين قومندان بريطاني له . وبذلك تمت لها السيطرة على الجيش والبوليس قبل ان يمضي على الاحتلال اربعة اشهر . والغت قوانين الاصلاحات العسكرية ، كما الغت البحرية المصرية ، وسيطرت على المالية بالغاء الرقابة الثنائية ، وتعيين مستشار مالي بريطاني في اوائل سنة ١٨٨٣ ، ووضعت قواعد الحماية المقنعة التي فرضتها على مصر . وقوام هذه الحماية بقاء جيش الاحتلال ، والزام الحكومة المصرية باتباع « نصائحها »

طبقا لبرقية اللورد جرانفيل وزير خارجيتها فى ٣ يناير سنة ١٨٨٣ ، وبرقيته الثانية فى ٤ يناير سنة ١٨٨٤ .

ففى برقيته الاولى المؤرخة ٣ يناير سنة ١٨٨٣ الى الدول العظمى أوضح اللورد جرانفيل Lord Granville مركز بريطانيا فى مصر عقب الاحتلال قال فيها : « انه وان كانت القوات البريطانية باقية فى مصر الى الآن لصيانة النظام العام ، فان حكومة جلالة الملكة تنوى سحبها عندما تسمح بذلك حالة البلاد وتستطيع بوسائلها تثبيت سلطة الخديو ، والى أن يحين ذلك فان مركز حكومة جلالة الملكة بإزاء سموه يقضى عليها ببذل « نصائح » لتتأكد من أن النظام الذى سيوجد يكون مرضيا ويحتوى على عوامل الاستقرار والتقدم » .

واخذت بريطانيا تتبع سياسة « النصائح » فى مصر ، فلما وجدت من محمد شريف امتناعا عن قبولها ، اذ رفض أن يقر اخلاء السودان ، انكشفت السياسة البريطانية ببرقية جرانفيل الثانية التى ارسلها الى افلن بارنج Evelyn Baring (اللورد كرومر) Cromer المعتمد البريطانى فى مصر فى ٤ يناير سنة ١٨٨٤ وأوجب فيها العمل بالنصائح البريطانية ، وقد أرسلها لمناسبة توقف شريف عن تقرير اخلاء السودان مما ادى الى استقالته ، وهذا نص البرقية :

- « ذكرتم فى برقيتكم المؤرخة فى ٢٢ من الشهر الماضى انه فى حالة اصرار حكومة صاحبة الجلالة الملكة على طلب اخلاء السودان ، لا تقبل حكومة الخديو حسب رأيكم تنفيذ هذه السياسة ، ولا أرى حاجة الى أن اوضح لكم أنه من الواجب مادام الاحتلال البريطانى المؤقت قائما فى مصر ، أن تتأكد حكومة جلالة الملكة من ضرورة اتباع النصائح التى ترى اسداءها للخديو فى المسائل الهامة التى تستهدف فيها

ادارة مصر وسلامتها للخطر ، ويجب على الوزراء والمديرين المصريين أن يكونوا على بينة من أن المسئولية الملقاة الآن على عاتق الحكومة البريطانية تضطرها الى أن تصر على اتباع السياسة التي تراها ، ومن الضروري أن يتخلى عن منصبه كل وزير أو مدير لايسير وفقا لهذه السياسة ، وان حكومة جلالة الملكة لواثقة من أنه اذا اقتضت الحال استبدال احد الوزراء فهناك من المصريين سواء من شغلوا منصب الوزارة أو شغلوا مناصب أقل درجة ، من هم على استعداد لتنفيذ الاوامر التي قد يصدرها اليهم الخديو بناء على نصائح حكومة جلالة الملكة » .

وكانت البلاد وقد نالت قبل الاحتلال دستورا يحقق سلطة الامة ، اذ انشأ لها مجلسا نيابيا كامل السلطة كما تقدم بيانه وجعل الوزارة مسئولة امامه ، فالغى الاحتلال هذا الدستور ، واستبدل به نظاما يجعل سلطة الامة معدومة حكما وفعلا ، وصدر المرسوم الخديو بهذا النظام ، فى اول مايو سنة ١٨٨٣ ، وهو المعروف بالقانون النظامى ، فانشأ مجلس شورى القوانين ، والجمعية العمومية ، وهما هيئتان محرومتان من كل سلطة ، وظل هذا النظام مضروبا على البلاد من سنة ١٨٨٣ الى سنة ١٩١٣ ، أى زهاء ثلاثين سنة ، الى أن حل محله نظام الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ ، وهو أيضا من وضع الاحتلال ، ومن النظم التي كان مقصودا منها اهدار سلطة الامة ، وتعطيل نهضتها القومية ، واخضاع الحكومة لسياسة الاحتلال واوامره ، وبقى مجلس شورى القوانين ، فى السنوات العشر الاولى للاحتلال ، خاضعا مستسلما ، وظل موقفه طوال هذه السنوات سلبيا محضا ، ولم تبد منه ظواهر تدل على الحياة والوجود ، واقتصر عمله على النظر فى المشروعات التى كانت الحكومة تعرضها عليه وابداء مقترحات لا تحفل الحكومة بها ، ولم يكن له أى اثر فى

تطور الحوادث ، وتعاقبت الأحداث الجسام دون أن يسمع له صوت ، أو يحرك ساكنا للدفاع عن حقوق البلاد ، وكان أعضاؤه يعدون أنفسهم موظفين لدى الحكومة ، ليس لهم أن يحاسبوها أو يراقبوها فيما تفعل وتقرر ، وبقى المجلس خلال هذه المدة لاعمل ولا وجود له ، وكذلك شأن الجمعية العمومية ، وخيم على الأمة عامة فى تلك الفترة من الزمن جو من الخضوع والاستسلام ، وتضاءلت روح المقاومة فى النفوس ، مما كان له أثره فى الانحلال القومى ، الذى اصيبت به الأمة فى ذلك العهد .

ولقد ارتبكت مالية مصر فى السنوات الأولى للاحتلال ، وظهر العجز فى الميزانية ، بما التزمت به الحكومة من التعويضات عن حوادث سنة ١٨٨٢ — وقد بلغت أربعة ملايين وربع مليون من الجنيهات — وأدائها نفقات جيش الاحتلال سنويا ، ورواتب الموظفين البريطانيين ، الذين اسندت اليهم المناصب العليا فى الدواوين ، وما تكبدت من الخسائر وبددت من الأموال فى ثورة السودان ، وبلغ العجز من ذلك كله نيفا وثمانية ملايين جنيه ، حتى سنة ١٨٨٤ ، ففاوضت انجلترا الدول لسد هذا العجز ، وانعقد لذلك مؤتمر لندن الذى انتهى بتوقيع اتفاق لندن فى مارس سنة ١٨٨٥ ، لتسوية شئون مصر المالية ، وفحواه عقد قرض جديد لمصر بضمان الدول العظمى ، وهو المعروف بالقرض المضمون ، ومقداره نحو تسعة ملايين جنيه ، خصص معظمه لأداء تعويضات الأجانب عن حوادث سنة ١٨٨٢ وسد عجز الميزانية .

هذا . وقد تظاهرت انجلترا منذ احتلالها مصر برغبتها فى الجلاء ، وتعهدت غير مرة بسحب جيوشها . واتخذ هذا العهد صبغة عملية بمفاوضات اقترحتها الحكومة البريطانية

على الحكومة التركية ، لتحديد موعد الجلاء وشروطه ، وهى المعروفة بمفاوضات السير هنرى درومندولف.
Drumond Wolf

التى شغلت قرابة سنتين — من أغسطس سنة ١٨٨٥ الى يولية سنة ١٨٨٧ — وحددت فيها انجلترا موعد الجلاء عن مصر بسنة ١٨٩٠ ، ولكنها قيدته بشروط تتضمن الا يظهر فى مصر احتمال خطر داخلى او خارجى يقتضى تأجيل موعد الجلاء ، وانه اذا تم الجلاء فيكون لها ولتركيا بعد تمامه حق احتلال مصر ثانية ، فى حالة اضطراب الأمن والنظام فيها ، واذا وجد مانع لدى تركيا يحول دون ارسال قواتها الى مصر فانها تكتفى بايفاد مندوب عنها يبقى بها مدة احتلال الجيش البريطانى ، وتبين من هذه الشروط ان انجلترا لم تكن جادة فى تعهدها بالجلاء ، وانتهت لذلك مفاوضات درومندولف بالإخفاق ، وبقى الاحتلال قائما فى مصر .

اخلاء السودان
سنة ١٨٨٤

وفى خلال تلك السنين توالت الأحداث والكوارث ، واهمها تفاقم ثورة المهدى فى السودان عقب الاحتلال ، فلقد تصدعت هيبة الحكومة المصرية ، وفقدت استقلالها ، واضطربت أحوالها وأدى كل ذلك الى اغراء المهدى واستخفافه بقوتها . وزاد فى تفاقم الثورة أن الحكومة الخديوية بايعاز السياسة البريطانية استدعت عبد القادر باشا حلمى حكمدار السودان سنة ١٨٨٣ واقصته عن منصبه ، رغم فوزه ونجاحه فى محاربة الثوار وتوطيده سلطة الحكومة فى ارجائه . فكان استدعاؤه من أهم الأسباب لهزيمة الجيش المصرى امام

جموع المهدي ، اذ اسندت قيادة هذا الجيش في اشد الاوقات حرجا الى الجنرال هيكس Hicks احد القواد البريطانيين ، فدحره المهدي ، وهلك الجيش باكمله في واقعة (شيكان) يوم ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣ . فاتخذت انجلترا هذه الهزيمة ذريعة « لنصح » الحكومة المصرية باخلاء السودان بحجة عجزها عن الاحتفاظ به ، وكان محمد شريف يتولى رياسة الوزارة فرفض العمل بهذه « النصيحة » ووقف موقفه المشهور في الاستمساك بارتباط مصر والسودان . وقال كلمته المأثورة : « اذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » . واستقال في يناير سنة ١٨٨٤ احتجاجا على اخلاء السودان . وتولى الوزارة من بعده نوبار ، واقر اخلاء السودان . فكان هذا القرار المشئوم اشد ضربة اصابت مصر بعد الاحتلال .

ووزارة نوبار هذه هي اول وزارة تولت الحكم على اساس الاذعان « للنصائح » البريطانية . فلا غرو ان تغلغل النفوذ الانجليزي في شئون مصر على عهدها ، وقد بدات اعمالها باخلاء السودان ، ثم تعيين وكيلين بريطانيين لوزارتي الداخلية والاشغال . وتفاقمت مظاهر الحماية المقنعة على مصر في ظلها ، الى ان سقطت في يونية سنة ١٨٨٨ ، وخلفتها وزارة رياض . وهي وان كانت اقل خضوعا من وزارة نوبار للسيطرة البريطانية الا ان نفوذ الاحتلال استمر يتغلغل في شئون الحكومة . وفي عهدها عين اول مستشار قضائي بريطاني لوزارة الحقانية (العدل) ، ثم استقالت سنة ١٨٩١ ، وخلفتها وزارة مصطفى فهمي وهو الوزير الذي كانت تنشده بريطانيا — على حد تعبير اللورد الفريد ملنر Alfred Milner في كتابة (انجلترا في مصر) وكانت وزارته في اوج السلطة للاحتلال البريطاني . وبقي يتولى رئاسة

الوزارة حتى وفاة الخديو توفيق فى يناير سنة ١٨٩٢ . ثم تولاها فى عهد الخديو عباس الثانى الى ان اقاله فى يناير سنة ١٨٩٣ . ثم عاد اليها فى نوفمبر سنة ١٨٩٥ الى ان سقطت وزارته سنة ١٩٠٨ فى أبان اشتداد الحركة الوطنية .

وسنتناول الحديث فى الحلقة التالية عن مراحل البعث الوطنى وكفاح الشعب بعد التراجع الذى أصاب البلاد فى السنوات الاولى للاحتلال .

الرباعيـة الكبرى

في تاريخ مصر القـومى

تأليف المؤرخ الـكبير

عبد الرحمن الرافعى

١ ـ مصر في مواجهة الحملة الفرنسية

٢ ـ الثورة العرابية والاحتلال البريطانى

٣ ـ البعث الوطنى

٤ ـ بين ثورة ١٩١٩ وثورة يوليو ١٩٥٢

احرص على اقتناء هذه المجموعة النادرة

الفهرس

صفحة

تصدر عن
مركز النيل للاعلام
١ شارع دمياط
العجوزة - القاهرة
ت ٨١٢٢٠٨ - ٨١٢٨٦٢

الثمن